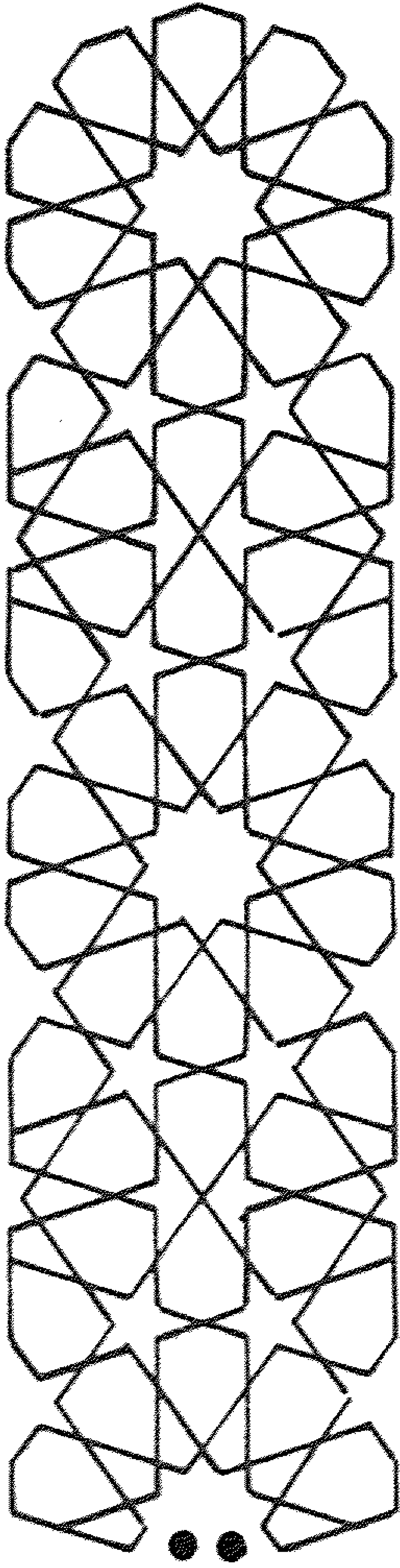
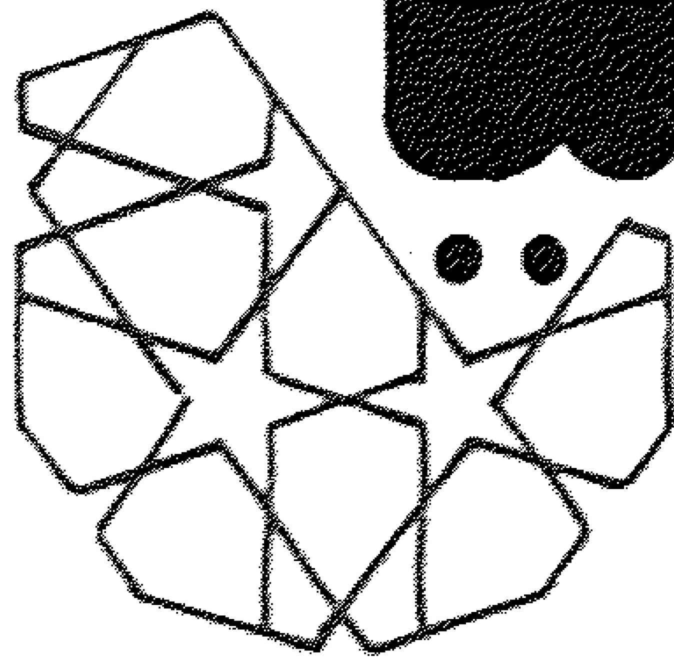
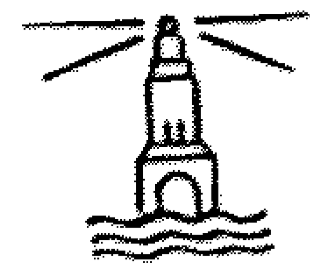


الحكومة الباطنية



دكتور
حسن محمد الشرقاوي

١٩٨٢



دار المعارف

الحكومة الباطنية

تأليف
دكتور حسن الشرقاوى
أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.



دار المعارف

إهـــــداء

إلى الخائفين ليثبتوا ، والمتشككين ليؤمنوا ، واليائسين ليتحرروا . . .
والتائبين ليطمئنوا . . .

إلى المؤمنين ليزدادوا إيماناً ، والصابرين ليشتدوا عزماً ، والمخلصين
ليروا ثمرة إخلاصهم ، والمجاهدين لينعموا ، والعارفين ليشهدوا . . .

إلى كل هؤلاء أهدى كتابي هذا . . . عسى أن يتقبلني تقبلا حسنا ،
ونعم بالله وكيلا ؟

المؤلف

د. حسن الشرقاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة إعزاز وتقـــدير

يسعدنى ويثلج قلبي أن يقدم للقراء الأعزاء باكورة إنتاجى ، العالم الجليل ، وأستاذى الكبير الدكتور / محمد على أبو ريان — رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية — بكلية الآداب — جامعة الاسكندرية — والذى كان له النصيب الأوفى فى بلورة أفكارى ، وشحذ عزيمتى ، وشد أزرى ، بفضل ما أسبغه على من تشجيع، وما أولانى به من رعاية واهتمام ، مما حفزنى إلى ركوب الصعب، وعدم التسليم للعوائق مهما عظمت، حتى أصبح المحال ممكناً، والصعب يسيراً، فلم يثننى عن عزمى ما أبداه بعض الأساتذة الأجلاء من صعوبة إخراج هذا البحث، نظراً لندرة المراجع فى هـــذا الموضوع ، كما أنه لا يعتمد على وقائع ملموسة فحسب ، بل يتطلب ذوقاً خاصـــاً ، واستعداداً معيناً ، ينبغى توافره فى الباحثين الذين يخوضون غماره .

والحقيقة التى لايمكن إنكارها ، أن أستاذى الدكتور / محمد على أبوريان قد غمرنى بفيض عـــلمه ، وصدق نصحه ، وحفزنى إلى مداومة البحث والدرس ، فسافرت شرقاً وغرباً ، وشاركت أهل الحق مواجيـــدهم ، وأقبلت بهمة على حضراتهم ، وحاولت أن أتذوق ما تذوقوه ، وأعاين ما عاينوه ، فلم أسلم من سكرة الوجد . حتى أنه وصل بى الحال فلم أميز بين أن أكون دارساً ومتذوقاً، ملاحظاً وملاحظاً ، وهنا أرشدنى أستاذى إلى الطريق الذى يجب على أن أسير فيه ، وعلمنى كيف أفرق بين نظرى وذوقى ، وبين عقلى وقلبى .

وحقاً ، لقد أتعبته كثيراً ، حتى جاء هذا العمل كثمرة ، للمعاناة والمكابدة والمجاهدة .

فله منى أجل الثناء ، إعترافاً بفضله ، وإقراراً منى بحسن صنيعه ، لجزاه الله عنى كل خير ، ونفعنا الله جميعاً بعلمه الفياض ، وفكره المتجدد الخصيب .

والله ولى التوفيـــق ؟

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم :

السيد الأستاذ الدكتور محمد على أبو ريان

رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية

كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

هذا السفر الذى أخرجه الدكتور حسن الشرقاوى فى مجال الدراسات الروحية فى الاسلام إنما يعد باكورة الأعمال التركيبية الجادة التى خطط لهـــا المؤلف ، ولا يزال يعكف على إخراج النفيس منها على مدار حياته العلمية . والكتاب يتألف من سبعة أبواب يعالج المؤلف فى معظمها التنظيم الباطنى للحياة الروحية فى الاسلام وقد برع المؤلف فى استنباط القواعد والأصول ، وتحقيق المراسم التى نشأت معها وفى ظلها وبسبب منها دولة الباطن جاهدة فى أن تقيم الفواصل بينها وبين دعاوى الباطنية وشبهاتهم .

على أن أوصاف هذه الحكومة الفريدة فى نوعها قد خاض فيها كتاب سابقون ومعاصرون كالسخاوى والشعرانى والمناوى من السابقين ، ثم الدكتور توفيق الطويل من المحدثين ، إلا أن كتاباتهم كان يعوزها أمران ، أولهما المنهج الدقيق ، وثانيهما الدراسة الحقلية ، وكلا الأمرين قد تلافاهما المؤلف ، وقدم لنا دراسة طيبة عن حكومة الباطن مقارناً إياها بحكومة الظاهر ، مستعرضاً دستور الحكومة الباطنية ومصادر التشريع فيها مشيراً إلى كيفية صدور الأوامر والأحكام فى ظل رئيسها القطب الغوث ، معرجاً إلى بيان تقاليد مجالس الحكومة الباطنية ، والمواضعات التى استقرت عليها محاكم الأولياء .

وقد استند المؤلف فى كل ما أعطى إليه من صفات وخصائص لهذه الدولة أو لهذه الحكومة إلى دراساته الميدانية التى كانت (طنطا) مركزاً لها ، وتبلورت آراء مدرسة السيد البدوى فى الجامعة السطوحية .

وقد استند فى آرائه إلى النماذج التى أشار إليها ، إلى منطقة -سيدى بشر- ومنطقة دسوق ومنطقة دمنهور .

والحق أن المؤلف قد عالج موضوع الحكومة الباطنية معالجة علمية موضوعية شاملة ، فلم يتعرض للبنية والوظيفة فحسب ، ولكنه أشار إلى الخصائص والسمات الأساسية والفرعية التى تلزم هذه الحكومة لزوماً ذاتياً ، وأيضاً السمات التى تلزمها كنتيجة للتطور الزمانى ، والبيئة المكانية ، فحدد فى الباب الرابع أهم هذه الخصائص ثم لم يفته أن يوجه أنظار القارىء إلى الثمرة المرجوة من وراء هذه الدراسة ، فعرض فى الباب السابع لما ينتظر الصوفى من ثمرات العمل والطريق .

- والكتاب مذيل ببعض المراجع التى تختلف فى قيمتها من حيث الإصـــالة والفرعية ، والتى تنم عن جهد المؤلف العريض فى تتبع المعلومات التى ساقها المؤلفون فى الأصول قديمها وحديثها .

والله نسأل أن يوفق المؤلف ، ومن سار على دربه إلى إثراء مكتبة التصوف خاصة والمكتبة الاسلامية عامة ، وأن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير والسداد ، وأن يهبنا نحن أسرة الدراسات الفلسفية فى الاســـلام ، مزيداً من العزم والقوة على متابعة المسيرة وإخراج مؤلفات أخرى عن مضامين الحياة الروحية فى الاسلام خاصة ، وعن التراث الاسلامى عامة .

والله الموفق سواء السبيل ؟

د. محمد على أبو ريان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب جمع بين الدراسة المسحية العلمية للطرائق الصوفية في منطقة الوجه البحري بجمهورية مصر وبين البحث النظري المركز لما كتبه أئمة الصوفية عن الفكر والسلوك الصوفي في الأزمنة والعصور المختلفة .

وقد حظي الكتاب بعناية واهتمام فضيلة الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق - طيب الله ثراه - فعمل على شراء النسخ المطروحة في المكتبات المختلفة ووزعها على محبي التصوف ، وأشاد بهذا العمل في كل مجلس حتى رفعني إلى مقام لا استحقه ابدا ...

وقد نفذت الطبعة الاولى من هذا الكتاب نتيجة لما أولاني به فضيلة الإمام الراحل من عناية واهتمام ، وعندما نفذ الكتاب من الاسواق أمر فضيلته باعادة طبعه على نفقة الازهر الشريف بيد أن المنية عاجلته قبل أن يتم هذا العمل .

ومهما ذكرت من كلمات في ذكرى هذا الامام العظيم فان قلبي قبل لساني يعجز عن اعطائه حقه من الشكر والتقدير والعرفان بالجميل ، فلقد شجعني ايما يكون التشجيع ، ووقف بجانبي عند الشدة ، وقدم لي كتابي الثاني « نحو علم نفس اسلامي » ولم يتوقف لحظة عن معاونتي ما وجد لذلك سبيلا ......

وكتاب الحكومة الباطنية الذي نقدم طبعته الثانية ، قد أثار بعض

الشكوك حول عنوانه عند صدوره أول الأمر ، وانحصرت الشكوك التى أبداها البعض حول مفهوم الحكومة الباطنية وهل هي مقابل الحكومة الظاهرية أم المقصود الباطنية وهى الفرق الضالة الخارجة عن الإسلام .

والحق لا علاقة بين الحكومة الباطنية والفرق الضالة مثل القرامطة البابكية المزدكية والثعلبية والمحمرة والسبعية والحشاشين وغير ذلك من الفرق الضالة المضللة التى تزعم أن للقرآن ظاهر وباطن وأن ظاهره هو القشر وباطنه هو اللب ، أما الغبي فانه يهتم بالقشر دون اللب وأما الذكى فهو الذى يهتم بلب القرآن ويرمى القشر بعيداً ......

وهذه الفرق الضالة المضللة قد خرجت عن الاسلام من حيث أنها لم تتقيد بالكتاب ولا بالسنة، واستمرأت الكذب والرياء والضلال والتضليل فأمرت اتباعها برفع التكاليف والفرائض المقررة واتخذت لأنفسها مذاهب زائفة وأفكارا عفنة ، وعقائد منحرفة ، تجعل مما هو غير معقول مقبولا ، وكل ما هو غير مقبول معقولا ، فكانت بمثابة الصديق الخائن والعدو فى ثياب الصديق ، وسلكت سلوكا انحرافيا بعد عن حقيقة الإسلام ، وامسكت بمعاول الهدم لتخرب كل القيم الطيبة ، وعمدت إلى اغواء بعض ضعاف النفوس بما تثيره فيهم من نعرات وشهوات ، فجذبتهم إلى صفوفها ، وأغوتهم بما تقدمه اليهم من أباحات لترضى أصحاب الأهواء ، إلى أن وصل الامر بهم إلى رفض كل فضيلة وموافقة كل رذيلة .... ..

أما الحكومة الباطنية التى نقدمها للقراء فهى حكومة الاولياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ليس فيهم خارج ولا ضال ولا مرائى ، انما

هؤلاء هم الثلة الطاهرة المطهرة من أهل الله الذى صدق باطنهم وظاهرهم فأخلصوا فى عبادة الله وعملوا بما أمر تعالى وانتهوا عما نهى عنه ، فعمرت قلوبهم بالورع والتقوى ، وفتحت لهم أبواب الرحمة ، وانغلق عنهم باب الذلة ، وكشف الله لهم طريق النور فلم يقبعوا كأهل الضلالة فى الظلمة .. ...

هم الصادقون المخلصون حقا الذين يرون أن لا شريعة بلا حقيقة ، ولا حقيقة بلا شريعة وان من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، وان من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق .. ولا يعول على كلام ولا يهتم بكرامة من يزعم انه يطير فى الهواء أو يمشى على الماء أو يأتى بفاكهة الصيف فى الشتاء مادام لا يتقيد بشريعة الله ولا يؤد حقوقه تعالى من الفرائض والتكاليف الشرعية ..

انهم الصفوة التى حافظت وتحافظ على حقوق الله ، وتعمل جاهدة على تطبيق شريعته ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، مهما لاقت فى سبيل ذلك من مكابدة وشدة ومحن ومعاناة ..

وهؤلاء لا يبحثون عن مصلحة دنيوية ولا منافع وقتية ، ولا يسعون إلى كراسى الحكم ليعتلونها أو إلى الشهرة ليصعدوا فى سلمها ، انما هم أهل الله لا هدف لهم إلا مرضاته تعالى ، ولا غاية لديهم إلا التقرب إليه بالنوافل والعبادات ، وهم يدركون تماما ان الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس فحسب ، وأن الحياة الأخرى هى الحياة الأفضل والأبقى إذ أنها الخالدة الدائمة ...

فالعلاقة بين الحكومة الظاهرة والباطنة فى نظر الاولياء تقوم على أسس من الشريعة السمحاء ، فلا تسلط على الحكومة الظاهرة ولا انكار لوجودها ،

وبالفعل هناك اتصال وثيق بينهما قائم على الأخذ بالقرآن الكريم والسنة المحمدية .

فلا تناقض بين الحكومتين ، ولكل مجاله فى الفكر والسلوك والتطبيق ، فالحكومة الظاهرة تحقق استتباب النظام والامن والمحافظة على الاداب بين الناس ، والباطنة تحقق الامن النفسى لكل من انخرط فى طريقها وترسم له طريق السعادة الأخروية .

لا تعارض إذن بين الحكومتين ولا تنازع فى الاختصاصات ، فالحكومتان تسيران جنبا إلى جنب فى سبيل منافع الناس وتحقيق العدل والخير فى الدنيا والاخرة تحت ظلال الشريعة السمحاء وسنة محمد صلى الله عليه وسلم .

أما الطاعنون والذين فى قلوبهم مرض يودون أن يدمروا العلاقة بين حكومة الظاهر وحكومة الباطن فيسعون فى الارض خرابا ويفسدون كل معنى طيب ويشيعون الفرقة بين الناس بهدف أن تنتشر الفوضى ويعم الفساد ...

لكن الله لهؤلاء بالمرصاد ، فانه تعالى ينصر من ينصره ويدافع عن الصالحين ويدفع عنهم الظلم والظالمين وبالله التوفيق .

المؤلفان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليس هناك أبدع من أن يكون للإنسان عقيدة إلهية يتمسك بها ، ويدافع عنها ، ويجعلها نبراساً يضيء له سبل الحياة الدنيا فى مظاهرها المختلفة ، وصورها المتناقضة ، وأشكالها المتنافرة . ذلك لأنه بدون هذه العقيدة الإيمانية ، فإنه وإن بدا للإنسان اكتمال عناصر النجاح المادى والأدبى ، فإنه يشعر شعوراً أكيداً بأنه ما زال عبداً لمواجسه ، أسيراً لعاداته ، سجيناً فى بحر ملذاته وآلامه ، تتقاذفه ريح عاتية وتطيح الأمواج بسفينة حياته ، وهو لا محال غارق وإن طالت كبوته .

لذلك تظهر أهمية العقيدة للإنسان ، لأنها تعطى له كياناً ووجوداً ، ولحياته غاية وأملا ، ولفكره منطقاً وعلماً ، إذا ما امتلأت نفسه بها ، فإنها تصبح طريقاً وسلوكاً ، نوراً وهداية ، خلقاً وعملا ، فإذا سار الإنسان على هديها ، تفتحت له السبل ، وقرب من منابع النورانية ، واستظل بالفتوح الإشراقية ، فتفيض نفسه حينئذ بالحب والأمان ، وتخلد إلى الراحة والاستقرار ، وتشتاق إلى المودة والصفاء ، وتلبس ثوب العزة والرحمة ، فتكون نفساً راضية ، التوكل وردها ، والصبر رداؤها ، والإخلاص مبدؤها ، والطاعة بستانها ، والنية الحسنة ظاهرها وباطنها ، والمعرفة طريقها ، والبقاء فى الله سبيلها وغايتها .

فإذا ما تحقق للنفس ذلك بفيض رحمانى أو منة ربانية أو نعمة إلهية ، تصبح فى محبة الحبيب ، وتستظل بنوره السرمدى ، وتتحقق بالشفافية فى رحابه القدسى

حيث تكون قد خلصت من شوائب اللذات، ومن مفاسد العادات، واستراحت من الخواطر الشيطانية، ومن الشهوات الدنيوية، فهي نفس خالصة لعزته، مبتهجة بنور طلعته، عاملة لرضا جلال عظمته، عابدة متعبدة في نور وحدته، فيقترب الوريد من الوريد، وينهال الفيض من الجنات، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي هذا المقام العلوي تكون النفس قد وصلت إلى الكمال الأخلاقي، أو الولاية التامة، فتصبح العقيدة إيمانا وسلوكا، شريعة وحقيقة، ظاهراً وباطنا، إسلاماً واستسلاماً، ذكراً وكشفاً، فكراً وعلا، نوراً ومعرفة، وهنا يكون للحياة معنى، وللوجود هدف وغاية، ويعرف الإنسان مكانه من الوجود، فيصعد دائما درجات، وكلما ازداد صعودا ازداد اكتمالا وأشرقت نفسه بالسعادة الحقيقية، والهناء السرمدي.

وعالمنا اليوم بما يزعم أنه توصل إليه من عجيب الاختراعات، وغريب الاكتشافات، وما يسره للإنسان من بدائع الصناعات، وما ابتكره من الأدوات التي تسهل للانسان حياته، وتقرب له البعيد من الأشياء والأمكنة، أقول أنه رغم ذلك كله يعيش الإنسان شقيا تعيساً، تحتويه المتاعب النفسية، ويظله كابوس الصراعات المادية، فيجعله أقل احتراماً لنفسه ووجوده، أدنى للعبودية منه إلى الحرية، لا يشعر بلذة النجاح والابتكار، ولا بهناء ولا استقرار بل على العكس يشعر بأنه مسمار تدوسه الآلة الصماء، وعجلة يمر عليها قطار مجنون، يطحن عصارة الأفكار، ويلوك بين أضراسه لحم الإنسان وشحمه، كمارد جبار يزاحم أهل القرية المطمئنة رزقها وأمنها، علمها وعيشها، ويفرض عليها أبداً التسليم والطاعة لجبروته وسطوته.

ولكن هل يستمر خوف الإنسان ؟ . . . حقا إن خوف الإنسان يدفعه إلى التسليم والطاعة ، بل والعمل على تحميل الواقع وتقبله ، لا عن حب ورضا ، بل عن اضطرار وإجبار يفرضه هذا المارد الجبار الذى يسمى التقدم المادى أو الصناعة المتجددة .

إلا أنه على الإنسان ألا ينخدع بهذه الحضـــارة الزائفة ، ويستسلم لقوتها وقدرتها على البطش والاحتكار ، بل عليه أن يقوى نفسه حيالها ، ويعمل جاهدا أن يمتلكها بدلا من أن تمتلكه ، بمعنى أن تكون فى يده ، وليس فى قلبه ، فلا هو برافض التيسير والتقدم المادى، ولا هو قابل أن تفرض عليه الآلة فرضاً كأن ليس لها من بديل . ذلك أن الانسان لكى يكون إنسانا حقـــا، عليه أن يرضى بعض متطلباته فى حدود ماشرع الله من مباحات ، وما أوجبه من حلال، وما نهى عنه من حرام . كما عليه أن يختبر ما يقدم إليه من مغريات التقدم والتيسير ، ذلك أن كثيراً من المكتشفات الحديثة إنما تعمل على شقاء الانسان وتعاسته ، وان قدمت له فى أطباق شهية تحمل الاثم والسم والدمار، فالامتحان لهذه المنجزات ضرورى وهام ، فإن كانت لإسعاده أخذ بها ، واستفاد منها ، وإن كانت لتعاسته ، رفضها وابتعد عنها . . .

كما أن على الإنسان أن يرضى قلبه وربه ، روحه وكيانه ، بشريته وانسانيته ، فيغذى سلوكه بما هو أخلاق ومثالى ، ويقبل على هدف وجوده ، ويتعرف على أسباب تواجده فى الدنيا ، فإنه بما فطر عليه من الخير، يعلم أنه وجد لرســـالة يؤديها ، وأعمال عظيمة عليه أن يمضى إليها ، وسلوك أخلاق عليه ألا ينحرف عنه ، فإذا نسى ذلك أو تناسى . طبعت إنسانيته بطابع ماديته ، واتخذ من طريق المادة سبيلا لتحقيق معنى واحد ألا وهو إرضاء شهواته ولذاته ومظاهره

الكاذبة ، وبذلك يفسر عن عمد أو تعمد الجانب الروحى فيه ، بل يحاول دائماً أن يدنسه بالمحرمات والمعاصى والمحظورات ، فتنطفىء فى نفسه ومضات النورانية ، ويخفت بريقها ويخمد نورها ، ويستبدل بها الرياء والنفاق والاغترار ، وهذه هى الانتكاسة الكبرى والسقوط المقيم .

فأى الطرق ينتهجها الإنسان والحال هذه ؟ . . . وكيف يتم له الاختيار ويستقيم عنده الخيار ؟ . . . هناك كثير من الناس يعتقدون أن هذا الذى نهتم به قول لا أهمية له ، مردود عليه ، وأن تطبيقه محال ، وأن فرضه على الإنسان يؤخره ويعود به إلى حياة البداوة والغابة .

والواقع أن هؤلاء القوم فارغو القلوب ، ضعيفو الإيمان ، لأنهم لا يتفكرون ، فالإنسان الذى لا يحاسب نفسه على زلاتها ، والذى لا يطيق صبراً فى اختبار ، أو امتحان ، والذى لا يقدر على الصمود أمام العوائق والعقبات غير الإنسان الصادق الأمين ، الصابر ، العفيف ، فهذا معدن ثمين ، وجوهر فريد لا يمكن التشكك فى قدرته الخلاقة ، وإرادته الجبارة ، مهما لاقى من العوائق والصعاب .

وهؤلاء النفر القليل ، قد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وتعرفوا على المثالب والعيوب ، وسلكوا طريق الحق والمعرفة ، واستناروا بنور الاستقامة ، والطهارة ، فاستظلوا بكؤوس العزة والنعم ، ومضوا مجاهدين فى الله ، مذاقوا ، فلما ذاقوا ، سكروا ، ولما سكروا شاهدوا ، فلما شاهدوا ارتوا ، فلما ارتوا علوا ، فلما علوا ارتقوا ، فلما ارتقوا وصلوا ، فلما وصلوا فنوا ، ثم بقوا فى الله ، ولله ، وبالله ، ومع الله .

لقد أفاض الله عليهم من منته ورحمته ونعمته ، ورضوانه ، فرضى الله عنهم

---

(١) راجع كتاب ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف .

ورضوا عنه، هم أحباؤه وأولياؤه . هؤلاء أصحاب الحق العارفون بالله، رجال الليل الصادقون ، الساجدون ، بالعشى والأسحار ، الذين يتفكرون فى الله قياما وقعودا ، فى يقظتهم ومنامهم ، قوم استضاءت نفوسهم ، فأصبح علمهم عملا ، وظاهرهم باطنهم ، قوم صدق ، تعارفوا فتحابوا فى الله ، وتعاونوا فعملوا بما علموا ، فأعطاهم الله علم مالم يعلموا ، تواصوا بالخير والمرحمة ، وتدافعوا إلى الى الإيثار والإحسان ، مجلسهم مجلس أنس وبهجة ، وعلمهم من الله ولله ، قلوبهم نورانية مشرقة بصفاء الله ، لا يحدهم مكان ولا زمان ، سيماهم على وجوههم ، أصحاب الكمال والجلال ، لا يخافون غير الله فهم قدوة للعالمين ، وباب انصاف المظلومين والمحرومين ، ومنار صدق المريدين والسالكين .

لهؤلاء الصالحين ، دولة وحكومة ، ونظام ورئاسة ، وطاعة وإخلاص ، وإحكام ، واتصالات ، ومجالس واجتماعات ، وأوامر وتعليمات ، وسلطات واختصاصات ، ليس كما نراها فى الحكومات المدنية ، أو فى القوانين الوضعية ، أو فى الدساتير والقواعد القانونية ، وإنما دستورهم لم يضعه من البشر أحد ، وقانونهم لم يصنعه أحد من الناس ، وإنما وضعه رب الناس ، وخالق الموجودات ، الحق تعالى ، إله العباد .

والأولياء يتصل بعضهم ببعض عن طريق المبشرات ، وهى رؤى يراها المؤمن فتتحقق له ويتقابلون بطريق التوجه رغم بعد الزمان والمكان ، ويلهمون إلهاما بالمغيبات ، وحلول المشكلات ، ودولتهم تقوم على مصادر ثلاثة : الرؤيا ، والطاعة ، والاخلاص الذى سبيله النية الصادقة والقلب النورانى .

ويتأكد للدولة الباطنية وجودها ، بما يفيض الله على أعضائها من كشوفات ، وانتصارات ، وفتوحات ، وفيوضات ، وما يمن عليهم من نعم ، ومنن وعطايا

ومشاهدات ، وتجليات ، وما يتولاهم الله برعايته من رحمات ، فيفتح عليهم، فيصبحون من عبـــاده المخلصين ، إذا قالوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا ، لهم فراسات وتوسمات ، ورؤى وكرامات، وحكم ومعارف ، وعلوم إشراقية يجل عنها الوصف ويقف أمامها العقل حائراً .

وأعضاء الحكومة الباطنية من الأولياء لا يخلعون عنهم رداء الشريعة الغراء ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؛ لا يخلدون للمظاهر الخادعة ، ولا يهتمون بأموال الدنيا الكاذبة ، حقائقهم توافق ظواهرهم ، يعيشون فى الدنيا كرحلة عابرة يمسكونها بأيديهم ، وتنفر منها قلوبهم ، يروون بالشهادة الأرض بالدماء الذكيه ، ويعمرونها بالطهارة والأنوار البهية ؛ يكرههم كل فاسق عنيد ، ومكابر بليد ، يتقلبون فى أحوالهم من درجات الى درجات ، ومن حال الى حال ، ومن مقام الى مقام،حتى يحظون بالصديقية العظمى ، والولاية التامة .

وهذا الكتاب الذى نقدمه للقراء الأعزاء هو ثمرة متواضعه ، لمعايشة أهل الطريق فى الله ، اعاننى الله على اخراجه بعد توقف واحجام ، فلقد أيقنت أن المسلمين قد تأكد لهم أن سر قوتهم وعظمتهم يكمن فى قربهم من الله واعتمادهم على نصرته ومؤازرته تعالى؛ فمن كان يصدق قبل حرب العاشر من رمضان أن جنودنا قد عبروا مناطق الهزيمة الى نصر محقق على أعداء الله، رغم قلة العدة والعتاد لأن هناك قوة عليا ألهمت المقـــاتلين ، وأفزعت الاعداء ، فانطلقوا فى رحلة يســـيرة يذيقون المفتونين نارا ودمارا ، وكانوا يتوجون انتصاراتهم باسمه تعالى « الله أكبر . . الله أكبر » ، فحققوا ما كان مستحيلا ووصلوا إلى ما كان محالا .

هؤلاء الأولياء أصحاب الحكومة الباطنية ظاهرهم وباطنهم « الله اكبر »

فهم لاشك كانوا مع جنودنا البواسل يحاربون أعداء الله ويهتفون باسمه الاعظم، ويدعون الله أن يشد من أزرهم ويتولاهم بنصر مؤزر من عنده ، ورحمة من رحماته ، مما كان له الأثر العظيم فى النصر المبين.

لذلك فاننا لا نشك فى أن هذا الكتاب بطبعته المتواضعة ،يساعد النفوس المتعطشة لمعرفة أثر الايمان فى التغلب على ما يعتقد أن أصحاب العقل أو النظرة العلمية أنه من المستحيلات، فهناك شىء فوق المادة والعلم الوضعى يسمى الروح ، وهناك عالم غير هذا العالم الكثيف يسمى العالم اللطيف، بل هناك أيضا حكومة باطنية، يتصل أعضاؤها بعضهم ببعض بشكل ما ،لهم روابط وتوجهات ورؤى والهامات. ولهم رئيس يسمى القطب،الغوث،ويساعده الاوتاد،والابدال، والنجباء،والرجباء، والرقباء، والنقباء، والرفقاء، وأهل الغيب، وأهل النجدة، وغيرهم من الأولياء، وجميعا يحملون لواء هذه الحكومة كل فى اختصاصه كما أن لهم دستورا ودليل عمل وأوامر وأحكاماً ، ومجالس يجتمعون اليها ، وعلوماً يسألون فيها .

واننا نأمل أن يجد القارىء فى هذا الكتاب شيئا جديدا ، يحمل له الأمل والامان فى مستقبل حياته الدنيوية والأخروية ، ويعاونه على الرد على الكثير من التساؤلات التى يختلج بها فؤاده ؛ بل ويساعده على تخطى العقبات والمعوقات، ويملأ قلبه حبا ويقينا ، ويؤيد طريقه الى الله بما يجده من أعمال الصالحين، وما يراه من كرامات أهل الحق الصالحين . . .

ومما لاشك فيه أن هذا هو أعظم مطامحنا ، وأغلى أهدافنا ، بل وغاية حياتنا وأمل آمالنا ، فالطريق شاق وعر ، والنفس أمارة ، والخوف قائم مقيم ، والقلق قد هز النفوس فباتت تعانى الأزمات تلو الأزمات ، والصراع فى الوجود عنيد بين طريق الخير وطريق الشر ، والاختيار أبدا شاق ، والرضا عما نحن

فيه بعيد بعيد ، فمـــا بالنا لا نقبل على تذوق تجربة الصادقين ، والباب مفتوح امامنا مادام القلب بالإيمان عامراً ، وبالنية الصادقة فى التوبة راغباً ، وفى الطاعة والاخلاص صادقاً عاملا .

إذا كان الأمر كذلك فلنقرأ هـــذه الصفحات عسى الله أن يفتح قلوبنا بنوره ، ويشدنا لمعرفة جلاله وجماله وكماله ، ويفيض علينا من نعمه ومننه ، أنه سميع مجيب ؟

د. حسن الشرقاوى

الباب الأول

التنظيم الباطني للولاية الروحية

مقـــدمة :

يتقبل الناس السلطة فى المجتمعات الحديثة على أساس الاعتراف بأنها ضرورية إذا ما أريد لشئون الحياة اليومية أن تؤدى على وجه مرض ، ولاشك أن الزعامة تظهر بدرجة ما، وفى صورة ما ـ حيثما يتجمع عدد كبير من الناس ... لكن القادة الطبيعيين ـــ وهذا اصطلاح شائع لهم ـــ موجودون فى كل التجمعات بشكل و بآخر . . .

وإذا تعمقنا فى نظام الطرق الصوفية، فإننا نجد أنهـــا جميعاً تخضع لقادة طبيعيين ، كما تخضع كل طريقة إلى واحد منهم ، وتعتبر أقوالهم وأفعالهم القدوة الطيبة التى تؤثر على أفراد الطريق، دون اعتراض، بل ودون تدخل العقل فى الأمر، إذ أن حاجـه المريدين إلى الغـذاء الروحى الذى يشفف النفوس والذى أساسه الحقيقى هو الإلهام أمر ضرورى يدعمه المنطق ويؤيده الواقع الملموس .

لذلك فإن الصوفية يربطون بين الظاهر والباطن ربطا منطقيا على هدى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك بتطبيق الطريقة على الشريعة، والشريعة والطريقة على الحقيقة ، ولهم فى ذلك موازين خاصة يحكمون بها على الأفعال ، فما يظهر أحيانا لعلماء الظاهر من الفقهاء على أنها كبيرة من الكبائر تعتبر أحيانا عند الصوفية من الحسنات التى يثاب عليهـــا الانسان ، رغم أنه ليس هناك تناقضا بين الشريعة والحقيقة ، أو الظـاهر والباطن ، وإنما اختلاف الأحـكام ناتج عن الفرق بين النظر والذوق .

فمثلا إن كانت الصلاة فرضاً واجباً على كل مسلم أداؤه ، فإن تاركها يعد عند بعض المـــذاهب كافراً أو خارجا عن الدين وبالعكس فإن الذى يؤدى التكاليف الظاهرة ينظر إليه كرجل صالح رغم أنه يمكن أن يكون مرائيا .

أما الصوفية فإنهم ينظرون إلى العلاقة بين العبد وربه على أنها علاقة باطنية وأن الفعل ليس حسب الظاهر فحسب ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فالصوفية بهذا المعنى يؤسسون حياتهم الأخلاقية على أساس النية ، والطاعة ، والاخلاص لله جميعا .

ولقد أجمع المفكرون والفلاسفة الذين عنوا بالمسألة الأخلاقية[1] على أن الارادة الخيرة هى معيار الحياة الأخلاقية الانسانية، إلا أنه فى تصورنا أن الارادة الخيرة ليست كافية ليكون الانسان فى عمله أخلاقيا، فانه مع وجود خير إرادة فى الدنيا، وأصدق مجهود لتحرى الصواب، وأقوى عزيمة ، قد يخطىء الانسان خطأ فاحشا فى نظره إلى الخير والشر والعدل والظلم جميعاً.

إذ أن الارادة الخيرة عند الفلاسفة تهدف من الأفراد فى المقام الأول ضبط النفس وتهذيبها ومساعدة الآخرين ، بمعنى أن يكون الانسان اجتماعيا ، ويحقق المثل الأعلى باتباع هذا الطريق أو ذاك .

وإنه لمن الجلى الواضح أن المفكرين والفلاسفة حاولوا على مر العصور حل المسألة الأخلاقية، وقد تمخضت الجهود التى بذلت لحلها عن قواعد معينة، وتراكيب عددة كان مصيرها جميعا الفشل الذريع ، وذلك لربط هؤلاء الفلاسفة وبطائفة نصفيا بين الحياة الروحية والمادية[2] .

---

(١) اندريه كرسون — المشكلة الأخلاقية والفلاسفة — ترجمة د. عبد الحليم محمود ص ١٨ وما بعدها ط ٢ . دار الكتب الحديثة ١٩٤٦ .

(٢) المرجع السابق .

أما الصوفية فقد نجحوا نجاحا باهرا فى مجال السلوك الأخلاق ، فالشريعة والحقيقة عندهم متحدتان ، لا تغاير ولا تناقض بينهما، بمعنى أن الشريعة إجمال ، والحقيقة تفصيل ، والشريعة استدلال ، والحقيقة كشف ، والشريعة غيب ، والحقيقة شهادة .

فإذا ظهر بعض الخلاف بين علماء الشريعة وأهل الحقيقة، فهو ليس اختلافا جوهريا وإنما نتاج عن التقلب المستمر للصوفى أثناء رحلة المجاهدة ، وانتقاله من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، فيكون ظاهره غير ممكن إخضاعه إلى قواعد العامة من المسلمين إلى أن يستقر فى مقام دائم وهنا تظهر التجليات .

وفى ذلك يقول الامام أبو الحسن الكاتب : الفلاسفة نزهوا الله عن طريق العقول فأخطأوا ، والصوفية نزهوه عن طريق العلم فأصابوا(١) .

---

(١) عبد السلام الحلوانى — الرسالة الوفية فى الرد على منكرى الصوفيـة ، ص ٢١ مطبعة نصر الفضائل .

الفصل الأول

نشوء الحكومة الباطنية

- إن الذين يعرفون شيئا عن علم العمران يدركون أن الدولة مهما بلغت من وضعيتها لا يمكن أن تتكون أو توجد بالطرق الصناعية ، فليست هي التي تصنع في مصنع ثم تنقل وتثبت في موضع آخـــر ، بل إن الدولة تنشأ في المجتمع نشوءا طبيعيا لأسباب أخلاقية، ونفسية، وعمرانية، وتاريخية ،وتتفاعل هذه الأسباب فيما بينها فتكون موادا أولية لازمة، ومحركات إجتماعية واجبة، ومقتضيات فطرية ضرورية، تجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الدولة إنبعاثا (١) .

والدولة الباطنية إنما هي في تصورنا ، نتيجة حتميـة لنمو واكتمال مذهب الصوفية، فلقد إجتمع للصوفية من الأسباب والأصول في صدر الإسلام، ثم بعد صدر الإسلام، ما كان خليقا أن يكوّن طرازا خاصا من الحكومة تلائم تكونها ورقيهـا .

وإننا لا نبـالغ إذا قلنا أن هذه الدولة تمثـل طرازا فريدا في نوعه في هـذا العالم حديثه وقديمه ، وإن من أهم خصـائصها أنها تجمع بين الظاهر والباطن ، أى بين الإسلام والإستسلام لله ، فالإسـلام يعبر عن حظ الحيا كل ، وعدم المنازعة والإستسلام هو حظ القلوب ، فالإسلام بهذا المعنى هو الصورة ، والإستسلام روح تلك الصورة، وكما يقول ابن عطاء الله السكندرى (٢) المسلم من أسلم نفسه إلى

---

(١) الأستاذ أبو الاعلى المورودى ــ منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٦ ــ دار الفكر .

(٢) الشيخ ابن عطاء الله السكندرى ــ التنوير فى إسقاط التدبير الطبعة الاولى ١٩٣١ ص ٣ وما بعدها .

الله فكان ظاهرا بإمتثال أمره، باطنا بالإستسلام إلى قهـــــره .

ومعنى ذلك أن هناك ترابطا متينا بين الظاهر والباطن فى هذه الدولة دون العمل على تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية تطبيقـا قشريا — كما هو موجود — فى القوانين المدنية مثلا، إذ أنه اذا لم يتم الربط بينها، وبين الباطن لادى ذلك إلى تناقض وإنهيار فى النظام الاخلاقى .

ويرى أحد المفكرين(١) ضرورة إستخدام تعبير «جوانى» فى مقابل «البرانى» ويقصد بهما الباطن والظاهر. ويؤيد القول الشائع بأن التغيير الجوانى أصعب من التغيير البرانى ، ويرى أن الحياة الروحية لاتنافى الحياة الدنيوية، وأن الأخلاق الصحيحة فى الأيدلوجية الإسلامية، معناها تدبير الحياة المادية لمصلحة البشر وفقاً الأحكام والمبادىء السماوية ، وبعبارة أخرى إن الاخلاقية الكاملة تقتضى الوعى التام. لما ينبغى أن يكون بين الجوانى والبرانى من صلة وطيدة (٢) .

ويتفق هـ. ر. جيب فى كتابه (٣) Mohammedanism فى أن الصوفية تمد نظمها الباطنية من عمل منسق من التنظيمات التى تنتشر من حد إلى حد آخر لتشمل العالم الإسلامى .

وانه ليجدر القول أن دولة الباطن عند الصوفية، إنما تحكمها قوانين لا تخالف الشرع حقيقة، ولكن ظاهرها لايتمشى عادة مع تفهم معنى الخير والشر عند العامة من النـــــاس .

---

(١) دكتور عثمان أمين — الجوانية — دار القلم ١٩٦٤ — ص ١٢١ ، ص ١٢٢ .

(٢) نفس المرجـع السابق .

(٣) M. A. R. Gibb. Mohammedanism. Second edition, oxford press page 100. 103.

ولتوضيح هذه النقطة الهامة التي أوردها ابن عطاء الله(١) في كتابه لذكر قصة الصوفي الذي كلما إبتلي بشيء قال «خيراً» ، فاتفق ليلة أن جاء ذئب فأكل ديكا له، فقيل له ، فقـال « خيراً » ، ثم ضرب في تلك الليلة كلبه ، فمات فقيل له ، فقال : « خيراً » ثم نهق حماره فمات ، فقال : « خيراً » ، فضاق أهله بكلامه هذا ذرعا، ولم يقبل تبريره لهذا البلاء، إلا أنه حدث في هذه الليلة أن نزل بهم عصابة، أغاروا عليهم ، فقتلوا كل من بالبلدة ، ولم يسلم منهم غير الصوفي وأهل بيته » .

ويوضح ابن عطـــاء الله المغزى الخفي من هذه القصة بقوله : لقد استدل العرب النازلون على الناس بصياح الديك، ونباح الكلب، ونهيق الحمار، وما شاكل ذلك . . . فكان في هلاك هذه الحيوانات سببا في نجاته وأهل بيته » .

فالصوفي على الحقيقة يرى الأحداث بعين قلبه لا بعين بصره، فراسته دليله، وبصيرته طريقه ، وهو ينسجم كما يقرر الدكتور عثمان أمين (٢) انسجاما جوانيا ويستخدم ألفاظا جوانية، غير الألفاظ البرانية التي تستخدم في المجتمع المصطنع أو ما يسمى بالمجتمع المدني .

والمعروف أن المجتمع المدني، أو الظاهري، تحكمه قواعد، وقوانين، وعادات، مألوفة وتقاليد متعارف عليها ، وعرف متواتر ، وأن أي إخلال بهذه القوانين والعادات والتقاليد تعد خرقا لنظام الدولة، ومن ثم لا يمكن السكوت عليها، إذ أنها تسبب ـ في رأيهم ـ أضرارا تهدد الأفراد والمجتمع ككل، ولذلك لا يعترف بأي قوانين غير قوانين الدولة ، أو قواعد أخرى غير ما تعارفوا عليه، وما توارثه الأبنـاء عن الآباء . . . رغم أنه كثيرا ما تحدث بعض الخوارق والأحداث غير المألوفة التي لا يمكن أن تفهم في ظـــل قوانين وقواعد المجتمع ، إلا أن أفراد المجتمع

---

(١) الشيخ ابن عطاء السكندري ـ التنوير في إسقاط التدبير ـ ص ١٢ .

(٢) الجوانية ص ١٦٣ .

لايركزون عليها ، بل لايهتمون بها باعتبارها نادرة الحدوث، أو أن هناك أسبابا لها غير معروفة لهم . أما الخاصة من أهل الصوفية فإنهم يعرفون أسبابها ويخضعونها لقواعدهم الأخلاقية، وآدابهم الصوفية، وذلك استنادا إلى القرآن الكريم، والسنة المحمدية ، إذ أنهم يقولون « اتقوا الله ويعلمكم الله » ، فالتقوى باب لعلوم وهبية لدنية، والاسترسال مع الله ، مفتاح لنعم الله ، ومنن الله ، وعطايا الله ، وتجلى الله، كما أنهم يعتمدون على التوكل، وإسقاط التدبير مع الله ، ولذلك فهم يبصرون بنور الله ، ويتبعون كلام الله ، ويسيرون بتوفيق الله ، فظاهرهم كباطنهم ، وباطنهم كظاهرهم ، فينكشف لهم ما ينغلق على غيرهم ، ويبشرون بالحقائق فى يقظتهم ومنامهم ، ويختصون ببعض الأنوار والفتوحات ، وخوارق العادات ، وهذا غير بعيد على أحباء الله وأولياء الله .

الفصل الثاني

التفرقة بين دولة الظاهر والباطن

تظهر التفرقة بين دولة الظاهر ودولة الباطن واضحة عند الحكيم الترمذي(١) وذلك عندما يفرق بين مراتب ثلاث من أصناف المسلمين :

١ ـ أصحاب علم الحلال والحرام (ويقصد بهم العلماء) .

٢ ـ أصحاب علم الحكمة الظاهرة أو الدنيا .

٣ ـ أصحاب علم المعرفة أو الحكمة الباطنية، أو حكمة الحكمة، أو الحكمة البالغة .

وأما ماوراء ذلك التقسيم فمحجوب عن الخلق .

فالمرتبة الأولى أي أصحاب علم الحلال والحرام وهم الذين يقصد بهم الحكيم أصحاب علم الأمر والنهي، أي أصحاب العلم الظاهري من الفقهاء والعلماء، وهم أصحاب الدولة الظاهرة أيضا .

أما دولة الباطن فإن حكامها من المرتبتين الثانية والثالثة ، من أصحاب الحكمة الدنيا والعليا ، أي أصحاب علم التدبير ، وعلم الله وعلم أسماء الله .

وبهذا المعنى يكون أصحاب العلم الظاهر لا ـ ولاية لهم ولا يخضعون لحكم دولة الباطن ، أما أصحاب الحكمة أو المعرفة فهم الذين يتجاوزون العلم إلى الحكمة ، إذ أن العلم للعامة، والحكمة للخاصة .

ويرى الإمام الشعراني (٢) أن هناك منهجا وقواعد لدولة الباطن، فيحاول

---

(١) د.عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية جـ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٢

(٢) الامام الشعراني ـ اليواقيت والجواهر جـ ٢ ص ١٨٤

توضيح منهج كل من العلم الظاهر، والعلم الباطن، عندما يقرر : « أن المجتهدين حرموا وكرهوا وأستحبوا أمورا لم تصرح بها الشريعة فى دولة الظاهر، وكذلك العارفون أوصوا وحرموا وكرهوا واستحبوا أمورا فى دولة الأعمال الباطنية ».
فالاجتهاد فى الدولتين ضرورى ولاغنى لأحد الدولتين عن الأخرى ، فحقيقة بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة ، أى ناقصة .

أما الحكيم الترمذى [١] فإنه يجعل العلم لعلماء الظاهر ، والمعرفة والحكمة لعلماء الباطن، وذلك لأن العلم اكتسابى، أما الحكمة فلاتدرك بالتعليم، بل هى هبة ربانية، أو منة إلهية ، وهو يشارك الإمام الشعرانى رأيه عندما يربط العلم والحكمة على أساس أن الطريق درجات، ولابد للسالك أن يمر على العلم الظاهرى ، ومنه يتدرج عن طريق الصدق حتى يوهب له العلم الباطنى أو الحكمة .

والحكمة بهذا المعنى لا تحل فى عبد إلا برعايته العلم الظاهرى ، رعاية توصله إلى تطهير الباطن، فيكون أهلا للمنة الإلهية ، فلا يركن الصوفى إلى الكشف والفتح ويترك التكاليف . والفرائض الشرعية الظاهرة . . .

ويرى بعض الصوفية [٢] أن الدولة الباطنية تمتد جذورها إلى الظاهر، وتعتمد أساساً على العمل، فالفصل بين الدولتين ليس فصلا تعسفياً، ولا فصل بين أصحاب العلم الظاهرى، وأصحاب العلم الباطنى، بل على العكس من ذلك، يوجد هناك ربط منطقى بينهما يهدف إلى تحديد مصـــادر التشريع بمعنى تطبيق الطريقة على الشريعة ، والشريعة على الطريقة والحقيقة .

فالدولة الباطنية وإن كانت لها شخصيتها الاعتبارية المستقلة عن دولة الظاهر

---

(١) د. عبد الفتاح بركة — الحكيم الترمذى جـ ٢ ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٢) أبو الفيض المنوفى — وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

إلا أنها فى الوقت ذاته بنـاء قائم على أسس من الشريعة الإسـلامية ، فلا حقيقة بلا شريعة ، وأن كل متحقق متشرع ولكن ليس كل متشرع متحققا .

ودولة الباطن هى دولة الفقراء ويعبر عن ذلك صاحب روض الرياحين[1] نقـلا عن الحسن البصرى قول رسول الله ﷺ : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادى ، فإن لهم دولة » ، قالوا : « ومادولتهم يارسول الله ؟» قال ﷺ : « إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو كسا كم ثوباً ، أو سقاكم شربة فى الدنيا ، فخذوا بيده ثم أفيضوا به إلى الجنة » .

ويرى نيكلسون أن للأولياء عند المسلمين حكومة باطنة ، تتصرف فى العالم وتحفظ عليه نظامه ، وعلى رأسهـا القطب وتحته النقباء ، والأوتاد ، والابرار ، والأبدال (البدلاء) الخ . ويزداد عدد كل صنف من هـــذه الأصناف بحسب درجتهم أو بحسب درجة بعدهم من القطب ، وقربهم منه[2] .

ومعنى ذلك أن الحكومة فى الدولة الباطنية لهـا تنظيم هرمى يتصـدر أعلاه القطب الغوث ويعاونه الامامان ، والأوتاد ، والأبدال ، والنجباء ، والنقباء ، وغيرهم ، إلا أن بعض الصوفية يرون الأوتاد أعلى من الأبدال، والبعض الآخر يقررون أن النجباء هم الأمناء وهم فى درجة المقربين ، أو درجة الصـــديقين ، والخلاف فى التسمية ليس ذا أهمية أولى ما دامت الدرجات أو المقامات محفوظة وعلى رأسها القطب الفرد الغوث ، إذ أن الاختلاف فى تسمية الأولياء يرجع إلى استخدام ألفاظ بدلا من ألفاظ أخرى ، أما المعانى فواحدة بين الجميع[3] .

---

(١) اليافعى — روض الرياحين ص ١٨ (لم نجد له أصلا) .

(٢) نيكلسون — فى التصوف الاسلامى وتاريخه ـ ترجمة د أبو العلا عفيفى ص ٨١ ، ٨٢ وما بعدها التأليف والترجمة .

(٣) راجع كتاب ألفاظ الصوفية للمؤلف .

الفرق بين الحكومة الباطنية والمستيسيسم (التصوف المسيحي) :

كما أن هناك خلافاً جوهرياً بين الدولة الباطنية والمستيسيسم أو التصوف المسيحي ، لأن هدف التصوف الاسلامي هو المعرفة أو الحكمة العليا، أما هدف المستيسيسم فهو الحب الذي غايته الحب الالهي .

كذلك فإن الدولة الباطنية في الاسلام معتمدة على التأثير الروحي ، وبمعنى أدق على « البركة » ، ولا تأتي البركة إلا بواسطة الشيخ المربي ، ولا يصير الانسان منتسباً إلى هذه الدولة بمجرد قراءاته وفهمه وتأمله لأفكارها فحسب — كما هو الحال في المستيسيسم — وإنما عليه أن يتذوق التجربة الصوفية، ومعايشتها بكامل أبعادها ليصير متصوفا، أي عن طريق السلوك العملي يصبح مريداً في طريق الله وأهم شيء في هذا الطريق تجريد التوحيد ، والاخلاص والطاعة لله ، وإسقاط التدبير مع الله، والتوكل بالكلية عليه تعالى .

أما بمجرد الحب [1] فإنه يوصل إلى مقام أو لا يوصل ، وهو غير كاف عند الصوفية ، الذين ينشدون الكمال الأخلاقي ، فالحب في التصوف المسيحي سلبي قائم على التفكر والتأمل في جلال الله فحسب كما يمكن أن تتصوره طوائفهم المختلفة، أما في التصوف الاسلامي فهناك إيجاب وقبول ، فكر وعمل ، علم وسلوك ، سلب وإيجاب ، بمعنى تخلية عن الأوصاف المذمومة، وتحليه بالأوصاف المحمودة .

لذلك فإن طريقتهم تتم بعلم وعمل، بمعنى أنه يجب أن يكون للإنسان استعداد فطري، وأن يكون لديه سلسلة صحيحة لتحصل له البركة، ثم عليه أيضا أن يتفكر في الحق تعالى، وذلك بالذكر، واستحضار الله في قلبه في كل ما يأتي وما يدفع، وفي

(١) د. عبد الحليم محمود — المدرسة الشاذلية وإمامها — دار الكتب الحديثة ص ٣٣٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق .

تركيز الذهن فى الملأ الأعلى، فيصل موفقا من درجة إلى درجة ، حتى يحظى بأعلى الدرجات ، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت، فيصبح ربانياً .

أما التصوف المسيحى فإن هناك فصلا بين التأمل فى الله ، والسلوك العملى أو بين الحياة المدنية، والحياة فى الله، ولكل وقتها ونظامها ، وهذا الفصل فى تصورنا يتسق، إذ أنه يجعل للإنسان حياتين، حياة روحية ، وحياة مادية، فكأن للإنسان أكثر من عقل، وأكثر من قلب، وأكثر من نفس ، وهنا يظهر التناقض الوجدانى واضحاً ، وذلك بالاستخفاف بالعقيدة الدينية كمجال حيوى للحيــاة الانسانية والاخلاقية .

وأنه لمن الواضح الجلى أن الحياة الانسانية لا يمكن الحكم عليها من نماحات روحية وحدها، أو نماحات مادية فحسب ، وإنما ينبغى الحكم عليها فى ظل إطار شامل جامع، أى من خلال الحكم على الانسان ككل، وأن أى نظرة بخلاف ذلك لايمكن أن تتصدى إلى تقييم الحياة الانسانية أو لفهم النفس الانسانية التى هى موضوع الحياة .

الفصل الثالث

الاختلافات فى أحكام الحكومة الباطنية

إن جميع الطرق التى تعد مراكز إشعاع روحى تتفق فى أقوالها ونظمها ولا يشذ منهم أحداً ، ويرى الإمام الشعرانى (١) أنه إذا ظهر بعض الاختلافات بين مشايخ الطرق فهى اختلافات مفيدة كاختلافات الأئمة الأربعة فى علوم الظاهر ، ولكن الهدف واحد، والطريق إلى الله مشترك، والرسالة المحمدية واحدة . أما أسلوب المعاملات والعبادات والطاعات فيمكن أن يظهر فيه بعض الاجتهادات ، ولكن فى الواقع لايوجد اختلاف جوهرى بينهم .

ويرى سهل بن عبد الله رحمه الله : « أن أعمال البر كلها فى صحائف الواهدين» ، وهذا يعنى أن أهل الباطن، غير أهل الدنيا، وكما يقول ابن القيم الجوزية (٢): « إن أهل الباطن غير أهل الدنيا ، فأكثر آدابهم فى رياضة النفس ، وتأديب الجوارح وترك الشهوات ، والوفاء بالعهود، وحسن الأدب، فى مواقف الطلب» .

ويقول صاحب مدارج السالكين (٣) : «منازل السير واحدة فى كل طريق ، ولكن يختلف سير كل سالك بحسب حاله»، فمنهم من يجاهد عن طريق الصبر على الابتلاء وذلك بتربية نفسه، ومخالفة حظوظها وأهوائها، ومنهم من يجاهد على طريق الشكر فيسقط التدبير مع الله ويوكل أمره إليه ، ومنهم من يرى أن الذكر أقطع للحجب، ومنهم من يرى فى العلم طريقا لمعرفة الله ، والمعروف أن أبا الحسن الشاذلى رضى

---

(١) الامام الشعرانى — الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣ ـ ١٥ .

(٢) الروح لابن القيم الجوزيه ص ٢٦٢ ـ ٢٦٧ .

(٣) الامام الهروى — مدارج السالكين ص ١٨ ـ ٢٥ .

الله عنه كان على طريق الشكر، وأما الإمام الغزالى فكان على طريق المجاهدة بالعلم، لكن جميع الطرق تؤدى فى النهاية لغاية واحده ألا وهى الوصول إلى الله وفى الله وبالله ومن الله .

ومن الواضح أنه إذا تعمقنا فيما يبدو من خلافات ظاهرية بين الطرق، فاننا لا نجد أدنى صراع ، وما رأينا شيوخ الطرق تكلموا عن طرق أخرى ورجالها إلا بكل خير وتجلة واحترام ، وأن كلام أى شيخ من السادة الصوفية هو حجة معتمدة عند أهـل الطرق الصوفية قاطبة وكل واحد يستدل بأقوال أئمة جميع الطرق الأخرى ولا عبرة بمنافسة بعض التلاميذ القاصرين الذين لم يعرفوا بعد أصول الطريق وآدابه (١) .

فليس كلام القاصرين حجة على أساس انهم باختلاق الخلافات إنما خالفوا قواعد الطرق التى إنتسبوا اليها ، لأن من تمكن فى أى طريق سلم لسائر الطرق ، ولم يجد خلافا بين طريقته ، وطريقة أخرى ، لأن الغاية واحدة وإن إختلفت السبل اليها .

كما أن من درس التصوف (٢) والطرق الصوفية دراسة نزيهة عرف انها مدارس أخلاقية لتهذيب النفوس، وترويضها عمليا على الإخلاص والطاعة لله، وذلك لبلوغ أقصى درجات الكمالات الأخلاقية والمعرفة ، وأيقن أن بدايتها جميعا التوبة وسيرها الترقى فى مدارج الشريعة، وذلك بالتقرب بنوافل الخير، ونهايتها المشاهدة المطابقة للشرع ، ولكن التوبة أما أن تكون صبرا على محبوب ، أو شكراً على

---

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١ — ١٥

(٢) د . توفيق الطويل . التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى. ص ٧٤ ط ١٩٤٦ مكتبة الآداب .

إبتلاء، أو خوفا من وعيد الله ، أو تخلية عن الصفات المذمومة ،وتحلية بالصفات المحمودة .

والحق أن الإختلاف فى حد ذاته إن وجد بين الطرق ليس صراعا، وإنما هو كإختلاف المعلمين فى مدرسة واحدة فى تدريس مقرر واحد فلكل طريقته فى التعليم والكتاب واحد ، والعلم واحد ، وكل طالب حسب إجتهاده واخلاصه ، وعمله يتقرر فلاحه، وصلاحه، ونجاحه، أو فشله، وإنتكاسه، وتلفه .

ومع ذلك فانهم جميعا لم يخرجوا عن قواعد الدين، فهم جميعاسبيلهم واحد ، وطريقتهم واحدة، وكذلك من يأتى بعده ماداموا لم يخرجوا عن القواعد التى درج عليها سلفهم الصالح .

أما إذا ظهر بعض الخلاف ، فانه يتركز فى درجة الوصول و/وعيته ولذلك يبدو لعلماء الظاهر أن أصحاب الطرق مختلفون لكنهم فى واقع الأمر متفقون جميعا ، الا أنهم يستخدمون ألفاظاً لايفهمها العامة أو أهل الظاهر، نظرا لأن كل منهم يتكلم عن حاله الذى هو فيه ، فنهم من يكون حاله الأنس ، ومنهم من يكون حاله القبض ، ومنهم يتكلم على حال التوكل ، وآخر على حال الخوف والرجاء (١) .

ويؤيد ذلك ما ذهب اليه الإمام القشيرى (٢) من أن الحكايات التى تروى عن عقائد الصوفية توافق أقاويل أهل السنة والجماعة فى مسائل الأصول، وينقل الإمام القشيرى عن أحمد بن عطاء أن الله تعالى لما خلق الأحرف جعلها سرا له ، فلما خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر ولم يبث ذلك السر فى أحد من ملائكته، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان ، وفنون اللغات ، فجعلها

---

(١) راجع كتاب المؤلف « ألفاظ الصوفية ومعانيها »

(٢) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٤٢ — ٤٣

الله صورا له . ويؤيد ذلك الشيخ الأكبر محيى الدين بن عـــربى فى الفتوحات المكيه (١) .

ويرى الامام الشعرانى(٢) أن العلم مراتب، وما يعلمه أحد السالكين،ربما لايعلمه أو يدركه غيره ، ومن هنا يكون الاختلاف الناتج من درجة العلم والمعرفة ، هو الذى يوهم بوجود صراع بين أصحاب الطرق، ولـكن الصراع يختفى نهائيا عند الواصلين لأنهم يشربون من مشرب واحد، أما المريد المبتدىء فإنه مازال فى درجة لا تسمح له بالإجتهاد، لذلك فإن شيخه لا يأذن له بالكلام، حتى ينضج ويكتمل وصوله .

ويورد صاحب التعرف حديثين شريفين عن علم الباطن الأول أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل عن علم الباطن فقال : «سألت الله عز وجل عن علم الباطن فقال: « هو سر من سرى أجعله فى قلب عبدى، لايقف عليه أحد من خلقى»(٣).

والحديث الثانى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

«ان من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله ، فاذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله».

وهذا الحديث الأخير يدل دلالة واضحة على أن أهل الحق كلهم متفقون على مفهوم العلم، وأن أعظم الفوارق فى الطرق قائم فى أشخاص شيوخها،وهناك شبه إجماع

---

(١) الشيخ الاكبر ابن عربى ــ الفتوحات المـكية السفر الاول ص ٥٠ ومابعدها تحقيق د. عثمان يحيى .

(٢) اليواقيت والجواهر جـ ٢ ص ٩٠ ــ ٩٤ .

(٣) الحديث أورده أيضا الشيخ الاكبر محى الدين بن عربى فى مشكاة الانوار وكذلك ابن ماجه .

(٤) الـكلاباذي ــ التعرف على مذهب أهل التصوف ــ ص ٨٧ روى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنهم .

بين أكابر شيوخ الطرق فى جميع الأزمنة الى أن الطرق كلها واحـــدة (١) وإن إختلفت مشاربهـا وهـذه القصة عن ذى النون المصرى توضح ذلك ، إذ أرسل يوما أحد المريدين الى أبى يزيد يقول له : « الى متى هـــذا النوم والراحة، وقد سافرت القافلة، فرد أبو يزيد: «أن الرجل كل الرجل من ينام الليل كله فاذا أصبح الصباح كان آمنا فى المنزل قبل نزول القافلة» .

ويعلق أبن عربى على ذلك بقوله «الطريق على ضربين ، فعلى قول ذى النون : «من عرف نفسه ، عرف ربه» فهو هنا مريد صادق مجاهد، وطريق آخر يسلك بهم أى يكون مراد الله، وكلا الطريقين سالك، كالماشى، وراكب السفينة مثلا، فأبو يزيد تسير به السفينة وهو قاعد ، ولذلك أصبح آمنا فى المنزل، فهو طالب ما يطلبه ذو النون وزاد عليه بالراحة والنعيم ، فالفرق هنا بين مقام ومقام .

الاختلاف الاقتصادى والاجتماعى :

ينظر الاقتصاديون إلى الدولة المدنية فى صورة من صورها الى ماتحققه نظرية العرض والطلب على أساس أنها المرجع الوحيد ، الذى ينبنى عليه إشباع الحاجات المادية من ملبس ، ومأكل ، وحاجات وأدوات مطلوبة للإنسان (٢) .

وعلى ذلك فان المستهلك يقوم باشباع إحتياجاته الضرورية حسب نظرية ثابتة تخضع لعوامل معينة مثل ذوقه ودخله وأسعار السلع البديلة والمتماثلة بدون النظر الى إعتبارات أخرى تحدد سلوكه الشرائى . وفى نفس الوقت يتحدد إنتاج السلع المختلفة وطرحها بالأسواق حسب هذه النظرية فتقدم السلع التى ترضى ذوق ودخل ؛ ومناسبة أسعارها المستهلك ، وإلا فانهـــا لا تطرح حسب نظرية

(١) دكتور توفيق الطويل — التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى — ص ٧٤ طبعة ١٩٤٧ مكتبة الآداب .

(٢) يلاحظ أنه فى المجتمعات الاشتراكية يقوم الاقتصاد فيها على أساس ربطه بالانتاج، حسب النظرية المادية الجدلية .

العرض والطلب ، كما يمكن تصور نوع آخر من الحكومة المدنية متمثلة فى النظام الاشتراكى على أساس قواعد المادية الجدلية عند ماركس .

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحكومة المدنية أو الظاهرية بأشكالها المختلفة التى تهتم أساسا بالنواحى الاقتصادية فحسب ، فتركز على الحاجات وطرق إشباعها وذلك بالطرق والوسائل المادية والاحصائية، متغافلة الجانب العقائدى للأفراد، والذى يمكن أن يبطل نظريات العرض والطلب ويرفض إعادة توزيع الدخول والانتاج بمعرفة السلطة، فلا يقبلون عليها، بل يرفضونها وخاصة فيما يمس الناحية العقائدية فى المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، والدليل على ذلك أن المريدين فى الطريق الصوفى يتعاملون بعضهم مع بعض بلغة غير لغة العرض والطلب(١)، بمعنى أنه إذا كان التعامل يتم بين البائعين والمشترين على أساس الربح والمنفعة أو المصلحة، فإن التعامل بين طوائف الصوفية يتم على أساس البركة «أو بركة الأولياء» .

فالشراء والبيع كطريقة للمعاملات يتم على أنه بركة من بركات ولى المنطقة وقطبها، وليس لأن أسعار السلع رخيصة أو مناسبة ، فالمريد التاجر يروج سلعته على أساس مخاطبته للمشترى بأنه يتوجب عليه أن يحصل على بركة من بركات ولى المنطقة، سواء كانت السلع من الأدوات، أو البضائع أو من المأكولات أو الملابس، وفى نفس الوقت يشعر المشترى بحاجته الماسة الى الحصول على «بركة» من بركات ولى المنطقة، دون النظر الى مناسبة أسعارها ، ودون مقارنتها بمثيلاتها من السلع والبضائع الأخرى .

---

(١) قام المؤلف بدراسة ميدانية على منطقة وسط الدلتا .

فهناك حركة تأثير تبادلية بين ولى المنطقة والبيئة، بمعنى أنه إذا كانت البيئة التى يوجد بها الولى زراعية ، أو تجارية ، أو صناعية ، نشطت المشروعات الزراعية والتجارية والصناعية ، وزاد الاقبال على الانتاج وزاد النشاط التجارى والمالى، وكل ذلك ناتج من بركة ولى المنطقة ، وهذا ما اتضح من البحث الميدانى فى منطقة طنطا ، إذ اتضح تأثير سيدى أحمد البدوى فى مختلف الأنشطة ، فأصبحت بفضل وجود ضريحه مدينة كبيرة نشطت فيها أسواق من زراعية وتجارية وصناعية بعد أن كانت قرية صغيرة مهملة .

وكذلك مدينة دسوق فقد اشتهرت هـــذه المدينة بفضل حلول سيدى ابراهيم الدسوقى بهـا — والذى يعتبر حتى الآن قطب المنطقة ووليها الأكبر — وراجت حركة التجارة بهـــا ، ونشط تسويق المنتجات الزراعية ، والصناعية وازدهارها .

كما يؤثر وجود ضريح ولى المنطقة بصورة غير مباشرة فى الاعتقادات، مما يقوى الايمان والشعور بالامن والطمأنينة ، بل والتقرب إلى ضريح ولى المنطقة ابتغاء الوسيلة الصالحة والتى تؤثر فى اعتقادهم فى استجابة الدعاء، وحل المشاكل الاجتماعية وعصمة الناس من المكاره والمصائب، بل والرضى بالاختبار والابتلاء من الله .

ومن ناحية أخرى تساعد الولاية الروحية فى المجتمعات التى تتواجد فيها — وذلك كما اتضح من الدراسة الميدانية (١) — تساعد فى اعتقادات الناس فى حل المشاكل ، وشفاء المرضى ، وزواج العانس ، وحل المربوط ، والوقاية من

---

(١) قام المؤلف بعمل دراسة شاملة لمنطقة وسط الدلتا وركز البحث على منطقة طنطا وضواحيها ، واتضح من البحث أن قطب المنطقة هو سيدى أحمد البدوى ، وهو يعتبر مركز الاشعاع الروحى الذى يستمد من وجوده جميع أولياء المنطقة ولايتهم الروحية .

الحيوانات الضارة ، والسرقة ، واكتشاف الجناة ، بل واستشارة الأولياء في مشاكلهم الاجتماعية والعائلية .

ويبقى الطب وعلماؤه أن يقرروا صدق هذه الاعتقادات أو كذبها وتأثيرها في شفاء الامراض . إلا أنه يلاحظ أن كثيراً من الذين يلجأون إلى الاولياء قد سبق لهم التردد على الاطباء ، وأنهم لما يأسوا من علاجهم بالطرق العلاجية المعروفة انصرفوا إلى الاولياء ، وقد تم على أيدى أصحـــاب الولاية الروحية من الموتى والاحياء على السواء شفاء بعضهم .

الباب الثانى

نظام الحكم فى الحكومة الباطنية

يشتمل هــذا الباب على فصول ثلاثة هى :

الفصل الأول : أوصاف الصوفية ومظــاهر دولتهم .

الفصل الثانى : رئيس الحكومة الباطنية (القطب الغوث) .

الفصل الثالث : أعضــاء الحكومة الباطنية .

الفصل الأول

أوصاف الصوفية ومظاهر دولتهم

للصوفية أوصاف يعرفون بها ، وأخلاق يتصفون بها ، وآداب يتفقون على اتباعها ، وتعاليم لا يختلفون عليها (١) .

ويرى الإمام أبو الحسن الشاذلي (٢) أن الصوفية أربعة أوصاف يمتازون بها عن سائر الخلق :

١ ــ التخلق بأخلاق الله عز وجل : وهذا ما نجده في الإيثار والتسامح والفراسة والبصيرة والسخاء والجود والعطاء والمحبة (٣) .

٢ ــ المجاورة لأوامر الله عز وجل : أي الطاعة لله ، والاخلاص له تعالى في الظاهر والباطن ، وصدق النية ، وعدم الاعتراض في الابتلاء والاخبار من الله ، والتوكل بالكلية واسقاط التدبير مع الله .

٣ ــ ترك الانتصار للنفس حياء من الله عز وجل : وذلك بالرجاء في الله والخوف من الله ، ومخالفة النفس ، وتجنب حظوظها والبعد عن هواها .

٤ ــ ملازمة البساط بصدق البقاء مع الله عز وجل : ويظهر ذلك في المكابدة ، والمجاهدة في سبيل الله ، والصبر ، والمعاناة ، والزهد في الدنيا ، والفقر

---

(١) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف .

(٢) د. عبد الحليم محمود ــ المدرسة الشاذلية وامامها أبو الحسن الشاذلي ص ١٢٧ ، دار الكتب الحديثة .

(٣) الامام الكلاباذي ــ التعرف على مذهب أهل التصوف ص ٨٩ ــ تحقيق د. عبد الحليم محمود .

الله تعالى ، وهذا هو الخلق الحسن، فإمامهم ومشرع دستورهم هو الله وهم المنفذون لأوامره وأحكامه ، والمقتدون فى الدنيا بسيد البشر رسول الله ﷺ فى شريعتهم وحقيقتهم ، لا ينافقون ولا يراءون ، ظاهرهم باطنهم ، وغايتهم الطريق الموصل للقربة لله ، فلا يهم متاع ولا رياش ، فالدنيا فى أيديهم وليست فى قلوبهم .

وهم يحددون مظاهر دولتهم الباطنية كما يرونها فى عشرة أقسام (١) :

١ — تجريد التوحيد : وهو ألا يشعر الصوفى إلا بالله ، ولا يرى عونا سواه ، ولا يعتمد على غيره ، ولا يأمل إلا فيه ، ولا يرضى بغيره حبيبا ، ولا نصيراً ، ولا معيناً .

٢ — فهم السماع : وهو أن المريد الصادق تصفو نفسه عند ذكر الله ، فيلقن بالمعانى التى يجهلها ، والإشارات التى تقذف فى قلبه ، وهى أسرار وحقائق ومغيبات وجميعاً علوم ذوقية .

٣ — حسن العشرة : وذلك بالزهد فيما عند الخلق ، والمعاونة والمساعدة للمحتاج ، وأداء الواجبات، نحو الغير والمحبة للناس، وعدم كراهية الأعداء .

٤ — إيثار الإيثار : الايثار هو البذل والتضحية ، أما إيثار الايثار فهو أن ينسى الصوفى أنه صاحب عطاء وسخاء ، لأن كل شىء من الله ، وهو الجواد على الاستمرار .

٥ — ترك الاختيار : ألا يختار لنفسه شيئا ، ويقول الامام الجيلانى : « دبروا الا تدبروا فالله هو المدبر على الاطلاق » ، ومعنى ذلك أن تنعقد إرادة المريد مع الله فلايريد إلا ما يريده الله .

٦ — سرعة الوجد : وذلك من صفاء السريرة ، وصدق النية مع الله، فيصادف القلب حالة تذكره بالله فيبكى خوفا أو يفرح رجاء فى الله .

---

(١) الامام الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف — ص ٨٩ تحقيق د. عبد الحليم محمود .

٧ — الكشف عن الخواطر : الصوفى يعرف الفرق بين الخاطر الشيطانى والملائكى ، فلا يلتبس عليه الأمر ، لأنه مخالف ابدا لهوى نفسه .

٨ — كثرة الأسفار : حتى لا يعتاد الصوفى على الخلق والاملاك فالسفر هو هجرة إلى الله ، وهو وحشة للخلق وقربة لله .

٩ — ترك الاكتساب : إذا وصل الصوفى إلى الفناء فى الله ، فإنه يعتمد بالكلية على الله فلا يأخذ إلا من الله ، ولا يطلب شيئاً من الخلق ، فأكله وشربه ونومه من الله وفى الله وبالله ، وهذا معنى ترك الاكتساب .

١٠ — تحريم الادخار : ألا يجمع الأملاك ، ولا يفكر فى الامتـــلاك ، فصاحب الحقيقة يبتعد عن الخليقة ، وصاحب الدنيا يبتعد عن الحقيقة ، ويقترب من الخليقة .

فدولة الصوفية ليست كدولة الظاهر من نواحى عديدة كالتشريع والسلوك والأخلاق والغاية والنيابة .

ولذلك فإننا نجد اختلافا واضحاً بين الظاهر والباطن ، فالصوفية مثلا قد اصطلحوا لهم ألفاظا تعارفوا بينهم عليها ورمزوا بها لمعانيهم ، ويقول الإمام الشعرانى (١) : إن الملامتية الذين هم أكابر الصوفية لايصلون مع الفرائض إلا مالابد منه من واجبات النوافل ، خوفا أن يقوم بهم دعوى أنهم أتوا الفرائض على وجه الكمال .

والملاحظ أن أئمـــة الصوفية ينظمون حكومتهم على طراز فريد فى الفظ

(١) الشيخ عبـــد الوهاب الشعرانى — الكبريت الأحمر ج ٢ ص ١٠٥ ، مطبعة عبد الحميد حنفى .

والمعنى والسلوك ، إلا أنه لا يمكن تفهم نظام الحكم فى الدولة الباطنية ، بل ولا يستطيع باحث أن يدعى لنفسه القدرة على تفهم المجتمع الصوفى أو التخصص فى دراسته ، دون أن يكون على دراية تامة باللغة والاشارات والألفاظ التى يستخدمونها ، وهذا ما يصعب معرفته إلا ذوقا(١) ، وهذا يقتضى معايشة الباحث أهل الطريقة والانخراط معهم وتذوق مايتذوقونه ، ولن يتمكن من ذلك إلا بالإيمان بالطريق إلى الله والإخلاص والطاعة وإسقاط التدبير .

كما أنه لا يمكن دراسة نظام الحكومة الباطنية فى حدود عقلية الرجل المدنى الذى يحاول دراستها عن طريق العلم الوضعى فحسب ، إذ أن عقليته هى ثمرة لنوع مختلف من النظم والأوضاع ، والقول بغير ذلك يؤدى إلى الوقوع فيما يسمى «بأغلوطة السيكلوجيين» والتى رفضها علماء الاجتماع وعلى رأسهم دوركايم وليفى بريل(٢) .

كما يجب الاشارة إلى أن الدراسات الاجتماعية والانثربولوجية تهتم فى المقام الأول بالظواهر والأشكال فى أبحاثها الميدانية فى مجال البنائية والثقافية ، وحتى الأبحاث النظرية فإنها تركز فى الدراسة على عوامل متكررة وسمات واضحة يتسم بها المجتمع المدروس ، دون التغلغل إلى أعماق ذلك المجتمع وفهم سلوك أفراده ، وبواعث هذا السلوك ، ودوافعه ، وأثر العامل الروحى أو الدينى فيه .

ومن البديهى أن كل نشاط اجتماعى منظم يرتبط فيه الأفراد عن طريق مشاركتهم فى عمل معين على أساس نوع من الانسجام الفكرى والسلوكى إنما يتأتى هذا الانسجام نتيجة لعادات وتقاليد اجتماعية مشتركة(٣) .

---

(١) راجع للمؤلف ألفاظ الصوفية ومعانيها .

(٢) دكتور أحمد أبو زيد — الانثربولوجيا الاجتماعية — ص ١٥ — ٧٩ منشأة المعارف .

(٣) د . عاطف غيث — مقدمة علم الاجتماع — ص ٢٠٣ الطبعة الأولى ١٩٦٢ .

ولكن يجدر بنا الانتقال عن القوى المحركة لهذا النشاط ، إذ أنها الأساس الذي يمكن أن تبتدىء منه أية دراسة اجتماعية ، لأن أى سلوك اجتماعى يستند إلى عقيدة دينية تؤثر فى ضمير أفرداه اجتماعياً وسلوكياً .

وإذا تعمقنا فى تركيب المجتمع الصوفى فإن الدراسة المركزة تؤكد تأكيداً واضحاً وجود التساند الوظيفى ، فحيث يوجد القطب (١) الغوث تنتشر الطرق الصوفيـــة ، ومن انتشارها يوجد الالتزام الدينى بآداب الطريق ، ويترتب على العمل بآداب الطريق ، ظهور الولاية ، ومن ثم اكتمال دراسة الباطن شكلا وموضوعاً .

ونظام الحكم فى الدولة الباطنية يقوم أساساً على تسلسل المقامات عند الأولياء ، فحينما يقطع المريد الصادق الطريق إلى الله ، يحظى بالولاية كهبة إلهية أو منّة ربانية

وللولاية سمات خاصة تنفرد بها ، والولى صاحب فراسة وبصيرة ، ويمتاز بقدرة على خرق العادة ، وهـذا الولى إما أن يمكث ولياً فقط ، فتكون معرفته خاصة به ، أو أن يختاره الله عز وجـــل لتأدية رسالة للآخرين ، فيكون نبياً ، أو رسولا ، والنبوة تتضمن الولاية ، ثم انها أكبر منها ، ولذلك يقال أن حال الولى ناقصة ، بالنسبة لحال النبى ، لأنها خاصة به ، وقاصرة عن العموم ، بخلاف صاحب الرسالة النبوية ، المأمور بتبليغ الخاص والعام ، إذ أن الرسالة النبوية عالمية ، والرسول لاغيره هو حقيقة الانسان العالمى ، ودرجته أسمى من درجة النبى المحدودة ، ودرجة النبى المحدودة أعلى من درجة

---

(١) القطب هو رئيس الحكومة الباطنيـة ، وسنتكلم عنـه بالتفصيل فى الفصول القادمة .

الولى الخاصة ، ومقام الجميع القرب [1] .

ويقوم نظام الحكم على أساس الطاعة للقطب ، حيث أنه الإمام الذى يلزم أن يتبع ، وذلك لأنه يستمد سلطته من أوامر الله تعالى ، ومن القطب الأوحد الممد لجميع الأولياء ، عبر الأزمنة حتى قيام الساعة ، ألا وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولذلك سنفرد فصلا لبيان مقام القطبانية ، باعتباره أعلى وظيفة فى الحكومة الباطنية .

---

(١) الامام عبد الوهاب الشعرانى — اليواقيت والجواهر — ج ٢ ص ٧٨ وما بعدها .

الفصل الثاني

رئيس الحكومة الباطنية

(القطب الغوث)

يقول السهروردى المقتول[1] : أن العالم ماخلا عن الحكمة وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات ، وهذا يدل على أن القطبانية هي صورة من صور النبوة .

فالإمام أو الخليفة هو القطب أو الإنسان الكامل والاقطاب أو الأئمة هم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود، وهم الواسطة بين عالم الأمر وعالم الخلق،

ومعنى ذلك أن القطب عند شهاب الدين السهروردى هو أعلى درجة بين الواصلين،وقد يكون مستوليا ظاهرا أى له مقاليد الأمور السياسية فيصبح العصر نورانيا أى عصر إزدهار وتقدم ، وقد يكون القطب خفيا غير مستول ، حامل الذكر فحسب وليس له أى تأثير في الشئون الزمانية ، وعلى ذلك تخلو الارض من التدبير الآلهى ، وتغلب عليها الظلمات أى التأخر والإنحطاط .

أما الحكيم الترمذى[2] فيضع في أعلى الدرجات ، المقربين، ويسميهم بالأمناء أو المنفردين وأحيانا بالنجباء وأحيانا بالبدلاء ، وهم كما يرى القائمون بالحجة

(١) د. محمد على أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية ص ١٠٥ وما بعدها دار الطلبة العرب بيروت ١٩٦٩ الطبعة الثانية .

(٢) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذى نظريته في الولاية ص ٢٧٦/١٧١ الجزء الثانى مجمع البحوث ١٩٧١ .

المفوض إليهم فى الأمور ، فهم أولو الأمـــر الذين تجب طاعتهم على الأمة ؛ «أولئك الأقلون عـــدداً ، الأكثرون عند الله قدرا . . هم الأمناء فى عباده»

ولما كان لا يكون فى الزمان إلا واحد يتولى القطبانية فهـــو إذن الوالى فى الأفراد وإن وجد من يكون أعلم منه بالله تعالى[1] .

ويرى الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى[2] أن القطب الغوث هو الواحد الذى هـــو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان وهو على قلب إسرافيل عليه السلام ، والقطب مركز[3] الدائرة ومحيطها ومرآة الحق تعالى، وعليه مدار العالم. وله رقائق ممتدة الى جميع القلوب بالخير والشر على حد سواء ، لا يترجح عنده واحد على صاحبه ، وهو عنده لاخير ولا شر ولكن كل شىء عنده وجـــود ، وتظهر أمامه الأشياء على أنها خير أوشر فى المحل القابل لها بحكم الشرع والعقل[4]، (فألهمها فجورها وتقواها) أى أن النفس الانسانية شاملة لطريقى الخير والشر كما أنه الخليفة ومقامه تنفيذ الأوامر وتصريف شئون الحكم ولا يتقيد بحالة تخصيص إذ أنه السرّ العام فى الوجود ، وبيده خزائن الجود والحق له متجل على الدوام .

مبايعة القطب على الخلافة :

يرى السيوطى رضى الله عنه[5] أن الحسن رضى الله عنه أول الأقطاب وقبله أبو بكر وعمـــر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين وهذا يعنى عند الامام

---

(١) الشعرانى ـ اليواقيت والجواهر جـ٢ ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) رسائل ابن عربى ـ دار احياء التراث العربى (كتاب اصطلاح الصوفية) .

(٣) رسائل ابن عربى ـ منزل القلب (دار احياء التراث العربى).

(٤) الامام السيوطى ـ تأييد الحقيقة العلية ص ٥٥/٥٦ ـ ١٩٣٤ طبع الحاج شكارة .

(٥) الشعرانى اليواقيت والجوهر الجزء الثانى ص٧٨ ـــ ٨٣

السيوطي رضي الله عنه أن الحسن رضي الله عنه أول من كانت له الخلافة الباطنية، منفردة عن الخلافة الظاهرة لأن القطب الغوث هو خليفة النبي ﷺ ووارث الأمر من بعده وكأن الحسن رضي الله عنه، لما ترك الخلافة الظاهرة إبتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين، عوضه الله ما هو أجل منها وهي الخلافة الباطنية أي من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه، وأما الخلفاء الأربعة فقد كانت لهم الخـــلافتان الظاهرة والباطنة معا، ولم يجتمعا لأحد بعدهما إلا أن يكون عمر بن عبد العزيز وهذا يلزم منه أن يكون عمر أفضل من الحسن رضي الله عنهما وهذا لا يعقل، وفكرة التعويض هذه في تصورنا فكرة اجتهادية تبرر الأحداث التي استشهد بسببها الإمام الحسن رضي الله عنه، ونحن لا نميل الى الاعتقاد بأن منزلة الحسن والحسين من الرسول تعد أساس هـذه المرتبة العالمية، وفي تصورنا أن هـذا الرأي ينقصه الدليل إذ أن المعروف أن الاسلام لا يعتبر القرابة الدموية للرسول ﷺ أساسا للخلافة بدليل خلافة أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، مع وجود علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فلا وراثة للأنبياء وهي قاعدة طبقها الرسول ﷺ.

ويبايع القطب بأمر الحق على السمع والطاعة كل مأمور من أدنى إلا العالون أي العابدون لله تعالى بالذات، وكل من يدخل عليه يسأله سؤالا فيجيب عليه، ويرى الامام الغزالي في الاحياء أن العابدين لله هم الافـراد، وهم أولياء خارج نطاق الحكومة الباطنية ويمكن أن تكون مقاماتهم أعلى من مقامات الاقطاب.

ويبنى للقطب سرير في الحضرة المثالية، يقعد عليه، ويحيط بعلم كل شيء، ولله المثل الاعلى، وبعد أن ينصب اليه السرير، يخلع عليه جميع الاسماء التي يطلبها العالم ويظهر بها حللا وزينة متوجا بها.

ويروى عن الاقطاب أنهم كانوا يعملون في حرف(١) شتى فتارة يكونـــ ـ

---

(١) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ج ٢ ص ٨١

أحدهم حداداً، وتارة تاجرا ، وأحيانا يبيع الفول ونحو ذلك ، وذلك لتطبيق الشريعة ظاهرا وباطنا .

ويروى عن الشيخ على الجمل وكان قطبا غوثا(١) أنه كان يسأل القراريط (المال) من حانوت الى حانوت ، فالسؤال هو طريق لمخالفة النفس فلا يجد الولى الكامل حظا لنفسه ، مهما أوتى من نعم ومنن ومقامات عالية .

ويرى الشيخ الأكبر ابن عربى أن القليل من الجن والانس يبايع القطب ، وهذا يرجع فى تصورنا الى أن المؤمنين فقط هم الذين يبايعونه بالخلافة ، والقطب معروف فى الأرض والسماء، إلا أن الله اذا أحب عبداً أخبر به(٢) حملة العرش وأمر جبريل عليه السلام أن ينادى فى السموات باسم ذلك العبد ، حتى يعرفوه ويحبوه، ثم يوضع له القول فى الأرض .

وقد حدد الشعرانى (٣) الاقطاب (حتى عصره أى حتى سنة ٩٥٠ هـ تقريبا) من عهد آدم الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بـ ٢٥ قطبا ، ويرى أن القطب الغوث الفرد فى الدنيا من أولها الى آخرها حتى يوم القيامة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما أنه يرى أن لكل بلدة قطبها يحفظها سواء كان أهلها كفارا أو مؤمنين .

مدة القطبانية :

يرى أئمة الصوفية أنه ليس للقطب فى الزمان الواحد مدة محددة ، ولا يعزل حتى ينقضى أجله ، وقد يستمر سنوات أو سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة وذلك حسب ما قدر الله له .

---

(١) عبد السلام الحلوانى ــ الرسالة الوفية فى الرد على منكرى الصوفية .

(٢) رسائل ابن العربى — منزل القطب ــ دار إحياء التراث العربى .

(٣) اليواقيت والجواهر ــ جـ ٢ ص ٨ وما بعدها .

ومن الأقطاب من يمكث ثلاثة وثلاثين سنة، ومنهم من يمكث ثلاث سنوات، وتنسخ دعوة القطب بدعوة أخرى كما تنسخ الشرائع بالشرائع، ولا يورث القطب كما يورث الحكم الظاهر .

سلطات القطب الغوث :

يمثل القطب الغوث الحكومة الباطنية، ويعتبر الرئيس الأعلى لها، ويعتقد ائمة الصوفية أن القطب له مطلق السلطات على أهل الباطن، وأمره وطاعته وحكمه نافذ، ورؤيته صادقة وقوله غير مردود لأن علمه لا يصدر إلا عن الله تعالى وهو يتصل بأعضاء حكومته الهاما أو عن طريق الرؤيا أو بطريق التوجه [1] .

خصائص القطب :

للقطب الغوث خصائص عديدة منها :

١ — أنه يختلي وحده بالحق تعالى ولا تكون لغيره من الاولياء هذه المزية. والمعروف أن القطب الغوث فى المرتبة الرابعة وهى مقام [2] الصديقية الكبرى، أو القربة العظمى .

٢ — إذا مات القطب الغوث انفرد تعالى بتلك الحظوة أو الخلوة لقطب آخر ولا ينفرد بالخلوة لله تعالى لشخصين فى آن واحد ابدا ، وهذا الخلوة تعتبر من علوم الاسرار .

٣ — يلزم أن يكون القطب واحدا فى إقامة الدين وذلك لئلا يقع التنازع والفساد .

---

(١) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها (الرؤيا — الالهام) .

(٢) راجع الخلوة فى كتاب ألفاظ الصوفية للمؤلف.

٤ — قد يكون القطب قطبا بالسيف، كأبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وقد يكون الخليفة نائبا للقطب، ويقصد بقطب السيف أنه المطبق للشريعة من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

٥ — قد تكون القطبانية لولاة الامور كالخلفاء، ويصح أن تكون للأئمة المجتهدين الأربعة أو لغيرهم وفي هذه الحالة يكون إشتغالهم بالعلم حجابا، لأن من شأنهم التخفي، والأئمة الأربعة هم أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل رضي الله عنهم أجمعين.

٦ — ينبه الشيخ محي الدين بن عربي [١] الى أن طاعة الاقطاب واجبة ويستشهد بالآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم »[٢] ويقصد بهم الاقطاب والخلفاء والولاة ولكن في المباح فقط، ومعنى ذلك أن الصوفية لا يعتقدون في القطب أنه صاحب عصمة بخلاف الباطنية الذين يرون أن الامام معصوم[٣].

هل يموت القطب؟

يعتقد الصوفية أن الله أبقى من الرسل أحياء بأجسادهم في الدنيا ثلاثة مشرعين هم إدريس وإلياس وعيسى وواحداً حامل العلم اللدني، وهو الخضر عليه السلام الذي يحمل راية الدين الاسلامي فهم أربعة عليهم حمل الرسالة والاستمرار بالشريعة المحمدية كما أمر الله بها وهم:

---

(١) راجع الفتوحات المكية — السفر الاول — تحقيق دكتور عثمان يحي

(٢) سورة محمد — آية ٣٣ ؛ سورة النساء آية ٥٩

(٣) الامام الغزالي — فضائح الباطنية ١٠ — ٢٥

الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنون (١) .

ويؤيد الشيخ الاكبر ابن عربى موت القطب وانتقال السر إليه ، ويرى أن الإمام ويقصد به نائب القطب قد يموت فى امامته ويولى مكانه إمام آخر ، وينتقل من الأوتاد الأربعة واحد منهم إلى هذا المكان كما سنبين فى عرضنا عن الإمامين والاوتاد وهم جميعا من أعضاء الحكومة الباطنية ومعنى ذلك أن أحد الوزراء يتولى منصب القطبانية بأمر إلهى وكذلك الأمر بالنسبة للإمامين .

ويسمى ابن عربى ، القطب عبد الاله ، ويسمى الإمام عبد الرب ، والإمام الآخر عبد الملك وأما بقيه أعضاء الحكومة فحسب مقاماتهم وأعمالهم التى خصهم الله بها ، وهذه الأسماء يجوز أن تكون غير الاسماء الظاهرة المسمى بها الولى فى حياته الدنيوية ، لأن هذه الأسماء لها معان تدل على مقامات أشخاصها .

وكما أن القطب يموت فالإمام أيضا يموت ، ويرى ابن عربى أن الإمام أى نائب القطب على النصف من عمره مع العالم، وعلى النصف الآخر مع القطب إلى أن ينتقل إلى خلافة - القطبانية - فيصبح قطبا أو يموت فتنتهى إمامته ومعنى ذلك أن القطب يختار بالضرورة من النائبين أو الامامين .

ويرى الشيخ الاكبر ابن عربى (٢) أن مقام القطب بعد النبى ﷺ لأنه مثله فى الزمان والمكان ، ولا يتمكن القطب أن يقوم فى القطبانية إلا بعد أن يحصل معانى الحروف(٣) التى فى أوائل السور مثل الم والمص وغير ذلك ، فاذا أوقفه الله تعالى على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة وكان أهلا لها (٤) .

---

(١) اليافعى — روض الرياحين ص ٣ — ٢٠ .

(٢) رسائل بن العربى — دار احياء التراث العربى .

(٣) راجع اسم الله الاعظم فى كتاب ألفاظ الصوفية للمؤلف .

(٤) الفتوحات المكية السفر الاول ص ٢٠٠ — ٣٥٠

ويشرح ابن قضيب البان (١) موقف القطبية* فيقول : « أوقفنى الله تعالى على بساط القطبية وقال لى : « الانسان الكامل قطب الشأن الإلهى ، وغوث الآن الزمانى ، أول ما أسلم له : التصريف فى قطر نفسه حتى يبلغ الأشد ، ثم أسلم له ، وأوقف له أقطار الأقاليم ، ثم أسلم له الأرض ثم أسلم له الملك ، ثم أجمع له الملك والملكوت ، وهذا هو النائب الرحمانى » وقال لى تعالى : « القطب يعرفه كل شىء حتى أهل الغيب ، وعالم الخيال ، وأهل الأرض البيضاء ، وتعرفه أيضا العوالم وصور اولى العلم حتى يسلبها بطابع الرحمة ويرويها بالبصر » وقال لى تعالى : « القطب قلبه كن فى عالم الأزل ، وخدع الالوهية » ...

وقال لى تعالى : « القطب خزانة أرواح الأنبياء ، والكون كله صورة القطب ، وهو شمعة نصبت لفراش المقربين ، وصلاح مشاهد العارفين ، وغذاء أفئدة الواصلين » وقال لى تعالى : « نفس القطب صور برزخ الشئون الصفاتية ؛ وعقله اسرافيله ، وفى نفسه عمود الشموس الروحية ، والذين يختارونه هم أهل زمانه » .

وقال لى تعالى : « القطب الفرد الواحد فى كل زمان ، الحقيقة المحمدية ، ولكل زمان قطب منها ، وهو خطيب سر الولاء بكلمة : بلى . وهو شمس عروس أشهدهم وساقى عشاق أشواق « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى » (٢) ، وهذا وصف من ذاق لوحدة الشهود ، عاين وشاهد ، بعد أن كابد وجاهد ، حتى وصـــل إلى أعلى مقام ، فرأى ما رأى وهو فى المقامات الرفيعة ، وتحمل الله له مبسطا بعض علمه وأسراره وفتوحاته عليه .

---

(١) دكتور عبد الرحمن ــ الانسان الكامل فى الاسلام ص ١٥٠ ، ١٥١

(*) يذكر بعض الأئمة القطبانية وبعضهم القطبية ويفضل الشيخ الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود لفظ القطابه .

(٢) سورة آل عمران ــ آية ٣١

علامات القطب :

للقطب خمس عشرة علامة ، واسمه فى كل زمان عبد الله وهو رئيس الحكومة الباطنية . ويبين الشعرانى (١) هذه العلامات ويوضحها — فيقول :

«أن يكون له مدد العصمة، والرحمة، والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش وكشف حقيقة الغرائب ، وكشف حقيقة الذات ، وإحاطة الصفات ، وكرامة الحلم ، والفصل بين الموجودين وإنفصال الأول عن الأول وما انفصل عنه إلى منتهاه وما ثبت ، فيه حكم ما قبل وما بعد ، وحكم من لا قبل له ولا بعد ، وعلم الاحاطة بكل علم ومعلوم مابدا فى السر الأول الى منتهاه ثم يعود اليه .

وهذه العلامات لا يعرفها إلا أهل التمكين من الأولياء الكمل وليس بطريق العلم الكسبي (٢) لأنها علوم وهبية لا يقدر على الوصول إلى منتهاه إلا أصحاب الأذواق.

صفات القطب :

راغب النساء ، (٣) وريث الأنبياء ، مرآة الحق ، وصاحب علم سر القدر، وعلم دهر الدهور غالب عليه الخفاء ، لأنه محفوظ فى خزائن الغيرة ، لا يعتريه شبهة فى دينه ، ولا خاطر ، دائم العبودية والافتقار يقبح القبيح ويحسن الحسن، يحب الجمال المقيد فى الزينة والاشخاص، تأتيه الارواح فى أحسن الصور ، لا تظهر روحانيته إلا من خلف حجاب الشهادة والغيب ، لا يرى من الاشياء إلا محل نظر الحق ، وهو غير أصحاب الاحوال من الأولياء أى أصحاب التلوين الذين يتغيرون باستمرار لكثرة إنتقالهم من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام .

ومعنى ذلك أن القطب منزه عن الحال وثابت فى العلم ، فان أطلعه الله على ما يكون أخبر بذلك على وجه الإفتقار لله لا على وجه الإفتخار كما أنه لا تطول له أرض ولا يمشى فى هواء ولا على ماء ولا يأكل من غير سبب ولا يطرأ عليه

---

(١) الشعرانى — اليواقيت والجواهر — الجزء الثانى — ص ٧٨ وما بعدها

(٢) راجع كتاب المؤلف ألفاظ الصوفية « العلم الكسبي والوهبي »

(٣) اليواقيت والجواهر ٨٧ وما بعدها

شيء من خرق العوائد إلا في النادر إذا أراد الحق تعالى ، فيفعله بإذن من الله تعالى من غير أن يكون مطلوبا له، كما أن نكاحه من ما أجل اللذة والشهوة لا من أجل التناسل كفعل أهل الجنة سواء بسواء ، وذلك لانه وصل واتصل فلا يخشى عليه من الدنيا وأهلها، ولا من هوى نفسه، وحظوظها، ولذلك حظى بهذه المراتب العظيمة والعطايا والمقامات الرفيعة .

ومن شأن القطب الوقوف خلف حجاب بينه وبين الحق تعالى، فاذا مات لقى الله عز وجل ، واستخلفه في القطبانية قطب آخر بأمر إلهى .

شروط القطبانية :

١) أن يكون صاحبها ذا جسم طبيعى وروح وموجود في الدار الدنيا بجسده .

٢) أن يكون واحداً في زمانه فلا ينازعه في هذا المقام ولى آخر .

٣) أن يكون له نائبان هما الإمامان كل منهما يحكم نصف المعمورة .

٤) أن يكون له في زمانه أربعة أوتاد ، واحد منهم يحفظ الإيمان ، والثانى الولاية ، والثالث النبوة، والرابع الرسالة، وسنتكلم عن الأوتاد فيما بعد .

وكثير من الأولياء لا يعرف الرسل الأربعة وهم عيسى والياس وإدريس والخضر عليهم السلام ويسمون جميعا للوصول، وعندما يكشف لهم يعرف كل منهم حقيقته، ومعنى ذلك أن الولى الكامل هو الذى يعرف أعضاء الحكومة بل وأصحاب التشريع ، اما الولى الناقص فيعرف الذين في مقامه أو أقل من مقامه .

مكان القطب واقامته :

يرى الشيخ الاكبر محي الدين (١) أن القطب لا يرى شيئا الا ويرى الله قبله وله من البلاد مكة، وإذا سكن في أي مكان آخر بجسمه فان محله مكة وليس غيرها.

---

(١) رسائل ابن عربى — منزل القطبية — دار احياء التراث العربى ج ٢

ويؤيد صاحب روض الرياحين أن مكان القطب الغوث من الأولياء كمكان النقطة من الدائرة التي هي مركزها ويقع به صلاح العالم، ولا يتقيد القطب بالمكوث في مكان، فإن على إقامته بجسمه حيث شاء الله أن يقيم وأن ينتقل دون تحديد مقام له، والمعروف أن الدائرة هي أكمل الأشكال لذلك فإن مركز القطبانية في دائرة تقع على محيطها مراكز الأولياء، أعضاء الحكومة الباطنية .

هذا وقد قام المؤلف بدراسة ميدانية واختيار منطقة وسط الدلتا (طنطا وضواحيها) باعتبارها مركز اشعاع روحي لجمهورية مصر العربية وبالذات مدينة طنطا لوجود عديد من ضرائح الأولياء بالمدينة وضواحيها وركز البحث على أكبر أوليائها ذي الشهرة الكبيرة والمشهود له من الخاصة والعامة بالولاية الكبرى. ووضع البحث فرضا مؤداه أن القطب في مركز دائرة تلتف على محيطها مراكز الاتباع من الأولياء كنائبيه ووزرائه وأعضاء حكومته من الأوتاد والأبدال والنجباء والرجباء والنقباء ، وقد أتضح من الدراسة الميدانية صدق هذا الفرض وانضباطه على أولياء منطقة طنطا وضواحيها وأن سيدي البدوي، هو القطب الغوث ورئيس هذه الحكومة الباطنية في زمانه ووقته. وسنعرض لهذه الدراسة الميدانية في فصل مستقل، كما سيتبين القارىء نتائجها التي حاولنا فيها اختيار مدى صحة آراء أئمة الصوفية فيما يتعلق بالقطبانية بخاصة والولاية بعامة .

صدى علم القطب :

يبين صاحب مدارج (١) السلوك أن العلمين الثابتين في الدنيا والآخرة ، هما العلم بالله تعالى ، والعلم بالآخرة ، وأما العلوم الدنيوية فهي تزول بزوال الحياة فعلم الطب مثلا لا يحتاج الإنسان اليه في الآخرة لانه لا يوجد مرض فيها

(١) أبو بكر بنانى — مدارج السلوك الى مالك الملوك — ص ١٢ ، ١٣

أو مقام، فهو إذن علم ناقص . وبالمثل العلوم الأخرى كالهندسة والمهارة والصيدلة وغيرها من العلوم الجزئية والعملية والتطبيقية والنفعية، أما علم الصوفية فإنه أسمى العلوم وأرفعها وأثبتها وأعلاها (١) مقاما ولو أن الباحثين لا يعرفون عنه شيئا .

وقد صرح المستشرق « هورجزونج » الهولندى: « إن التصوف الإسلامى مشتمل على شيء من دولية الدين (٢) وهذا فى تصورنا إنما يعبر عن الشمول الذى يتمتع به التشريع الإسلامى إذ يحوى الأديان السماوية الأخرى ويزيد عليها فى منطق التطور إلى قيام الساعة .

ويبين الإمام بنانى (٣) طريقة حصول الغوث على العلم، وذلك بالتدرج فى صعوده فى سلالم التوبة ، والمجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والفقر ، والتقوى ، والورع، والزهد، والحمد، والخوف، والرجاء ، والحزن ، والجوع ، وترك الشهوة، والخشوع ، والتواضع ، ومخالفة النفس ، وذكر عيوبها ، والقناعة ، والتوكل، والشكر، واليقين ، والصبر، والمراقبة (٤).

فيصعد درجات (٥) عديدة فى الفناء والبقاء ، والصحو بعد الفناء ، وهذا أكمل من الأول ، لأنه مقام الأنبياء ووارثيهم من المرشدين المكملين ، وهناك مقامات فى رحلة السالك بين المحو والصحو ، والسكر ، والذوق ، والقرب ، والستر والتجلى ، والمكاشفة والمشاهدة ، وحتى يصل إلى مقام المحبة (٦)، ومنها إلى المقامات الرفيعة كمقام الإصطفاء .

---

(١) د عبد الحليم محمود — المدرسة الشاذلية وامامها — ص ٢٣٩ وما بعدها
(٢) د. محمد غلاب — هذا هو الاسلام — كتاب الشعب — ص ٦٥ .
(٣) الامام أبو بكر بنانى — مدارج السلوك الى مالك الملوك بالهامش عقد الدرر واللآلى — ص ١١٠
(٤) راجع ألفاظ الصوفية للمؤلف .
(٥) الامام القشيرى — الرسالة القشيرية — من ص ٢١١ إلى ص ٤٠٥ .
(٦) راجع ألفاظ الصوفية للمؤلف

والقطب الغوث عند بعض العـــارفين يجيب على كل سؤال ، ويرد على كل استفسار ، ويتكلم بأكثر من لغة ، ويعرف كل جنس ، ولا يعلو عليه أحد من مريديه ، فى سؤال أو جواب ، كما أن كثيراً من الأولياء الاحياء والأموات يشتركون مع القطب فى بعض هذه الصفات ، ويتمتعون بالفراسات والتوسمات لصفاء قلوبهم ، فيلهمون بالحقائق إلهاما ، فهم جواسيس القلوب ، والناظرون بنور الله تعالى .

ويقول الشعرانى : « ولكن يوجد غيره أعلى منه فى الدنيا ، ولكن لا يحمل لواء القطبانية لأنها لواحد فقط فى الزمان والمكان (١) » ، ومعنى ذلك أن رئيس الحكومة الباطنية وهو القطب الغوث وهو الحاكم بأمر إلهى ، ولكن هناك اعلم منه وهم المنفردون (٢) فوق كل ذى علم عليم .

والقطبانية ليست وراثية وإنما يختار الله الخليفة ، ولا يعـــلم به أحد ، لأن اختيار القطب يتم بأمر إلهى ، فهو إذن منحة ربانية ، ومنة إلهيـة ، يخصها الله لبعض عباده الصالحين .

ويرى صاحب مدارج السلوك أن مرتبة القطب أعظم فى الولاية من حيث المقام فقط لا من حيث العلم ، وإلا كان القطب هو أوحــــد أهل زمانه ولاية ومعرفة ومقاما جميعا ، وهذا معناه العصمة ، والعصمة لله وحده ، ولا يمكن أن يفردها الله لبشر .

وإنه لجدير بالذكر أن الصوفية يرون أن « الفرد » (من طبقة المنفردين

---

(١) الامام الشعرانى — اليواقيت والجواهر ص٧٨ — ٨١ — ج٢ .

(٢) يذكر ذلك أيضاً الامام الغزالى وكـذلك الحكيم الترمذى .

من الأولياء) ، ولو أنه خارج عن هيئة الحكومة الباطنية ، إلا أن مقامه عال ، بل ربما يزيد عن مقام القطبانية ، أو الغوثية ، وهذا ما يقرره الحكيم الترمذى ، وحجة الإسلام الإمام الغزالى .

ويستند الصوفية على وجود القطب ، أو الخليفة ، أو الإمام — وكلها مسميات بمعنى واحد عند أهل الطريق — على آيات قرآنية وردت فى قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة[1] » ، وقوله تعالى : « إنى جاعلك للناس إماماً »[2] .

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

الفصل الثالث

أعضاء الحكومة الباطنية

الثانيان او الاماما :

هما مساعدا القطب ، الغوث ، ونائباه فى أمور الحكومة الباطنية ، ولهما وجود فعلى فى الدنيا ، ويصح أن لا يعلم بهما أحد على الاطلاق . وهما اللذان يحفظ بهما الله عالم الغيب والشهادة ، وهو ما يدرك بالحس .

ويرى الشيخ بنانى (١) أن النائبين من الأفراد ينوبان عن القطب فى عالم الغيب ، حتى ينصرف القطب إلى عالم الشهادة ، الذى هو محل دعوة الرسول وإنزال الشرائع ، وأما ابن عربى (٢) فيرى أن الله جعل منزل القطبية من الحضرة هو منزل السر ، وجعل الامام الذى عن يسار القطب صاحب منزل الجلال والأنس ، وعنده صلاح العالم والبعدية ، وبيده المقاليد ، وهو السيد الطاهر ، وهو بمثابة سيف القطب .

ويرى صاحب روض الرياحين (٣) أن ثلاثمائة هم الأوليـاء ، وسبعون هم النجباء ، وأربعون هم أوتاد الأرض ، وعشرة هم النقباء ، وسبعة هم العرفاء ، وثلاثة هم المختارون ، وواحد منهم هو الغوث رضى الله عنهم أجمعين .

وفى رأى الشيخ ابن عربى (٤) أن الامامين هما شخصان ، أحدهما عن يمين

(١) الشيخ محمد بنانى — مدارج السلوك ص ٢٤ .

(٢) رسائل ابن عربى — منزل القطبية (دار إحياء التراث العربى) .

(٣) روض الرياحين — ص ١٦ ، ١٧ .

(٤) رسائل ابن عربى — الفتوحات — السفر الثانى — ص ٤٠٠ .

الغوث ، ونظره فى الملكوت ، والآخر عن يساره ، ونظره فى الملك ،وهو أعلى من صاحبه ، وهو الذى يخلف الغوث .

الأوتـاد :

ويرى بعض أئمة الصوفية أن الاوتادوهم الذين يحفظ الله بهم العالم أربعة لاخامس لهم ، وهم أخص من الابدال ، والإمام أخص منهم ، والقطب أخص الجماعة (١) ، والأوتاد أربعة فى الكون يمثلون عيسى وإدريس وموسى وهارون، والخضر عليهم السلام . وهم وزراء الغوث(٢) ومسـاعدوه فى أمور الحكومة الباطنية ويحفظ الله بهم الجهات الأربع والجنوب والشمال والشرق والغرب .

ويذكر الشعرانى (٣) أن الآية الكريمة :

«ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا »(٤) هى تأييد لوجود الاوتاد كما فسرها الشيخ محي الدين بن عربى ، ويرى أن الحكيم الترمذى رضى الله عنه كان من الاوتاد .

والاوتاد قد بلغوا ووصلوا وثبتت أقدامهم ومقاماتهم ، أما الابدال فإنهم ينقلبون من حال الى حال ،أى أن الاوتاد من أهل التمكين ، أما الابدال فمن أهل التلوين .

ويذكر(٥) أحد الباحثين . أنه قد ذكرت روايات واحاديث عن سيدنا

---

(١) رسائل ابن عربى ـ (كتاب اصطلاح الصوفية) دار إحياء التراث العربى .

(٢) محمد بنانى مدراج السلوك بالهامش كتاب عقد الدرر واللآلىء ص ١٩٦ .

(٣) الشعرانى الكبريت الاحمر ٣ ٥٢ .

(٤) النبـأ :٧

(٥) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ص ٥٢ الجزء الثانى (مجمع البحوث الاسلامية)

عمر بن الخطاب وسيدنا على بن ابى طالب رضى الله عنهما ، تشير الى وجـــود الابدال بالشام ، وأنهم ثلاثون ، ومرة ستون ومرة سبعون ، وأخرى غير محددين.

ويلاحظ من هذه الاحاديث انها لم تذكر غير الابدال او البدلاء ولم يذكر غيرهم كالاوتاد ، والنجباء والرقباء ، والنقباء الا فى آثار اخرى ، على انه يمكن ان يجمعهم جميعا تحت لقب الابدال بمعنى أنه إذ مات واحد منهم أبدل الله به غيره فسواء أكان من الابدال أو الاوتاد أو النجباء أو الرقباء او النقباء أو حتى وإن كان قطبا فهو بدل من الابدال على أساس أنه من الاولياء ومن أعضاء الحكومة الباطنيه

والمهم ان اجتهاد أئمة الصوفية فى الرأى واختلافهم فى العدد واسماء الاولياء لا يؤثر فى وجود هذه الحكومة وعدم وجودها لأنهم يجمعون على أن هناك دولة للأولياء .

ويرى الحكيم أن الأوتاد واحد فى اليمن ، وواحد فى الشام ، وواحد فى المشرق وواحد فى المغرب ، والله سبحانه يدير القطب فى الآفاق الأربعة ، من أرجاء الدنيا كدوران الفلق فى أفق السماء (١) .

الابدال :

وهم أهل فضل (٢) وكمال واستقامة واعتدال ، تخلصوا من الوهم والخيال ولهم مظاهر أربعة : —

الصمت ، والجوع ، والسهر ، والعزلة (٣) ، وكل ظاهر وباطن ، والأبدال بعد الاوتاد الأربعة ، ويحفظ الله تعالى بهم الاقاليم السبعة ، والابدال لا ينقصون ولا يزيدون كما سنشير الى ذلك فيما بعد .

---

(١) د. عبد الفتاح بركة — الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) الاستاذ احمد ضياء الدين — جامع الأصول ن ١١١٤ والمكتبة البلدية .

(٣) راجع كتاب ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف .

ويحفظ الله تعالى بالقطب الغوث كل هؤلاء (١) — وقد سموا البدلاء لأن البدل إذا ما فارق مكانه خلفه فيه شخص آخر، على صورته، ولا يشك الرائى أنه البدل ويرى أئمة الصوفية أن ترتيب الأبدال « كترتيب السموات السبع » بحيث يكون ارتباط الأول بالسماء السابعة، على الوجه الذى سنوضحه بعد، ولقد حج رجل من أصحاب سهل، فلما رجع، قال لأخيه أنه رأى سهلا « بعرفة » وحلف بالطلاق على ذلك، فذهبا لسهل وسألاه عن حكم اليمين، فقال سهل: « مالكم بهذا من حاجة فاشتغلوا بالله وقال للحالف: « امسك عليك زوجك ولا تخبر بذلك أحداً » (٢).

ويروى عن سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: « البدلاء بالشام، والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض » ويحكى عن الشيخ المتوفى أن رجلا أقسم أنه رآه بعرفة فقال له الناس: « الشيخ ما يزال فى مكانه » فخرج وأشار إليه بالسكوت.

وينقل عن يحيى بن معاذ الرازى قوله: « إذا رأيت الرجل يعمل الطيبات فاعلم أن طريقه التقوى، وإذا رأيته يحدث بآيات الله فاعلم أنه على طريق الابدال ».

ويرى الدكتور أبو العلا عفيفى أن الابدال هم صنف من أصناف الصوفية على رأسهم القطب، ويرى نقلا عن ابن خلدون أن فكرة الابدال مأخوذة عن فكرة النقباء عند الشيعة، وفى تصورنا أن طريق الصوفية هو طريق أهل السنة وأن الشيعة أئمة يعتبرون من الباطنية.

ويدافع الإمام السيوطى عن الصوفية فيقول (٣) وقد أنكر عليهم — يقصد

---

(١) د. أبو العلا العفيفى — التصوف الاسلامى — ص ٢٠ وبالهامش

(٢) مدارج الحقيقة ص ٥٠ — ٥١

(٣) السيوطى — تأييد الحقيقة العلية — ص ٩٠.

أهل الحق — بعض العلماء ذكر الابدال، والنجباء، والاوتاد، والاقطاب، بزعم إنه لا أصل لذلك فى الحديث . ويرد السيوطى على هذا الزعم قائلا : « لقد وردت الاحاديث والآثار بذلك، وقد جمعتها فى كتابى الخبر الدال » . كما يذكر صاحب نفحات القرب الإمام الحوى أن الروح إذا كانت كلية كروح الرسول ﷺ ربما تظهر فى صورة سبعين ألف صورة .

وينقل الشيخ أحمد حجاب عن الشيخ حسن أبو على أنه كان كثير التطور تدخل عليه فتجده جنديا، وأحيانا تجده صبيا، وأحيانا تجده سبعا أو فيلا، ويستشهد بما قاله الشعرانى فى ترجمة الشيخ حسن أبو على (١) كما يروى الإمام السيوطى فى « المنجلى فى تطور الولى » :

سألنى رجل حلف بالطلاق أن العارف بالله الطشطوطى بات عنده ليلة كذا، فحلف صديقاله بالطلاق أنه بات عنده فى نفس الليلة . فهل يقع الطلاق على أحدهما أم لا ؟ فأرسلت إلى الشيخ عبد القادر الطشطوطى أسأله فى هذا فقال : « لو قال أربعة أنى بت عندهم لصدقوا . » فأفتيت بأنه لا يحنث واحد منهما » .

ويجمع أئمة (٢) الصوفية على امكان تعدد صور الولى من الابدال وحاصل رأيهم يتركز فى أمور ثلاث . احدهما أنه من باب خرق العادات . كطى المكان وزوى الأرض من غير تعدد فيراه الرائيان كل فى بيته وهى بقعة واحدة الا أن الله طوى الأرض ورفع الحجب المانعة من الاستطراق فظن انه فى مكانين وإنما هو فى مكان واحد، والثالث أنه من باب عظم جثة الولى بحيث ملأ الكون، فشوهد فى كل مكان ، كما قرر ذلك بشأن ملك الموت ومنكر ونكير حيث يقبض من مات فى الشرق والغرب فى ساعة واحدة .

---

(١) الشيخ أحمد حجاب — العظة والاعتبار — ص ٤١ وما بعدها . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

(٢) العارف بالله ابراهيم حلمى القادرى — مدارج الحقيقة ص ٤٨ — ٤٩

والمعروف أن من خصائص هذه الفئة من الاولياء أن الصورة التى يتمثلون بها لا تحكم عليهم بها، بمعنى انك لو أحدثت فى الصورة للمثلة مثلا أو ضربا أو حبسا أو أى ضرر آخر لم يظهر لذلك أثر فى الصورة الاصلية ، ومثل ذلك التمثيل الحسى الذى يرى بالبصر ، التمثيل المعنوى الذى يكون فى النائم فانه لوتم تصور ذلك فى المنام بذاته وصفاته وضربته بسكين فسال منه دمه فان هذا لا يؤثر فى عدوك الحقيقى أى تأثير — ويرى إنه لما كانت روح سيدنا عيسى علوية ملائكية مشرقة بالانوار الإلهية ، كانت أقدر على التمثل من أرواح الاولياء .

وينقل لنا صاحب مدارج السلوك عن ابن عربى فى كتابه رحلة الابدال انه قال (١) :

يامن أراد منازل الابدال ... من غير قصد منه للاعمال
لا تطمعن بها فلست من أهلها ... إن لم تزاحمهم على الأحوال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الابدال
مابين صمت واعتدال دائم ... والجوع والسهر النزيه العالى

الابدال وقلوب الانبياء : (٢)

البدل الاول: يحكم الاقليم الأول السماء السابعة على قلب الخليل عليه السلام .

البدل الثانى: يحكم الاقليم الثانى للسماء السادسة على قلب موسى عليه السلام.

البدل الثالث : يحكم الاقليم الثالث السماء الخامسة على قلب هارون ويحيى عليهما السلام .

البدل الرابع : يحكم الاقليم الرابع السماء الرابعة على قلب أدريس عليه السلام .

البدل الخامس : يحكم الاقليم الخامس للسماء الثالثة على قلب يوسف عليه السلام.

---

(١) مدارج السلوك — ص ٢١

(٢) ابن عربى — الفتوحات المكية ص ٣٧٠ — ٣٧٦ السطر الثانى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ .

البدل الخامس : يحكم الاقليم السادس لسماء الثانية على قلب عيسى عليه السلام.

البدل السابع : يحكم الاقليم السابع لسماء الاولى على قلب آدم عليه السلام.

ويقول الشعراني(١) . « انه تنزل عليهم العلوم (أى الأبدال) لكل يوم على من رقائق على قلب من هؤلاء — ويلى هؤلاء فى المقام، النجباء، والرجباء، والنقباء، وأهل الغيب، وأهل النجدة، وغيرهم وكل منهم ينظم علائق الحكومة الباطنية ويستهدف رسالة فيها . ويروى لنا صاحب روض الرياحين (٢) عن الخضر عليه السلام أنه قال: « ثلاثمائة من الاولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون وواحد منهم هو القطب الغوث الفرد .

ويقول العارف بالله إبراهيم حلمى القادرى : « أقام الله لجبريل عليه السلام شبحا آخر غير جسمه الاول الذى يسد الافق وهو فى شخص دحية لما تراءى للرسول ﷺ وكذلك خص الله الأنبياء بالمعجزات كإحياء الموتى، وقلب العصا ثعبانا فلا يمتنع أن يخص الله الاولياء بالتصرف فى بدنين واكثر من ذلك .

ويحكى عن الجنيد قوله (٣) : « حضرت أملاك بعض الابدال من الرجباء ببعض الابدال من النساء ، فما كان فى جماعة من حضر أحد الا وضرب بيده إلى الهواء، وأخذ شيئا فطرحه من در وياقوت وما أشبه ذلك، فقال الجنيد : « فضربت بيدى فأخذت زعفرانا فطرحته » فقال لى الخضر عليه السلام : « ليس فى الجماعة من أهدى ومن يصلح للعرش غيرك » . وهذا رمز لمقامه العالى وقربته من الله عز وجل، ولذلك يعتبر الصوفيه أن الإمام الجنيد هو شيخ الطائفة بلا منازع .

---

(١) الشعرانى — اليواقيت والجواهر — ج ٢ ص ٨٢ .

(٢) اليافعى — روض الرياحين فى حكايات الصالحين ص ١٧٢ وما بعدها . مكتبة البابى

(٣) المرجع السابق ص ٤٦ .

الإبدال والتجسد الروحي :

يحـــاول بعض العلمـاء أن يعبر العالم المـــادي، ليستجلي خفايا عالم الروح ونعرض هنا لبعض هذه المحاولات، فقد قام بعض علماء الروح في العصر الحديث(١) بعمل تجارب عديدة لتجسيد الأرواح ـ ونضرب لذلك مثلا بالتجربة التالية : ـ

« طلب بعض الباحثين الروحيين أن يقوم أحد القـادرين على عملية الطرح الاختياري الواعي بطرح روحه ليحضر بها احدى جلسات التجسد ، وفعلا حصل على أن تجسد روحه هناك فيكون له جسد مادي ، مؤقت غير الجسد المادي الذي يظهر به، ويكون لهذا الجسد الثاني الجديد المؤقت نفس مميزات الجسد القديم من حيث الشكل والتكوين ، وفعلا طرحت سيدة روحها طرحا اختياريا واعيا ثم جسدت روحها ، وبعد اتفاق سابق في جلسة لتحضير الأرواح إنعقد إجتماع في مكان يبعد عدة مئات الأميال عن مقر هذه السيدة .

وهناك طلب إلى هذه السيدة أن تظهر في دائرة احدى السيدات الروحانيات التي تقوم بتجارب الصوت المباشر، ثم طلب إليها أيضا أن تظهر في دائرة سيدة اخرى كانت تجري تجارب على التجسد في مساء نفس اليوم .

والغريب أنهـا قامت بهذه التجربة بنجـاح ولم تتخذ أي استعداد إلا تناول طعام سهل الهضم ، ثم طرحت نفسها في الميعاد المحدد من بدنها واتجهت صوب مقر دائرة السيدة الأولى للصوت المباشر فلما وصلت الى هناك رأت السيدة المذكورة وزوجها ، ورجـــلا لا تعرفه ووصفتها وصفا دقيقا، وكذلك تجسدت في الدائرة الثانية كما تجسدت في الأولى .

وقد لمس ذلك كل الذين قاموا بالتجربة والذين حضـروا هـــذه الجلسات يؤكدون صدقها وهم من كبار الأطباء والعلماء من أمريكا وانجلترا .

---

(١) أحمد فهمي أبو الخير ـ الحياة بعد الموت ـ ص ١٢٤ وما بعدها .

والذى يهمنا(١) فى هذه التجربة وغيرها أنها تتم بمساعدة بعض الأرواح، وأن أصحاب هذه التجارب ينظمون غرفة عمليات كاملة، فمنهم صاحب البوق ، ومنهم الكيمائى ، ومنهم المتحدث من العالم الأثيرى ، وسنتكلم عن ذلك تفصيلا فيما بعد .

لكن المهم أن هناك ارتباطاً شكلياً بين العلم الصوفى ، والعلم الروحى ، وهذه العلاقة تظهر فى أن هناك عالماً غير عالمنا هـذا كما أن أثباته تدعمه التجارب وأن الاقطاب والابدال وغيرهم يتمتعون بخوارق العادات، وقلب الاعيان ويأخذون علمهم من الكتاب والسنة ، وإذا كان أصحاب العلم الروحى الذين يقيمون هذه التجارب بقصد الوصول الى منافع مادية قد صدقت تجاربهم بعض النجاحات ، فإن الأولياء أولى بالتصديق منهم جميعا لانهم لا يقصدون غير وجه الله .

ولا يخفى أن من العلماء إناس صدقوا ما عاهدوا الله عليه وانهم يحملون قلوبا طاهرة ونفوسا خيرة وعقولا نيرة ، وفوق ذلك مؤمنون طاهرون ، فلا غرو أن يتمتعوا ببعض المبشرات كما يمكن أن يكون لديهم جـــلاء سمعى وبصرى ، وقدرة على استخدام الارواح فى العـــالم الأثيرى والتكلم بالسنتهم وحناجرهم وعقولهم، ولكننا لانتصور أن يهبطوا الى مستوى التجارب العملية للوصول إلى مظاهر نفعية لإثبات شىء فوق مادى بل وفوق عقلانى ، وأغلب الظن أن الذين يقومون بهذه التجارب اناس يسيرون مع الهوى وغلبه حظوظ النفس بل وشهواتها عليهم .

وإذ كانت بعض هذه التجارب التى صورت بعض الأرواح الأثيرية وتم كثير منها وفق أدق الظروف الموضوعية لإستبعاد الشك وتقرير الوقائع كما سبق الاشارة ـ فإننا لانستطيع الا أن نسلم بإمكانية الانتقال بالطريق غير المتبع عرفا

---

(١) جيمس فندلاى — على حافة العالم الاثيرى ٧١ ــ ٨٩

وعادة من مكان الى مكان متى تم ذلك عن طريق انسان مؤمن صادق له بعض الميزات الاخلاقية بل والشفافية المطلوبة وطهارة القلب والاخلاص والطاعة لله، الا اننا لا نشك فى أن الطريق والهدف والغاية ليس واحداً بين الصوفية وعلماء الروح، كما أن الوسائل جد مختلفة، وفى تصورنا أن ما يظهر لعلماء الروح إنما يكون من باب المخادعات وليس من الكرامات ولذلك يقول الكلاباذى فى التعرف: أن للأنبياء معجزات، وللأولياء كرامات، وللأعداء مخادعات.

الرقباء والنجباء :

ذكر سيدنا على كرم الله وجهه حديثا عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «ان كل نبى أعطى سبعة نجباء رفقاء» أو قال رقباء، وأعطيت أنا أربعة عشر، فقلت: من هم ؟ قال أنا وابناى، وجعفر، وحمزة، وأبو بكر، وعمر، ومصعب بن عمير، وبلال، وسلمان، وعمار، وعبد الله ابن مسعود». وقال صلى الله عليه وسلم لم يكن قبلى نبى إلا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء، وانى أعطيت أربعة عشر: حمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وعلى والحسن والحسين (سبعة من قريش) وابن مسعود وعمار وحذيفة وأبوذر المقداد وبلال». ولم يستكمل الترمذى الاربعة عشرة فى حديثه (١).

ويرى الشيخ محى الدين بن عربى فى كتاب اصطلاح الصوفية ان النجباء هم أربعون نجيبا مشغولون جميعا بحمل أثقال الخلق فلا يتصرفون إلا فى حق الغير.

النقباء :

وهم اثنا عشر نقيبا فى كل (٢) زمان ولا يزيدون ولا ينقصون على عدد

---

(١) الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة — ولم نجد هذا الحديث الا عند اليافعى والسيوطى ص ٣٤ ج ١.

(٢) د. الشيبى مصطفى — الصلة بين التصوف والتشيع ص ٤٥٧/٤٦٠ دار المعارف.

البروج الاثنى عشر، وكل نقيب عالم بخاصية كل برج بما أودع الله فيه من الأسرار، ويرى الشيخ محى الدين بن عربى أن النقباء قد استخرجوا خبايا النفوس .

الرجبـاء :

الرجباء هم ثمانية فى كل (١) زمان ومكان لا يزيدون ولا ينقصون، وهم الذين تبدو عليهم علامات القبول واحواله ، وهم وإن كانوا كذلك فليس لهم اختيار فى الحال الذى يكونون عليه ولا يعرف حالهم من كان فوقهم ولا من دونهم وهم أصل الصفات السبع المشهورة والإدراك هو الثامن .

ويروى صاحب روض الرياحين عن سيدنا على بن أبى طالب أنه قال : «البدلاء بالشام والنجباء بمصر ، والعصائب بالعراق ، والنقبـــاء بخراسان والأوتاد بسائر الأرض ، والخضر عليه السلام بسائر الأرض» .

وقد قال بعض العارفين : « الصالحون كثير ، يخالطون العوام لصلاح الناس دينهم ودنياهم ، والنجباء فى العدد أقل منهم ، والنقباء أقل منهم ، وهم مخالطون للخواص ، والابدال وفى العدد أقل منهم لا يكون منهم فى مصر إلا الواحد بعد الواحد .. وقال : بعض العارفين : أن عدد النجباء ثلاثمائة والنقباء أربعون والبدلاء ثلاثون وقيل أربعة عشر وقيل سبعة وقيل أن الأوتاد أربعة » .

ويروى ابن تيميه أن الأسماء الدائرة على السنة كثير من النساك والعامة مثل الغوث الذى بمكة ، والأوتاد الاربعة ، والاقطاب السبعة ، والابدال الاربعون والنجباء الثلاثمائة، ليست موجودة بكتاب الله.ولا مأثورة عن النبى ﷺ لا بإسناد سليم صحيح أو ضعيف كألفاظ الابدال . فقد روى عنهم ابن تيمية حديثاً

---

(١) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذى ص ٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٥٣

شاميا منقطع الاسناد عن علي كرم الله وجهه مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هنا لا يعتقد ابن تيمية في وجود الابدال .

ولكن صاحب روض الرياحين يورد نصوصاً من الآيات القرآنيه والأحاديث المنسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم . منها :ـــ

من (١)عاد وليا فقد آمرته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشيء أحب مما افترضت عليه، ومازال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه، واذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصربه، ويده التى يبطش بها،ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى أعطيته ، ولئن أعاذنى لأعزته. ومنها الآية الكريمة: «أولئك مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٢) .

وقال تعالى : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم وهم يحزنون (٣) .

وقال تعالى « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» (٤) .

وقال سبحانه : «ان عبادى ليس لك عليهم سلطان،وكفى بربك وكيلا(٥) .

وقال تعالى : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله اناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر» (٦).

وهذا إثبات لوجود الولاية الروحية، وإنما الاختلاف فى تفصيل المقامات، والأحوال، وفى عدد الأولياء، فى كل مقام من مقامات الولاية الروحية،ولقد اتفق

---

(١) روض الرياحين ص٩ الى ١٧ وهذا الحديث ذكره الشيخ الاكبر محي الدين بن عربى فى مشكاة الانوار والسيوطى فى الجامع الصغير .

(٢) سورة النساء : ٦٩

(٣) سورة يونس : ٦٢

(٤) سورة يونس : ٦٤

(٥) سورة الاسراء : ٦٥

(٦) سورة آل عمران : ١١٣

جميـــع مشايخ الطـرق الصوفية على أن الأولياء فى الزمن الواحـــد ثلاثمائة لا ينقصون ولا يزيدون ، وان على رأسهم الغوث ، ولقد أيدت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن سيدنا على بن أبى طالب وجود البدلاء وإن أختلفت الاحاديث والروايات فى عددهم .

ويقول : الجنيد رحمه الله «فالمست أن مرتبة سرى السقطى أعلى من مرتبتى ، لأنه كان على علم بأسرار نفسى ، فذهبت اليه ، وطلبت العفـــو ، وسألته كيف عرف انى رأيت النبي فى المنام، فقال: أننى رأيت الله فى المنام فأخبرنى أنه أرسل إليك رسول الله ليأمرك بالخروج الى الوعظ» ، ويعلق الهجويرى على هــــذه القصة بقوله :

« ان فيها شاهدا على أن المشايخ على علم دائم بالاحوال الباطنية عند مريديهم [1] » .

(١) نيكلسون ـــ فى التصوف الاسلامى وتاريخه ـــ ص١٦٣ ـــ ١٦٤ تعليق الدكتور محمد أبو العلا عفيفى .

الباب الثالث

مفهوم القانون فى الحكومة الباطنية

يشتمل هـــذا الباب على فصول خمسة هى : ـــ

الفصل الأول : مصادر التشريع فى الحكومة الباطنية .

الفصل الثانى : دستور الحكومة البـــاطنية .

الفصل الثالث : صـــدور الأوامر والأحكام .

الفصل الرابع : مجـــالس الحكومة الباطنية .

الفصل الخامس : محـــاكم الأوليـــاء .

الفصل الأول

١ ـ مصادر التشريع فى الحكومة الباطنية

المعروف أن القانون بالمفهوم العام هو مجموع القواعد الملزمة التى تحكم سلوك الأفراد فى المجتمع ، والقانون يقيم نظام المجتمع ويحكم علاقات الأفراد فيه وذلك عن طريق فرض تكاليف وواجبات وتقرير حقوق لهم من ناحية ثانية .

ويرى بعض الباحثين أن قواعد القانون تختلف عن قواعد الاخلاق (١) فى الهدف والغاية ، فالأخلاق إنما يقتصر دورها على مجرد بيان الواجبات ، أما القانون فإنه يحدد قواعد النظام العام والآداب، وهى قواعد آمرة لايجوز مخالفتها أو الوقوف فى سبيل عدم سريانها احتجاجا بحق مكتسب أو خلافه .

كذلك (٢) الحال فى الدولة الباطنية فان مخالفة أو عدم احترام قواعد الطريق يعد من السالك خروجا عن النظام العام وآداب الطريق ، ويترتب عليه توقيع الجزاء على المخالف وهو غالبا ما يكون أنتكاسا، أو تنزيلا، فى المقام أو المرتبة أو طردا من الولاية أو نفيا أوسلبا أو جذبا ، ويكون الجزاء فوريا فى صورة إبتلاء من الله ، أوحجاب يحجب به الولى عن الأسرار والحقائق والمغيبات والمنن والعطايا والهبات .

ومعنى ذلك أن الطريق الصوفى ليس نظاما أخلاقيا فحسب بل هو تقنينا دقيقا لخط سير السالك وقواعد عامة لا يمكن مخالفتها والا وقع المخالف تحت

---

(١) د. حسن كيره ـ المدخل فى القانون ص ٢٣٠ & ٢٤١ سنة ١٩٥٤ دار نشر الثقافة

(٢) عبد الوهاب الشعرانى ـ الكبريت الاحمر ص ١٤٨ ج١

طائلة الجزاء ، وإذا كانت قواعد القانون تحكم فقط على الوقائع الظاهرة ، فإن القانون فى الحكومة الباطنية يهتم بالظاهر والباطن معاً .

ولا يخفى أن تشريع دولة الباطن لم يضعه فقهاء الصوفية أو أقطابهم وإنما وضعه الشارع الأعظم سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز وأوضحه تعالى فى سنة نبيه ورسوله محمد ﷺ . الموحى إليه بالرسالة ، لذلك فإن هـذا التشريع غير قابل للاجتهاد وليس عرضة للتغيير وأن مخالفة ما أمر به الله معناه الخروج عن الدين والانتكاس والتلف .

ويؤيد ذلك الشيخ محي الدين بن عـربى[1] فى قوله : « أنه ما بقى للأولياء إلا وحى الإلهام على لسان ملك الالهام فيعلمهم بصحة حـديث نبوى قيل أنه ضعيف أو عكس ذلك وذلك عن طريق الالهام أو الرؤية أما خلاف ذلك فهو الحق المتبع ولايجوز تبديل كلمات الله .

وخلاصة القول أنه لاتشريع من الأولياء إلا وحى الالهـــام الذى يتم إما بطريق الصوت أو الصورة فقط، فاذا رأى ملك الالهام فان الولى لا يسمع له صوتا، وإذا سمع الولى صوتا لا يرى صاحبه ، ووحى الالهام هو دليل الصالحين ، إذ هو تجل وكشف إلهى لشـرح حقيقة أو لفهم دقيقة أو الاعلام برقيقة أو تلطف من الله بلطيفة على قلب عبده الشاكر .

ويختلف التشريع إذن فى دولة الباطن عنه فى القوانين والتشريعات المدنية فى أى مجتمع، إذ أن الأخيرة صـادرة عن عقائد وتقاليد دينية وأخلاقية اتفقت عليها الجماعة أو نتيجة تيارات أخلاقية جارية فى المجتمع وبذلك لا يمكن أن تكون ثابتة فهى قابلة أبدا للتغيير والتبـديل فى الزمان والمكان وفى الآثار المترتبة على تطبيقها

---

(١) الكبريت الاحمر ص ٨٣ : ٨٧ الجزء الثانى .

بل عرضة للاضافات والتعديلات وإنه يمكن القول أن بعض هذه القوانين المطبقة حاليا يمكن أن تكون مستحدثة وبعضها يمكن أن تكون قديمة، فما هو قديم منها يمكن أن يكون حديثا، كما أن ماهو حديث يمكن أن يكون قديما .

أما تشريع دولة الباطن فبعيد عن الحس[1] الظاهرى الذى دائما يخطىء ويتغير لذلك فاننا نرى أن مصدر تشريع أهل الباطن مأخوذ من صاحب الشرع المنزل، والشريعة الاسلامية عندهم هى الأساس، وهى أولى الدرجات للوصول إلى الحقيقة فأى إعتراض أو مخالفة معناه الخروج عن الشريعة الغراء ومن ثم الوقوع فيما يسمى بالالتباس والانتكاس والتلف .

والمعروف أن جميع فقهاء الباطن قد درسوا أحكام الشريعة ثم انطلقوا إلى الاجتهاد فى الطريقة وذلك، عن طريق الالهام والكشف . والطريقة هى السلوك العملى فى تطبيق الشريعة ولذلك فإن البدايات بين أعضاء الحكومة من الأولياء فيما يتعلق بالمجاهدات والرياضات مختلفة أما الطريق فواحد .

ولقد كان سيدى عبد القادر [2] الجيلانى دارسا الشريعة على المذهب الحنبلى، وآخذا الطريق عن أبى حامد الغزالى، وجاهد حتى وصل إلى مرتبة الغوثية، ومعنى ذلك أنه اختار فقه الجوارح أو فقه الظاهر عن المذهب الحنبلى، أما فقه القلوب أو فقه الاعمال فأخذه عن الإمام الغزالى .

وقد كان الإمام أبو حنبل[3] نفسه يسأل أبا حمزه البغدادى الصوفى عندما يأتيه سؤالا يتعلق بالصوفية ويقول له: «ماذا تقول فى هذا ياصوفى؟» . ذلك لأن العالم غير

---

(١) الكبريت الاحمر — ص ١٢ ، ١٨ ج١ هامش الطبقات الكبرى

(٢) الطبقات الكبرى ص ١٠٩ ج١

(٣) د. مصطفى حلمى : أبن الفارض ص ١٠٣ (أعلام العرب ١٦) وزارة الثقافة والارشاد

العارف فالعالم يخطىء ويصيب عن طريق الحس ولكن العارف جاوز منطق الحس وأصبحت علومه وهبية الهامية لا تحتمل الخطأ .

وينقل الدكتور (١) مصطفى حلمي عن سيدى إبراهيم الدسوقى قوله : « من لم يكن متشرعا متحققا نظيفا عفيفا شريفا فليس من أولادى ولوكان ابنى لصلبي، ذلك لأن هوى النفس وحظوظها وشهواتها تبعد المريد عن طريق الحقيقة وتضع حجابا كثيفا أمامه يعوق الفتح والكشف والتجلى الإلهى .

فالقانون عندهم تتركز دعائمه على أحكام الشريعة الاسلامية ثم أنهم يبنون دولتهم الباطنية على هذه الأحكام ومن أخل بها فيعتبر خارجا عن دولتهم ذلك لان العبرة فى الإخلاص والطاعة والإيمان والتوبة بعد التوحيد .

فالخروج على قانون دولة الباطن يعد خروجا عن التشريع الإلهى وبالتالى عن قواعد الحكومة الباطنية، وعن تعاليمها وعن آدابها، بل يعد خروجا عن الأخلاقيات التى لها المقام الاول فى نظام دولتهم . . . ويترتب على ذلك انتكاس المـــريد المبتدىء أو تنزيلا فى مقامه أو طردا من الحكومة الباطنيه ، وذلك حسب نوع الخطأ ومدى تأثيره على بناء ونظام الحكومة ومخالفته لاحكامها والاضرار التى تنجم عن تلك المخالفة .

إلا أن أهم شىء عند الحكومة الباطنية هو حساب النية ، وذلك عكس دولة الظاهر التى تعتمد على الوقائع المادية الملموسة .

فالطاعة مثلا ظاهرة وباطنة ، لكن طاعة القانون ظاهريا لا توجب عقابا فى الحكومة المدنية حتى لو لم يكن الشخص مؤمنا بما يفعله .

أما فى الحكومة البـاطنية فالطاعة الظاهرة ليست بالضرورة هى أساس الحكم

---

(١) د. مصطفى حلمى — ابن الفارض . ص ١٠٢ ومابعدها

على الأعمال والتصرفات، ذلك لان هناك بعض الناس يؤدون الفرائض والتكاليف والواجبات وكل أنواع الطاعات حبا في التملق أو الرياء للناس، أو لكسب مودتهم وثنائهم ومدحهم لهم ، أما قلوبهم فخاوية من الصدق ونفوسهم عاصية ليس فيها إخلاص ولا طاعة، وتظهر أخلاقهم السيئة عند امتحانهم، فإذا لم يشكروا على دعوى صلاحهم هددوا وتوعدوا الناس بالبلاء المنتظر أو صبوا لعناتهم وأخافوهم بدعوى أنهم أولياء لله، وأن دعواهم عند الله مقبولة وهؤلاء هم أصحاب الشرك الخفى الذين يبطنون غير ما يظهرون ، لذلك فإن حسابهم عسير وأنهم لا يمكن بل يستحيـــل أن يكونوا من الأولياء أو ينتمون إلى أهـــل الحق أعضاء الحكومة الباطنية .

الفصل الثاني

٢ — دستور الحكومة الباطنية

إن قواعد دولة الباطن تقوم أساسا على كونها آمره ، بمعنى أنها قواعد لايمكن الاخلال بها مهما كانت الظروف دون اعتداد بالاشخاص التى تطبق عليهم ومهما كانت درجاتهم أو مقاماتهم أو مراتبهم فى الولاية ، لان هذه القواعد إنما صادرة عن التشريع الالهى ومن ثم لا يمكن مخالفتها بدعوى ظاهرية ، إذا أن الأساس فيها طهارة الباطن والاخلاص والطاعة لله مع كونها لاتخالف الشريعة الظاهرة.

لذلك فان الخروج على هذه القواعد يترتب عليه الجزاء المقرر للمخالف، وهذا الجزاء يكون عادلا فى كل الظروف لأنه مأخوذ من أحكام القرآن والسنة على أساس قول رسول الله ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء مانوى »(١).

والمقرر فى القوانين الوضعية أنها تفرق بين القواعد الآمرة والقواعد المفسرة، على أساس أن القاعدة الآمرة تتضمن تصريحا بصفتها آمرة بالنص على كل اتفاق مخالف أو بفرض عقوبة على مخالفتها فى حين أن القاعدة المفسرة أو المكملة تنص على أجازة الاتفاق على عكسها .

ويؤيد وجود قواعد آمرة، وقواعد مفسرة، فى دولة الصوفية ما ذهب اليه نيكلسون ويقصد إليه فى قوله : « وفى الطريقة ويقصد بها الطريق الصوفى لم يكن يوجد مكان للتفكير العقلى المدرسى أما الاجتهاد فكان مسموحا به ولكن فى حدود أحكام القرآن والسنة » .

---

(١) حديث عن الفاروق عمر ذكره الدارقطنى وورد فى الحلية لابن نعيم ، كما أخرجه العطار عن أبى هريرة ، وذكره أيضاً السيوطى فى الجامع الصغير .

وهذا يوضح لنا أن أحكام القرآن والسنة هي قواعد آمرة، وأن الاجتهاد المؤسس عليها هو المقبول لدى أصحاب الطرق وشيوخها ويشارك Joseph Schacht (١) في هـــذا الرأي عندما صرح بأن غاية القانون الإسلامي منح مفاهيم لكنه لا يضع قواعد قانونية في ملهى المصالح كما هو الحال بالنسبة لأهداف القــوانين المدرسية ، ولذلك فانه يرى أن القـــانون الإسلامي يقود إلى نوع من النتائج مختلفة عن القوانين الوضعية ويضرب لذلك مثلا بالاعتقاد الصادق Good faith فالصدق والعدالة والحقيقة تلعب جميعها دورا مستقلا في النظـــام الإسلامي ، فدستور الحكومة الباطنية أساسه المعرفة أو يمكن القول العرفان الصوفي، فالعارف هو من سلك الطريقة فيطبق عليه على مسالكه ، وليس هو الذي يتعلم المراء والقيل والقال دون تحقيق الحال لأن العلم حياة والجهل ممات (٢) .

ونجد تأييداً لذلك الرأي ما ذهب اليه نيكلسون في أن التصوف أصبح رويدا رويدا حركة منظمة ومدرسة يتخرج فيها الأولياء ، لها قواعدها وأنظمتها من حيث سيرة المريدين وأخلاقهم وعباداتهم ، وأصبح المريد يتلقى قواعد الطريق على استاذه ، ويخضع لارشاد هـــذا الاستاذ خضوعا أعمى ، وإذا كان دستور الحكومة الظاهرة يخضع له كل مواطن يتمتع بالاهلية الكاملة فحسب ، فإن دستور الحكومة الباطنية يشترط في المريد التوبة (٣) الظاهرة والباطنة قبل إنخراطه في الطـــريق .

---

(١) Joseph Schacht. An Introduction to Islamic law okoord press. 1964.

(٢) الشيخ أبو المواهب ــ قوانين حكم الاشراق من ٥١ ــ ٥٢

(٣) راجع التوبة في كتاب المؤلف ــ ألفاظ الصوفية ومعانيها

ويؤيد نيكلسون (١) رأيه بما روى عن أبي يزيد البسطامي « من لم يكن له أستاذ فالشيطان أستاذه » . وقول ذو النون المصري الذي قرر بان طاعة المريد لاستاذه أولى من طاعته لربه » ، ذلك لأن الشيخ المربي قد حظى بالحقائق الذوقية وتغلب على غوايه الشيطان ، وهوى النفس فهو عارف بالخواطـــر الشيطانية والملائكية ، ومن ثم قادر على قيادة قلب مــــريده ، وتسليكه من براثن النفس الامارة وحظوظها .

ولقد قسم الصوفية في القرن الثالث قواعد الطريق الصوفي الى سلسلة من المراحل ، سيأتي ذكرها في مكان آخر .

ويبين لنا الحكيم الترمذي التلاحم بين العلم والعمـــل،وأن كلا منهما مرتبط بالآخر، وأن كل خطوة يخطوها العبد في طريق الولاية هي في نفس الوقت خطوة يخطوها في درجات المعرفة ، لأن هناك فرق بين العلم الكسبي الذي يقوم على التحصيل والتلقين وبين المعرفة التي هي مجاوزة العلم النظري إلى السلوك العملي . والمعرفة علاوة على أنها فوق موقف الصدق والكذب (٢) فان العارف يخاف سوء التقدير رغم علمه الذي لايشوبه الاغترار، وإنما اذا شكر الله اعترف بعجزه وقلة حيلته .

ويعطى الحكيم علامات (٣) وموازين يقيس بها المرء قدر عمله ومن ثم قدر معرفته، فينظر إلى مايرجع الى قلبه من الزيادة ، فيرى المرء اذا قام بأعمال البر ، ظهور حرارة من نور القلب ناتجة من نور التوحيد ، وعلامتها أن يزيده الله علما كلما إزداد القلب نورا ، أما إذا صدرت تلك الحرارة من الجـــوف أو من قبل النفس فتلك تربية الهوى ، وعلامتها إزدياد النشاط لذلك العمل ، عندئذ يعلم المرء أنه ترك الطريق ، وأن عليه أن يحـــذر من آفات نفسه الخفية التي تحبط اعماله وتطفيء أنواره .

---

(٢) د. أبو العلا عفيفي التصوف الاسلامي .

(٢) حكم الاشراق ص ٥٠ ــ ٥٧ .

(٣) د. عبد الفتاح بركه ــ الحكيم الترمذي ج٢ ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦ .

فالعمل الصالح يعرف ، والعمل الطالح يعرف ، والانسان نفسه هو الحكم على أعماله ، فيعرف نفسه اذا كانت فى طريق الله تسير ، أو فى طريق الشهوات تمضى ، أو مع الشيطان تنقاد ، فاكتساب المعرفة تجربة ذوقية يعيشها الانسان ونجاحها معناه أن الانسان يمضى فى طريق أهل الحق ويصعد الى درجات أعلى ومقامات أسمى .

فعلاوة على وجود تعاليم موضوعية للسالك فى الطريق ، فهناك أخلاقيات السالك وفى هذا المعنى يقول أبو الحسن النورى (١) .

« ليس التصوف رسوما ولا علوما ، ولكنه أخلاق » .

ويبين أبو حفص النيسابورى تعاليم وأخلاق الصوفية فيقول : « التصوف كله آداب ، ولكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب . فمن لزم آداب الأوقات ، بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول » .

لذلك نجد ذا النون المصرى (٢) يحث المريدين على الاخلاص والطاعة فينصح مريديه ويقول لهم :

« يامعشر المريدين ، من أراد منكم الطريق ، فليلق العلماء بالجهـــل والزهاد بالرهبة ، وأهل المعرفة بالصمت . »

دستور الحكومة الباطنية إذن لا يكتفى بقواعد وأخلاقيات وآداب ظاهرة وإنما أساسه التوبة (٣) . وهى أول مقام السالكين ، والتوبة ليست فى الندم على

---

(١) الامام المناوى — طبقات الصوفية ص ٢٨ ، ٣٨ .

(٢) راجع كتاب المؤلف « التوبة » ألفاظ الصوفية

(٣) المرجع السابق التلوين والتمكين .

الأثم والمعصية لحسب ، وإنما التوبة عند الصوفية تصل إلى أعلى درجاتها فى التوبة من التوبة أى الاتجاه الى الله بالكلية، وإسقاط التدبير مع الله، وبذلك ينسى التائب إثمه وذنبه، بل ومجرد التفكير فى التوبة ، لأنه وصل الى مرتبة فناء الفناء فى الله ، وبذلك يكون عبدا ربانيا عارفا ووليا لله .

إذن فدستور هـــذه الحكومة خاص وليس بعام ، فلا ينطبق إلا على أفراد مخصوصين يمثلون حكومة أرستقراطية لأن رعايا هذه الحكومة قلة فاضلة ، وهم أرباب الاحوال والمقامات أو بمعنى آخر أهل التلوين والتمكين الذين وصـــلوا بصدقهم وإخلاصهم إلى مراتب الولاية والقربة والمقـامات الرفيعـة فهم أهل الله ، وعباد الرحمن ، رجال الليل العارفون بالله .

وخلاصة القول أن دستور الحكومة الباطنية عماده الأول المعرفة والمعرفة توبة وزهد فى الحياة ، وتوكل على الله ، والعارف يجاهد فى خفاء ، ويعمل فى إيثار ، ويسعى بلا رياء ، ويخدم الفقراء قبـــل الاغنياء ، يعبد الله على طريق الإخلاص والطاعة ، وعلمه لايطلع عليه غير أصحابه ، وينمو حاله فى حيـاته ، ويشتهر عند الناس بعد وفاته ، يكتم الأسرار ويحب الاستتار ولا يعرفه إلا الاحرار وهذا هو الصوفى التائب القانع المخلص المطيع الصادق .

الفصل الثالث

صدور الأوامر والأحكام

يتبع نظام الحكومة الباطنية النظام الهرمى وتسلسل المقامات من القطب الغوث كرئيس للدولة إلى النائبين أو الامامين إلى الأوتاد الأربعة، ثم الابدال السبعة ، والنجباء فالرجباء ، إلى النقباء ، فرجال الغيب ، الى أهل النجدة وغيرهم من الأولياء .

ويستمد رئيس الحكومة الباطنية أوامره من القطب الأوحد الممد لجميع الاولياء وهو الرسول محمد ﷺ ، وهو قطب الأقطاب فى الزمان والمكان ، ويقال أن قطب الوقت على قدم الرسول أى على شريعته وسنته وطريقه وأخلاقه .

وترد الاوامر والنواهى إلى أعضاء الحكومة الباطنية إما بأمر إلهى، أو بواسطة الرسول ﷺ فى صورة رؤيا أو كما تسمى عندهم مبشرات أو بطريق الإلهام أو مناما أو عن طريق (١) الفتح أو الكشف أو التجلى أو المشاهدة أو المحادثة أو المسامرة أو الهتاف أو المناجاة أو عن طريق الخواطر والواردات واللطائف والحقائق والرقائق والدقائق .

وتختلف أوامر وأحكام الاولياء عن اوامر وأحكام الأنبياء فان وحى الانبياء يأتيهم يقظة ومشافهة على لسان سيدنا جبريل عليه السلام الذى هو الروح الامين.

أما الاولياء فيأتيهم على لسان ملك الالهام وهو على أشكال مختلفة : (٢)

١) أما أن يكون فى ذى حس .

---

(١) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها « المؤلف »

(٢) د. عبد الحليم محمود ـ المدرسة الشاذلية وامامها (مقدمة الكتاب) .

٢) أما أيكون معنى يجده الموحى إليه فى نفسه من غير تعلق حس أو خيال ، وقد يكون ذلك مشافهة أو كتابة .

ويقول الإمام الشعرانى(١) : اذا وجدت هذه الورقة المكتوبة فانها تقرأ من كل ناحية على السواء، وانها لا تتغير كلما قلبت من جهة إلى أخرى، ويبقى معناها ثابتا. ولا يعمـــل بهذه الورقة الا إذا وافقت الشريعة » .

والصوفية يركزون على الشريعة فيقولون : لا شريعة بلا حقيقة ولا حقيقة بلا شريعة، وكل من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق وكل من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق .

ويروى الإمام الشعرانى (٢) بعض الاوامر الباطنية الموجهة إلى الاوليـــاء ومنها ما أصدره القطب الروحانى سيدى أحمد البدوى إلى الشيخ قمر الدولة بتحديد إقامته فى « نفيا » لاختلافه مع الشيخ عبد المتعال (عبد العال) بل أن هناك أمرا صدر إلى سيدى أحمدا البدوى (٣) نفسه ليسافر إلى الحجاز ، ويبقى بها مدة طويلة قبل أن يستقر فى مدينة طنطا، والتى تعتبر بحق بفضل انتقال البدوى مركز اشعاع روحى للطرق الصوفية فى الوقت الحاضر ، ومعنى ذلك أن الأقطاب يصدرون أوامرهم إلى الاولياء إما عن طريق الاشارة أو بطريق التوجه أو إلهاما أو بطريق الرؤيا.

وكذلك فإن سيدى أبو العباس المرسى وقبله سيدى أبو الحسن الشاذلى قد صدر اليهما الأمر بالسفر والتوجه إلى الإسكندرية والبقاء فيها ونشر الطريقة الشاذلية التى تعتبر من أكثر الطرق الصوفية فى الوقت الحاضر شيوعا والمعروف أن الشاذلى رضى الله عنه كان قطبا فى زمانه وأن الاوامر الصادرة له كانت من الرسول

---

(١) الشعرانى ـ الطبقات الكبرى ص ١٦١

(٢) الشبلنجى ـ نور الابصار ص٢٢٨ الطائر ١٢٨٠ هـ

صلى الله عليه وسلم بطريقة التوجه أو إلهاما أو عن طريق الرؤيا(١).

ولقد صدرت وتصدر أوامر إلى الأولياء في كل دهر وحين، فمثلا سيدى عبد الرحيم القنائي الذى دعاه ابن أخته سيدى أحمد البدوى للبقاء في طنطا فقال له: « لقد جاءنى أمر بالسفر إلى قنا والاقامة بها » وكذا كان سيدى « أبو الحجاج الاقصرى » جاء من العراق إلى الاقصر وأقام بها تلبية لأمر جاءه إلهاما، وكانت توجد بالاقصر كاهنة تدعى درزة تبشر بدعوتها بالصعيد وما أن شاهدته حتى أسلمت، وأسلم معها قوم كثير، وكذلك سيدى حسنين الحصافى بدمنهور، فقد طاف بشتى البلاد واستقر مقامه بدمنهور، بعد أن جاءه أمر علوى بالاستقرار بمنطقة الجبانه البعيدة عن العمران فجعلها مقرا له ومقاما، وأصبحت الآن بفضل تواجده بها سوقا صناعيا وتجاريا وبها جامعه وضريحه.

والاوامر تصدر للاولياء نافذة لا إعتراض عليها، ولا رجوع فيها، ويقول صاحب الكبريت الاحمر (٢) أن القاضى في حكم الظاهر يستخدم الحس ولذلك يخطىء ويصيب، أما الصوفية فيقولون: « لقد حفظنا الله من الغلط فلم يحمل الحس عندنا جملة واحدة»، ومعنى ذلك أن أجهزة الاستقبال والارسال بين أصحاب الحق ليست بالعبارات فحسب وإنما المدار على القلب « ما كذب الفؤاد ما رأى » ووسيلة القلب اللطائف.

والاحكام والاوامر التى تصدر إلى القطب بأمر إلهى أو بواسطة القطب الواحد سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بالإلهام أو عن طريق

---

(٢) راجع أبو الحسن الشاذلى — د. عبد الحليم محمود.

(١) الشعرانى — الكبريت الاحمر ص ١٢ هامش اليواقيت والجواهر مطبعة عبد الحميد حنفى سنة ١٣٦٩ هـ.

المبشرات وهى الرؤيا الصادقة تنشر على الاولياء حسب التسلسل فى المقامات فى الحكومة الباطنية (١).

ويروى لنا اليافعى أن شابا صالحا حضر إلى مكة فالتقى بابى يعقوب السنوسى رضى الله عنه وقال له : « يا أستاذ .. وها هنا أموت وقت الظهر... » فخذ هذا الدينار فاحضرلى بنصفه غذاء، وكفنى بنصفه فلما كان الظهر طاف بالكعبة ثم تباعد ومات » وقال السنوسى « فغسلته ووضعته فى اللحد ، ففتح عينيه . » . فقلت له « أحياة بعد الموت ؟ » فقال : « أنا حى ، وكل محب لله حى .

ويرى الشعرانى مع الشيخ محي الدين بن عربي : « أن وحى الإلهام ليس مثل وحى الكلام والعبارة ، فهناك فرق جوهرى بين وحى الكلام ووحى الالهام ، فالصوفية إنما تحكم لا بظاهر الشرع وحده ، وانما بالالهام الذى يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن ، فيلقن العلم اللدنى وهذا العلم لا يخالف أحـــكام القرآن ، والسنة المحمـــدية .

ويرى صاحب الكبريت الأحمر « أن كلام أهل الطريق إذا نظر فيه مجتهد فى الشريعة الظاهرة ازداد علما إلى علمه ، واطلع على أسرار فى وجوه الاستنباط ، وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده ، ومعنى ذلك أن المنكر للصوفية ، هو إما منافق أو بقلبه مرض ناتج عن الاستعلاء والتكبر والغرور ، فإذا صح قلبه وسلم ذوقه أتبع أهل الطريق وكشف ما كوشفوا به ، وفتح عليه من العلوم ما لا يقدر أن يحصل عليه فى أزمنة متباعدة عن طريق النظر .

ويذكر صاحب الطبقات الكبرى (٢) عن سيدى ابراهيم الدسوقى الامر الالهى الذى صدر اليه : « لقد أمرنى الله أن أخلـــع على جميع الاولياء بيدى وقال له رسول ﷺ : « أنت نقيب عليهم فكنت وأخى عبد القادر (يقصد عبد

(١) الطبقات الكبرى ص ١٥٧ جزء أول .

(٢) الكبريت الاحمر ص ١٠ (ج١ هامش الطبقات الكبرى)

القادر الجيلانى) وابن الرفاعى (أحمد الرفاعى) خلف عبد القادر ..... الخ .

وفى هذه القصة تحديد لمراتب الاولياء كما يراها الدسوقى [1] رضى الله عنه على أساس أنه كان قطب وقته ، ومن المعروف أنه عاش فى زمن سيدى أحمد البدوى وينسب إليه قوله :

أنا القطب شيخ الوقت فى كل حالة ... أنا العبد شيخ الطريقة
سقانى محبوبى بكأس المحبة ... فتهت عن العشاق سكرا بخلوتى
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضرا ... أطوف عليهم كرة بعد كرة
ونادمنى سرا بسر وحكمة ... وأن رسول الله شيخى وقدوتى
وعاهدنى عهدا حفظت لعهده ... وعشت وثيقا صادقا بمحبتى
وحكمنى فى سائر الأرض كلها ... وفى الجن والأشباح والمردية
وفى أرض صينى والشرق كلها ... لاقصى بلاد الله صحت ولايتى
أنا الحر لا أقرا لكل مناظر ... وكل الورى من أمر ربى رعيتى
وكم عالم قد جاءنا وهو منكر ... فصار بفضل الله من أهل خرقتى
وما قلت هذا القول فخرا وإنما ... أتى الاذن كى لا يجهلون طريقتى

والدسوقى يرى أنه هو قطب زمانه بما فتح الله عليه من فتوح ، وما كوشف به من حقائق ، فقد صارت سائر الارض تحت حكمه وجميع الاولياء يتبعونه ومعنى ذلك أنه صاحب الاوامر والنواهى بحكم غوثيته ، وإنه حصل على هذا المقام الرفيع بأمر إلهى ، وأعلمه الله تعالى أن شيخه وقدوته هو رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على أن مقامه هو أعلى مقام ، لايدانيه الا إمام سيد المرسلين الممد بالأنوار جميع الأقطاب ، وأنه صاحب الامر والنهى فى وقته .

---

(١) راجع — القسم الثانى — الفصل الاول الكتاب

وإذا تساءلنا عن سبب فتشه لهذا السر الربانى فان الاجابه كما يراها الصوفية على هذا التساؤل هو أن الدسوقى قد أمر بالكلام أو أن هذا الكلام صدر عن طريق التوجه والإلهام أو لأحد مريديه ولايمكن أن يكون المقصود به الافتخار لان ذلك ليس من أخلاق الصوفية .

ويرى الصوفية أن طاعة الأولياء واجبة وأوامر كبار العارفين الذين هم أولوا الامر المذكورين فى الآية الكريمة : « يأيها الذى آمنوا أطيعو الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم(١)» فهم أصحاب الأمر الواجب العمل به وتنفيذه .

ويشير الى ذلك الحكيم الترمذى(٢) عندما يبين أن العلم الباطنى ، حاكم على العلم الظاهر ، محكوم له بالصدق والصواب ، لأن علماء الظاهر يسيرون وفق نور العقل ، فى ميدان العلم الظاهر ، أما أهل الباطن فهم يسيرون بنور الله فيدركون الظاهر والباطن ، وهم بالنسبة للفقهاء أهل القياس حقا وصدقا .

لذلك فقد قسم الصوفية الناس الى ثلاث منازل(٣).

الأولياء : وهم الذين باطنهم أفضل من ظاهرهم .

العلماء : الذين سرهم وعلانيتهم سواء .

الجهال : الذين علانيتهم تخالف أسرارهم لا ينتصفون من أنفسهم ويطلبون الإنصاف من غيرهم .

وهؤلاء الصوفية أبدا غير راضين عن أنفسهم ، أوعن ظاهرهم وباطنهم ،

---

(١) سورة النساء : آية ٥٩

(٢) د. عبد الفتاح بركة ــ الحكيم الترمذى ــ جـ٢ ص ٢٩٦/٢٨٢

(٣) السلمى ــ طبقات الصوفية ص١١٢ (مطابع الشعب ١٣٨٠هـ)

وفي هذه الرحلة الإشراقية السرمدية ، التي يعبرون فيها تلالا ، ووديانا ، وبحارا ، ويصارعون فيها أمواجا ، ويدافعون أشرارا ، الى أن يصلوا الى شط الأمان، فهذه الرحلة في واقع الامر رحلة الصراع بين الخير والشر ، رحلة تأديب النفس وتربيتها ومخالفة حظوظها ، لذلك فهم أبدا في جهاد وسعي للوصول الى مراتب أسمى ، ودرجات أعلى ، ويعبر أبو الحسن النوري رضي الله عنه عن هذه الرحلة عندما ينصح أصحابه فيقول :

« أنت في سجن ما تبعت مرادك ، وشهواتك ، فإذا فوضت وسلمت ... استرحت » .

فالصراع بين الخير والشر ، بين طاعة الله ، وبين طاعة النفس موجود ، وعلى الصوفي أن يخالف نفسه ، ويجاهدها للوصول الى مرتبة أعلى وذلك بعدم الرضا عنها وعدم الاكتفاء بحاله الذي هو فيه . فالترقي إنما نتيجة جهاد والجهاد صراع والطريق وعر ، وغير مأمون ، والرضا عن الحال هلاك الصوفي ، ويقول رويم البغدادي (١) في هذا الصراع :

« لا يزال الصوفية بخير ماتنافروا ، فإذا اصطلحوا هلكوا » .

ومعنى هذا أن الرضا عن الحال هو الهلاك المحقق . وقد ورد حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم(٢) : « اختلاف أمتي رحمة ، وحديث نبوي آخر — روى عن أبي نعيم في المعرفة(٣) : « اختضبوا وافرقوا وخالفوا اليهود » (٤) .

لذلك فان أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله في حياته وبعد

---

(١) السلمي — طبقات الصوفية ص ٤١

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير وذكر إيضا في الحجة المقدسي والبيهقي في الرسالة بغير سند وامام الحرمين والقاضي حسين وأورده الحكيم الترمذي .

(٣) المرجع السابق

(٤) ذكره ابن عدي في الكامل عن ابن عمر والسيوطي في الجامع الصغير

إنتقاله والتي ترد الهاما ورؤية أو بطريق الكشف والفتح والتجلي عن الله سبحانه وتعالى إنمـــا هي مطاعة لا تقبل جدلا ولا اعتراضا ، ولكن لا بد أن تكون موافقة الشريعة ، فلا يعقل أن يصدر الله أمرا أو حكما لولي من الأولياء يخالف شريعته الظاهرة التي وردت بلسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما لا يعقل أن يأتي الرسول لولي من الأولياء مناما ويأمره بمـــا يخالف شريعته الظاهرة ، ويقـال ان المخالفات والمخادعات إنمـا هي من تلبيس الشيطان ، إذ تحدث أحيانا لأرباب التلوين ، أو أصحـاب الولايـات الصغيرة أو المريدين في أول الطـريق بقصد إيقاع الشيطان لهم في حبائل الغواية ، أما أهل التمكين وأصحاب المقامات الرفيعة فانهم أهل المعـرفة والراسخون في العلم فـلا يطلـع على أسرارهم شيطان فيفسدها ولا مـلاك فيـكتبها وإنما حقائقهم وأسرارهم من الله ولله وبالله وفي الله .

الفصل الرابع

مجالس الحكومة الباطنية

يروى بعض الصوفية ان الأولياء يجتمعون فى ليلة الجمعة التى تكون فيها الأرواح مشرقة وتنتظر هذا اللقاء دون إهتمام بعنصر الوقت أو الزمن بالمعنى الظاهرى ، فلا حاجة عندهم للزمن ، لأن له معنى آخر غير الزمن الحسى يسمونه الوقت .

والوقت عند أهل الطريق حادث متوهم معلق حصوله على حدث متحقق ، بمعنى أن حال الصوفى هو وقته فاذا كان مسرورا فوقته السرور ، واذا كان حزينا فوقته الحزن ، ويرى صاحب الرسالة القشيرية أن الصوفى ابن وقته[1] .

ويقول على الدقاق رحمه الله[2] : الوقت ما أنت فيه ، ان كنت بالدنيا ، فوقتك بالدنيا وإن كنت بالعقبى ، ولذلك يجب على السالك أن ينخلع عن الزمن التحكمى فلا نفهم الوقت عن طريق تقسيم الزمن الى أيام وشهور ودقائق ولحظات وإنما وقت الصوفى لامعنى فيه للماضى والحاضر والمستقبل .

ونحن اذ نربط بين اجتماع الأولياء فى مجالسهم وبين الوقت ندرك من الوهلة الأولى أن فكرة الزمن وفكرة المكان الحسيين ، كما نفهمها بالمعنى الظاهرى غير موجودتين عند أهل الباطن ، ذلك لأن الزمن زمن وجودى لا نهائى من ناحية كما أنه زمن شعورى وجدانى من ناحية اخرى.

---

(١) الامام أبو القاسم القشيرى ــ الرسالة القشيرية ص ١١٨ ــ تحقيق د. عبد الحليم محمود الجزء الأول .

(٢) المرجع السابق ١٨٨.

فالوقت عندهم صور الماضى والمستقبل والحـــاضر ومن ثم فإنّ اجتماعهم إنما يتم دون التفات الى الزمن المادى التحكمى ، لأن اجسامهم الأثيرية هى التى تجتمع وليس اجسامهم الحسية الظاهرية ـ لذلك فإن الاجتماع يجمع بين الأولياء الأحياء والأموات .

ويرأس هذا المجلس[1] قطب وقته الزمانى ، وغالبا ما يحضر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاجتماع ، يستشهره القطب الغوث فيا يعن له من مسائل الدين [2].

ويتم الاجتماع فى دقة ونظام تامين ويتبع التسلسل الرئاسى فى عرض المسائل ومناقشتها .

وهذه الاجتماعات تتآلف فيها الأرواح ، وتتعارف ، بل وتتخاصم أحيانا ، تحمسا للدين ومحافظة على الشريعة وذلك عندما تفسر احكام الشريعة بل ويختلف التطبيق عند ولى عن ولى آخر وهنا يحدث الخلاف الظاهرى، والواقع أن لاخلاف بينهم على الحقيقة ذلك لأن كلا منهم يفسر ويطبق حسب المقـــام الذى هو فيه وجميع المقامات موصلة للحق .

ويروى لنا صاحب [3] روض الرياحين عن اجتماعات الاولياء بالكعبة الشريفة وطوافهم بالبيت الشريف على صـــور شتى وقائع كثيرة ـــ ويقـــول أنه لو قال شيئاً عن هذه الاجتماعات لصغرت عقول شتى عن فهمها، ذلك لأنهم غير مؤمنين ومن ثم لا يعرفون غير الوسائل الحسية والمـــادية التى تبصر بالعين ،

---

(١) الشعرانى ـ الطبقات الكبرى ـ ص : ٧٨ الى ٩٣

(٢) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف ـ الابدال :

(٣) اليافعى اليمنى ـ روض الرياحين ص ١١٤

وتنطق باللسان ، وتسمع بالأذن ، وأما غيرها فلا تعد في تصويرهم موجودة على الإطلاق .

ويرى أنه ما من ولى لله تعالى صحت ولايته إلا وهو يحضر هذه البلدة (مكة) في كل ليلة جمعة لا يتأخر عنها ومعنى ذلك أن الأولياء يجتمعون بعضهم مع بعض وتتآلف أرواحهم وتتجاذب وتتحادث لأنهم جميعا يسيرون على طريق الله ، فالرابطة هنا من الله وبالله ، ولله ، وفي الله .

ويحدثنا اليافعى (١) رحمه الله عن رجل يقال له مالك بن القاسم الجبلي وقد رآه بالبيت وبيده آثار أكل ، فقال له ، أكنت تأكل ؟ فقال : « استغفر الله فإني منذ أسبوع لم آكل ، ولكني أطعمت والدتى . . . وأسرعت ألحق صلاة الفجر » وكان بينه وبين المكان الذى حضر منه تسعمائة فرسخ ، يقطعها الإنسان في ثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوما .

ويقول أن كثيرا من الصالحين يشاهدون حول الكعبة الأنبياء والملائكة ، والأولياء عليهم السلام وأكثر ما يرون يوم الجمعة ، وكذلك ليلة الإثنين ، والخميس .

ولكل واحد من الأنبياء والأولياء مكان معين يجلس فيه حول الكعبة ، ويجلس معه اتباعه من أهله ، وصحابته ، ويجتمع حول سيدنا محمد ﷺ ، خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى . ولا يجتمع على سائر الأنبياء مثل هذا العدد من الخلق .

ويبين لنا اليافعى إجتماع الأولياء بالأنبياء عليهم السلام فيقول : ـ « ويتخذ رسول الله ﷺ مكانه عند الركن اليماني ، بالبيت الشريف مع أهل بيته وأصحابه

(١) المرجع السابق ـ ص ص ١١٤ وما بعدها

وأولياء أمته ، كما يرى سيدنا إبراهيم عليه السلام وأولاده قد إجتمعوا عند باب الكعبة ، وموسى عليه السلام وجماعته من الأنبياء بين الركنين اليمانيين وعيسى عليه السلام وجماعته في جهة الحجر ، وكما سبق الإشارة فان كل بدل(١) من الأولياء يحكم على قلب أحد الأنبياء السبعة ، ومعنى ذلك إجتماع كل بدل من الأولياء ، مع النبي الذى هو على قلبه (٢) .

وإذا دلت هذه الاجتماعات على شيء فإنما تدل على أن الولى الصادق يعيش فى دنياه حياتين حياة الظاهر وهى الواجبة تكليفا وشرعا وحياة الباطن الالهامية والتى يتصرف فيها بالقول والفعل حسب الحقائق المبلغة من رسول الله ﷺ ، مباشرة أو عن طريق قطب وقته والرسول ﷺ إذ يجتمع بهم صحوا أو مناما بالكعبة الشريفة ، فذلك لمناقشة أمور المسلمين وتعليمه وتلقى الأسرار والاستزادة من المعارف كما أن هذه الاجتماعات بمثابه الأجابة على أسئلة الأولياء وإستفساراتهم فى الدنيا والآخرة وهذا ما يلاحظ من اقوال الأولياء .

وعلينا أن نقف هنا وقفة قصيرة لنرى هذا الإجتماع الروحانى الذى يجتمع فيه الأنبياء والأولياء بأجسامهم اللطيفة دون إعتداد بالزمان السابق واللاحق لحياتهم الدنيوية ، فنجد أن كثيراً من الاولياء قد عبروا عن ذلك فى أقوالهم وقد وقف أحد أئمة الصوفية (٣) مدافعا عن الإجتماع بالرسول ﷺ قائلا (وما أنكر عليهم ذكرهم إنهم يرون ﷺ يقظة وهذا لا إنكار فيه وقد نص على مكانه وقوعه، من أئمة الشرع مثل الغزالى واليافعى وفى كلام القرطبى أشارة إليه) .

ويدافع الدكتور عبد الحليم محمود عن إجتماع الصوفيه بالملائكة بقوله ،

---

(١) روض الرياحين ص ١١٤ وما بعدها .

(٢) السيوطى — تأييد الحقيقة العلية ص ٨٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٨ .

« ولأن حياة جهاد في الله كهذه ، لا بد لها من ثمار هي من الكرامات ومن شفافية النفس ومن القرب من الله ، ومن أنه سبحانه يفيض عليه من رحمته »

ويمثل لذلك بأبي الحسن الشاذلي الذى روى عنه الشيخ الحبيبى — من أن الملائكة كانت تحف بأبي الحسن ، بعضها يسأله فيجيبه ، وبعضها يسير معه متبركاً .

وليس بغريب أن تأتى أرواح الأولياء زرافات ووحدانا كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود (١) — تحف بأبي الحسن وتتبرك به .

ويقول أن الملائكة تتنزل على كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا بشرطين : —

١) الإيمـــان . ٢) الاستقامة .

ويروى لنا الإمام الغزالى فى الأحياء عن خبرة وتجربة عما يشاهده المريد الصادق فى أول طريقه إلى الله فيقول :

« وفى أول الطريق تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد » .

ويروى لنا الشعرانى عن سيدى عبد الرحيم القنائى إنه أثناء الحلقة التى كان يعقدها نزل شبح من الجو لا يدرى الحاضرون ما هو فاطرق الشيخ ساعة ثم إرتفع الشبح إلى السماء فسألوه عنه فقال : « هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع ، وكان رضى الله عنه إذا سأله إنسان فى مسألة يقول له أمهلنى حتى أستأذن فيه جبريل وهو من الملائكة ثم يرد على سؤاله بأن يفعل كذا أو لا يفعل كذا ، وفى تصورنا أن جبريل هذا غير جبريل عليه السلام وهو الروح الأمين الذى يتنزل على الأنبياء عليهم السلام بالوحى والرسالة ، وشتان بين وحى الانبياء ووحى الاولياء الذى هو وحى الإلهام ، ومن الروايات الكثيرة عن هذه المجالس (٢) هذه القصة التى تروى عن أحمد البدوى رضى الله عنه فى الطبقات الكبرى للشعرانى رحمه الله : —

---

(١) د. عبد الحليم محمود — ابو الحسن الشاذلى ص ٣٠ (اعلام العرب ٧٢)

(٢) د. عبد الحليم محمود — أحمد البدوى .

«أنه أراد السيد الكبير أحمد البدوى (المتوفى ٦٧٥هـ) لقاء الجيلانى المتوفى (٥٩٠هـ) والرفاعى (للمتوفى ٥٧٠ هـ) وذلك فى رؤيا صادقة وكأنها أمر الهى.. فيطلب من أخيه الأكبر الشريف الحسن الذى رفض سفره واراد أن يمنعه وقال له: أعلم يأخى أحمد أن كل بلاد لها رجال ولهؤلاء الرجال قطب يحكم عليهم بمشيئة الله تعالى، واذا دخل بلادهم أحد من الرجال أرباب الأحوال (١) أمرهم قطبهم بالذهاب اليه والاجتماع عليه فإن كانوا أقوى منه أرجعوه، وان لم يتأدب معهم قتلوه وسلبوه، وإن كان أقوى منهم بددهم وفرق شملهم يمينا وشمالا.. وأنى أخاف عليك من بلاد العراق فإنها برزخ الأولياء الصالحين». ومعنى ذلك أن البدوى كان فى مقام لا يسمح له فى رأى أخيه بمنازلة اهل التمكين لانه ما زال مريداً مهتدئا لا يقوى على فحول الأولياء أصحاب المقامات العليا ولا يستطيع منازلتهم.

ويروى لنا الشعرانى (٢) أن الشيخ محمد السروى رضى الله عنه تخلف عن حضور مولد سيدى أحمد البدوى، فعاتبه سيدى أحمد البدوى الماما قائلا: —

«موضع يحضر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام والأولياء رضى الله عنهم ولا تحضره». فخرج الشيخ محمد الى المولد فوجد الناس راجعين وفاته الاجتماع فكان يلبس ثيابهم ويمر بها على وجهه.

والذى يعنينا فى هــــذه القصة أن هناك أختصاماً بين الأولياء وأن أرواح الأولياء تحضر هــــذه الجلسات وتدلى فيها برأيها وحكمها تأييداً لقوله تعالى: «وما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون (٣)».

(١) أرباب الاحوال هم أصحاب الولايات الناقصة أما أرباب الاعمال فهم أصحاب المقامات العليا ويقال عنهم أصحاب التمكين فى مقابل أصحاب التلوين. راجع كتاب المؤلف الفاظ الصوفية ومعانيها.

(٢) الطبقات الكبرى — الجزء الاول ص ١٦١ ،١٦٩

(٣) سورة ص الآية رقم ٦٩

وهناك ادلة كثيرة على الاختصام بين الأولياء وهى الجلسات التى تمت بين الملائكة فى شأن إستخلاف سيدنا آدم وذريته فى الأرض ، ومن محاولة أبليس غوايه آدم وبنيه من قوله تعالى : «بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين [1] ».

فالشاهد أنه يقع بين الأولياء الأحياء والأموات إختلاف وتخاصم بل ومحاكمات أيضا يعقد لها جلسات . . والارواح اللطيفة يقع بينها وبين غيرها من الاحياء تعاون وتناصر ولاسيما الارواح المجهرة ، وقد قيل أن روح أبى بكر الصديق رضى الله عنه تهزم جيشا بمفردها .

ويروى لنا الشعرانى[2] كثيرا من الاحكام الصادرة ضد الاولياء فمثلا سيدى الإنبابى المدفون بإمبابه نزعت ولايته لتطاوله على سيدى أحمد البدوى .

وقصة سيدى أحمد البدوى[3] مع الشيخ دقيق العيد الذى كان من كبار العلماء فى عصره ، اذا انكر على البدوى أن يكون من الاولياء فوجد نفسه فى جزيرة مهجورة ولم يرجع إلا بعد أن طلب العفو من البدوى فعفا عنه ورجع لبيته .

وقصة صاحب الإيوان[4] العظيم بطنطا المسمى بوجه القمر ، وكان واليا عظيما فثار عنده الاغترار بنفسه وتطاول على مقام سيدى أحمد البدوى ولم يسلم الأمر لقدرة الله تعالى فسلبت ولايته وموضعه الآن بطنطا وكما يقول الشعرانى «أصبح ضريحه مأوى الكلاب ليس فيه رائحة صلاح أو مدد» . ويقول الشعرانى

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٢٥

(٢) الطبقات الكبرى ص١٦٠ جزء أول

(٣) المرجع السابق ص١٦١

(٤) الطبقات الكبرى ص ١٦ وما بعدها ج١

وكان الخلفاء قد انتصروا له وبنوا لزاويته مئذنة عظيمة وانفقوا عليها أموالا ... الا أن سيدي عبد العال رفض المأذنة فبارت حتى وقتنا هذا (١).

ويتضح لنا من كلام أئمة الصوفية أن اجتماع الاولياء واتصالهم أمر ضروري بل تتخلله أوامر ونواه فهو لقاء الاحباب بالاحباب يناقشون فيه أمور الدين ويتعاونون على الامر بالمعروف والإستشارة والرأى فى أمـــور الدنيا والدين والإستزادة من المعارف والاسرار ويتخذون قرارات لصالح الاسلام والمسلمين وفى ذلك يرى الشيخ الاكبر محى الدين بن عربى أنه لولا العادة والعرف ولولا حقائق العوالم ، وقيام هـــذا العالم لكان العارف فى غير حاجة الى المكاتبات والمخاطبات والمراسلات حيث أنه مطلع على الحقائق ، متمكن من الالتقاء جسما بغيره من الاولياء ، قادر على الاجتماع رسما بالصالحين وانمـــا اجتماع الاولياء بالاجساد إنما مرده العادة والتقاليد والعرف فقط ، وإنه يمكن بغير الاجساد الاتصال ، الا أن صاحب الحال من الاولياء قد اعتاد على الالتقاء بالاحباب والدعاء لهم تطبيقا للشريعة .

ويروى اليافعى رضى الله عنه (٢) عن أحد الاولياء أنه رأى عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم تسعة من الاولياء فتبعهم ، فالتفت اليه احـــدهم وقال له : الى أين تمر ؟ فقال : اسير معكم لحبى لكم ، فإنى سمعت ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال . «المرء مع من احب» فقال له احدهم : إنك لن تقدر على المسير الى الموضع الذى تقصده فانه لايقدر عليه إلا من بلغ عمره أربعين سنة ، فقال آخر: دعه لعل الله يرزقه ، قال : فسرت معهم والأرض تطوى من تحتنا طيا ، إلى أن

---

(١) فى البحث الميدانى الذى أجراه المؤلف على منطقه طنطا وضواحيها اتضح أنه لايوجد أثر لصاحب الايوان بالمنطقة .

(٢) روض الرياحين — ص ٩٧ .

انتهينا الى مدينة مبنية بالذهب والفضه ، وأشجارهـا متمانقة ، وانهارها رائقة ، وفواكهها كثيرة، فدخلنا وأكلنا من ثمارها وأخذت معي ثلاث تفاحات، فسألتهم عند الإنصراف عن هذه المدينة؟ فقالوا : هذه مدينة الاولياء ، اذا أرادوا التنزه ظهرت لهم أينما كانوا ، وما دخلها أحد قبل سن الاربعين غيرك .

ـ ثم قال: ولما رجعت أهديت لأحد اصحابي تفاحة (يقصد لولي من الاولياء) فقذفها . ولامني اصحابي وقالوا : « أعد ما أعطيت الى مكانه ، وكنت كلما جعت أكلت من التفاحة وهي لا تتغير، ثم رجعت الى أهلي وبقيت معي تفاحة واحدة وهي التي أدخرتها لنفسي . فعانقتني أختي وقالت: ما الذي جئت به لنا ؟ فقلت لها: « وما الذي آتيكم به وأنا بعيد عن الدنيا ؟ فقالت : أين التفاحة ؟ فقلت : أي تفاحة ؟ قالت : يامسكين .... والله لقد أدخلوني هذه المدينة وانا بنت عشرين ، وأما أنت فلم ترها إلا بعد أن [illegible] . فقلت : ولكن [illegible] الكبير منهم قال لي لم يدخل هذه المدينة من لم يبلغ الاربعين غيرك . فقالت: نعم. ولكن من المريدين أما المرادون (١) فيدخلونها ولا يرضون بها . ومتى شئت أريكها ، فقلت : قد شئت .... فقالت يامدينه: إحضري،قال : فوالله لقد رأيت المدينة بعينها حتى وترف علينا، فقالت : أين تفاحك ؟ قـــال : فتساقط علي من التفاح ما علاني. فضحكت ثم قالت : من عنده من الملك هذا ما يحتاج الى تفاحك؟ قال: فاستحقرت والله نفسي عند ذلك، وما كنت أعلم أن أختي منهم رضي الله تعالى عنها وعنهم (٢) .

---

(١) [illegible]

(٢) روض الرياحين ص ٩٤

الفصل الخامس

محـــاكم الأولياء

يحـــدث أحيانا تخاصم بين فريقين من الأولياء ، وتحضر أرواح الصالحين ليكونوا طرفا ثالثا فى الخصومة بمثابة قضاة للفصل بين المتنازعين.

والأرواح تعرف بعضها بعضا بل وتعرف درجة ومقام كل منهـا ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وماتنافر منها إختلف .(١) .

لذلك فان الأولياء الذين هم على قـدم واحـــد يعرفون بعضهم بعضا ، ويهرعون لمساندة إخوانهم و يعرفون أيضا درجة ومقام خصومهم إذا ماتقابلوا معهم توجها أو الهـاما أو بطريق الرؤيا ، كما نجد ذلك فى قصـة فاطمة بنت برى التى كانت من أصحاب الأحوال و كانت ذات فتنة وجمـــال ، تستخدم فتنتها فى الإيقاع بالأولياء لإمتحان حالهم وبذلك تتمكن من سلب أحـــوالهم ، كانت وقبيلتها تسكن بلدة أم عبيدة بالعراق فأرسل لهـا سيدى عبد القادر الجيـــلانى وسيدى الرفاعى أحمد البدوى المعاصر لهـا توجها أو إلهاما (٢) وذلك لتأديبها وقام بالمهمة عندما تظاهر بأنه بدوى أخرس أطرش وإستطاع بذلك أن ينجو من حبالها ثم تصدت له عندما أكتشفت أنه من الأولياء، ولكنه إستعان بأصحابه وإستعانت بأصحابها . . ولما رأى أعوان بنت برى أعوان سيدى أحمد واقتنعوا بأن الحق فى جانبهم لم يسعهم إلا التسليم لأعوان سيدى أحمد ويقول العارف بالله

---

(١) ورد هذا الحديث فى الجامع الصغير ــ للسيوطى.

(٢) الشعرانى ــ الطبقات الكبرى ــ جـ ١ ص ١٥٨ ــــ ١٦٠ .

الشيخ أحمد حجاب (١) وأخذت فاطمة بنت برى تطلب العفو من سيدي أحمد وتذكره بقول سيدنا على بن أبي طالب : —

«عجبت لمن يشترى العبد بماله ولايشترى الحر باحسانه وعفوه، وبامتنانه أى بالإحسان اليه ..... واذا بالأخرس الأطرش ينطق ويقول لها عليا عليها شروط العفو : « بشرط ألا تعودى للتعرض للرجال من أرباب الاحوال وأن تميشى برأسمالك من الإيمان» .

وهناك عديد من الروايات عن اجتماع كبار الأولياء لنظر الخصومة التى تنشأ مع بعض الأولياء ، ومنها مقابلة سيدنا الخضر عليه السلام وحضوره لفض الخصومات .

كما أن السالك عندما يصعد من مقام الى مقام ومن درجة الى درجة فى سلم الولاية الروحية ، عليه أن يحافظ على شروط المقـــام ويكتم الأسرار التى عاينها وشاهدها إلا اذا أمر بنهى ذلك وفى هذا يقول ابن عربى - فى التجليات - مخاطبا الولى «وإنك ستجول فى ميدان الدعاوى، وان كنت على حق فيها وقائما على قدم وصدق ، فان لطف بك حجب عنك أسرار الكتم ، فلم تعرفها فمشت سعيداً بما عرفت ومت كذلك وإن خذلك أطلعك أسرار الكتم، ولم تعط مقامه فبحت فحرمت أثناء الامانة وخلعت عليك خلع الخيانة فيقال ما أكفره ، وما أجهله وحقا ماقيل ويقينا ما لسب ، أتيت بالعيين فى موطن الإيمان فكفروك (٢) .

«ألا فاسقنى خمرا وقل هى الخمر ⁂ ولاتسقنى سرا وإن أمكن الجهر

ومن هذا يتضح أن للأولياء محاكم خاصة بهم ، يختصموا اليها وغرامات

---

(١) الطلة والاعتبار ص١٢٣ —١٢٥

(٢) رسائل ابن العربى — التجليات — دار احياء التراث العربى .

ودعاوى وعقوبات وجزاءات وإن اختلفت عن صورها في الحكومة المدنية، فالولى يمكن أن يرقى درجات باجتهاده، كما يمكن أن ينتكس لإفشائه سرا، أو التصرف في أمانة كان عليه تأديتها.

وهذا ما حدث لأبي يزيد البسطامي عندما أباح ما عاينه، وما كاشفه من الغيبيات والأسرار، فنفى في لحظة سكر، ولم ير غير الله فقال: «أنا الله» واستحق بذلك الشهادة، فلم يعد لوجوده بالحياة الدنيا معنى، ويقول صاحب التصوف الاشراقى السهروردى المقتول في ذلك (١):

بالسران باحوا تباح دماؤهم .·. وكذا دماء العاشقين تباح

والغريب أن السهروردى استشهد أيضا بسبب إباحته لسر إلهى، وكثير من الصوفية من غير أهل التمكين أى من أصحاب الاحـــوال وأرباب التلوين أفشوا أسرارا كان عليهم كتمانها وصدرت عليهم أحكاما بالإنتكاس أو الشهادة أو النفى أو الحجب إلى الجذب «المجاذيب»، وذلك ناتج عن عـــدم التمكن في الطريق الى الله بسبب نقص العلم أو العرفان الصوفى، وليس معنى ذلك أنهم ضلوا سبيل الله، ولكنهم أخطأوا في لحظة شطح أو حال سكر فحسب(٢).

---

(١) د. محمد على أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية ص ٥ ـ ١٩٦٩ ـ دار الطلبة.

(٢) راجع ألفاظ الصوفية (الشطح والسكر).

الباب الرابع

الولاية فى الحكومة الباطنية

نعرض فى هذا الباب الولاية فى الحكومة الباطنية ، ونركز على المصادر التى تستمد منها وجودها وسلطانها ، فلا شك أن الولى الصادق يحظى بمعارف وأسرار وحقائق ومغيبات لا يحظى بها الشخص العادى ، فالولى ينفرد ببعض المنن والعطايا والهبات وتصبح صفة لازمة له مادام وليا لله ، فهى استمدادات من الله تنير له الطريق فى الدنيا وفى الآخرة ، فيعرف أنه يسير فى طريق الله ، وأن أنوار الله تحف به من كل جانب ، وأنه قريب من الله يكشف له عن بعض أسراره ، ويلهمه بالعلم إلهاما . ومن هذه الإستمدادات التى يحظى بها الولى من الحق تعالى اليقين ، والكرامة، والإصطفاء ، والإلهام، والعلم والكشف، واسم الله الأعظم، والفراسة والتوسم .

كما أن الرؤيا والطاعة والإخلاص تعد من سمات صاحب الولاية. لذلك نستعرض لبعض هذه الاستمدادات والسمات الغالبة فى الفصول المقبلة من هذا الباب لنؤكد أن العارف بالله غير العالم ، وأن المريد الصادق يحظى ببعض المبشرات والفراسات ما دام طائعا لله مخلصا له على الدوام ، محتاجا إليه على الاستمرار ، وهنا يجب التنويه ان الصادق من أصحاب العلم الكسبى يجد أمامه باب الفتح الإلهى، والفيض الربانى ، مفتوحا ، إذا ماتوجه إلى الحق تعالى بقلبه وعقله ونفسه جميعا ، فيرى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الفصل الأول

الرؤيا

أشرنا فى الفصول السابقة إلى أن الأوامر والأحكام ترد على أعضاء الحكومة الباطنية بأمر علوى يصدره القطب الغوث، أو يأتى القطب الزمانى بأمر من سيد المرسلين وهو القطب الممد لجميع الأقطاب محمد ﷺ.

وهذه الأوامر والأحكام ترد على الأولياء فى صورة مبشرات والمبشرات هى المذكورة فى الآية الكريمة: «ألا إن (١) أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»، والرؤيا بهذا المعنى أما إلهاما فى إلهام فى حالة اليقظة وأما رؤيا صادقة فى حال النوم تتكرر للرائى ولا تخالف الشرع وتسمى المبشرات.

والبشرى هى الرؤيا الصالحة التى يراها العبد أو ترى له، ففى النوم تزايل النفس الروح، فلا تستطيع النفس أن تسيطر على الروح وتلقى إليها ماتريد كما فى اليقظة، ويستثنى من ذلك القليل من الناس الذين ماتت نفوسهم وهم فى قبضة الحق لذلك فقد يبشرون يقظة.

ورؤيا المؤمن (٢) هى إذن كلام يكلمه الحق تعالى لعبده ولذلك كانت جزءاً من ستة وأربعين من النبوة، أما الكلام على القلوب فى اليقظة فهو أكثر من ثلث النبوة، وهو عند الصوفية يسمى «الالهامات» أو وحى الإلهام.

---

(١) سورة يونس ص ٦٢ - ٦٤

(٢) د. عبد الفتاح بركة ــ الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ج ٢ ص ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٥٧ مجمع البحوث الاسلامية.

وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه « ما رأيت شيئا وإلا ورأيت الله قبله » ، وقال الفاروق عمر — رضى الله عنه : « ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله معه » ، وروى عن عثمان رضى الله عنه قوله : « ما رأيت شيئا وإلا رأيت بعده » ، ومنهم من قال ما رأيت شيئا إلا رأيت الله عنده ، ومنهم من قال ما رأيت شيئا إلا ... رأيت الله فيه ، ومنهم من قال : « ما رأيت شيئا حين رأيت » ، ومنهم من قال : « ما رأيت شيئا » ، ومنهم من قال : « من رآه ليس شيئا » ، ومن قال : « لا يرى إلا فى شىء » ، ومنهم من قال : « أغلقت عينى ثم فتحتها فارأيت إلا الله تعالى » ، ومنهم من قال : « من رأى نفسه فقد رآه ، ومن عرف نفسه عرف ربه (١) .

وتصدق الرؤيا عندما توافق احكام الشرع وترد فى ساعات آخر الليل وأول النهار ويحكم على صدقها عندما تكون لحكمة .

وعلى هذا فاذا أمر القطب أو نائباه أو الأوتاد أحد أعضاء الحكومة الباطنية بواسطة رؤيا صادقة أن ينتقل إلى مكان أو يفصل شيئا ما أو يتجه إلى سلوك معين هذا الأمر ينفذ على الفور دون أية مناقشة .

أن الأخبار (٢) فى رؤى الأولياء والصالحين مشهورة ومتواترة ووجب القول بها والإيمان والتسليم والتصديق لها .

ولقد أجمع الصوفية على أن الله لا يرى فى الدنيا بالأبصار (٣) ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان ، لأن ذلك يعتبر غاية النعم ولو أعطوا فى الدنيا أفضل النعم

---

(١) الشيخ الاكبر محى الدين بن عربى — (رسائل أبن العربى) دار احياء التراث العربى .

(٢) اليافعى اليمنى — روض الرياحين فى حكايات الصالحين ص١٧٢/١٧٣ — مكتبة البابى

(٣) الكلاباذى — التعرف على مذهب أهل التصوف ص ٤٢ — تقديم د. عبدالحليم محمود — الحلبى سنه ١٩٦٠

ما كان هناك فرق بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية، والدنيا هي دار فناء ولا يجوز أن يرى الباقي في الدار الفانية، فلو كان عز وجل يرى في الدنيا لكان الإيمان به ضرورة. ولم نسمع أو نقرأ أن أحداً من الأولياء والصالحين ادعى رؤية الله في الدنيا (١).

ونؤيد ما نقول بالآية الكريمة : « أرني أنظر (٢) إليك » . وكان هذا مطلب موسى عليه السلام من ربه ، وقد علق الله تعالى الرؤية بقوله :

« فإن استقر (٣) مكانه فسوف تراني » ، وهذا معناه إمكان الرؤية بالعقل والسمع، وفي هذا يقول تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال : سبحانك ، تبت إليك وأنا أول المؤمنين (٤) » .

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى الدولة الباطنية، فإننا نرى أن نظامها ومجال عملها هي الرؤيا ، فإن أوامر الشيوخ الذين هم في نفس الوقت أعضاء الحكومة الباطنية تنفذ على مريديهم ، فإذا أمر الشيخ مريده عن طريق رؤية ظاهرة أو باطنة بأن يفعل كذا أو يمتنع كذا، فإن طاعة المريد لشيخه واجبة ، إلا إذا كان ما يأمر به شيخه في غير المبـــاح ، أي أن جميع أوامر وأحكام الشيخ نافذة على مريديه في الأفعال المباحة الشرعية ، ولا يمكن للمريد مخالفتها ذلك أنه كما سبق الأشارة ، أن مجال عمل الحكومة البـاطنية في الرؤيا وبدونها تنقطع الصلة بين المريد وأعضاء الحكومة من الأولياء .

كما أن العلاقات التي تحكم السلوك الظاهري والباطني بين أعضاء الحكومة بعضهم وبعض وبين مريديهم مبنية أساسا على المقامات التي فيها كل منهم أو عن طريق رؤيا النبي ﷺ ويتصرفون وفق ما رأوه معتقدين جازمين أن ذلك هو الحق أو عين اليقين.

---

(١) التعرف ٤٤ :

(٢) سورة الاعراف ١٤٣ :   (٣) الاعراف ١٤٣ :

(٤) الاعراف : ١٤٣

ومن ناحية أخرى فإن الرؤيا الصادقة يؤيدها الواقع فقد قال أحدهم لابن سيرين (١) رضى الله عنه : « رأيته كأن بيدى خاتما أختم أفواه الرجال ، وفروج النساء » ، فقال : « أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان » قال : « صدقت » . وصاحب الختم هنا هو الذى يمنع « فاستخدام المنع للطعام والشراب رمزله بالختم » ولقد تمثل الرائى الصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى .

فالرؤيا .. بهذا المعنى هى علم لأهل الباطن الذين ينظرون بنور (٢) الله فيدركون الظاهر والباطن ، وهذا يدل على أن العلم الباطنى ، حاكم على العلم الظاهرى ، محكوم له بالصدق والصواب .

ويرى أغلب الصوفية أن الرؤيا أدنى درجات الكشف أما أعلى الدرجات فى الكشف فهو الوحى .

الرؤيا والاحلام :

الاحلام ترتبط بالميول الكامنة ، والرغبات الخفية والاحساسات السابقة والانفعالات المكبوتة ، ويقول علماء النفس المحدثون بأنهـا تعبير عن العقل الباطن .

ولكن الرؤيا كما نتناولها تختلف اختلافا بينا عن الحلم ، فهى التى لا تتعلق باحساسات أو ميول أو حوادث سابقة أو مصاحبة وإنما تتعلق فى حقيقة الأمر بحوليات لاحقة ، وأحداث متحققة .

ففى الرؤيا يبرز دور القلب (٣) لأنه هو الذى يرد عليه أنوار الكشف ، فينعكس ذلك فى ساحة الصدر لتراه عين الفؤاد وعين العقل فيتم أدراكه بنفسه .

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى - إحياء علوم الدين ج ٦ ص ٢٩٢ ومابعدها كتاب العجب

(٢) البقلبجى — نور الابصار ص ٢٤٦ .

(٣) المرجع السابق .

فالانسان فى النوم تخرج نفسه عندما تكون خالية من أشغال البدن منصرفة عن دواعى الشهوات، فيسمح لها إن كانت على طهارة أن تسجد تحت العرش ، فاذا عادت لطبيعتها أدت إلى الروح ماشاهدت من رؤى شريفة ، ومعنى ذلك أن إنصراف النفس عن شهواتها ، يهيء لها إستقبال الرؤى الصادقة وذلك لما لها من شفافية ولطافة .

ويدل ذلك على أن المبشرات أو الرؤى الصادقة أو الصالحة ، كما يسميها بعض مشايخ الصوفية (١) أنها ناتج حتمى للمجاهدة الروحية ، وثمرة من ثمرات التصوف فهى أول درجة من درجات الكشف ، لأن عندئذ وحى المؤمن منامه ، فالولى الصادق تسيره مناماته ، فتحل له تساؤلاته ، وتفسر له ما حجب فى ظاهر حياته ، وتمده بالعلم الذى إنغلق بابه ، وتكشف له بعض أسراره ومغيباته .

كيف تتم الرؤيا :

يرى بعض أئمة الصوفية أنه يدون باللوح المحفوظ (٢) جميع ما قدره الله تعالى وقضاه ، والقلب مرآة تنطبع فيها رسوم العلم واللوح مرآة جميع العلوم، والعلوم موجودة فيها ، فاذا أشتغل القلب بشهواته فان حواسه تكون بمثابة حجاب بينه وبين مطالعة اللوح ، فإذا هبت ريح حركت هذا الحجاب ، ورفعته فيتلالأ فى القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف يدوم أحيانا وفى الغالب لايدوم .

فاذا كان القلب متيقظا مشغولا بحواسه ؛ فهو محجوب عن عالم الملكوت أما فى النوم فاذا كان القلب صافيا فى جوهره، ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فوقع فى القلب شيء مما فى اللوح.

---

(١) د. عبد الفتاح بركه ـ الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ج ٢ ص ١٣٥ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٣٤٥

(٢) الامام أبو حامد الغزالى احياء علوم الدين ـ ج ١٦ ص ٢٩٣٥ ومابعدها كتاب الشعب.

والنوم بهذا المعنى مانع الحواس عن العمل ، لكنه ليس مانعا الخيال عن عمله وتحركه ، فما يقع فى القلب فإن الخيال يحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون التخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الذاكرة ؛ فاذا إنتبه الإنسان لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج ذلك إلى المفسر أو المعبر ، ويحتاج المفسر إلى محاكاة أى معنى من المعانى وعليه أن يرجع إلى المعانى المناسبة ، التى تربط بين المتخيل أو الرائى وبين تلك المعانى (١).

فالنفس أذن تستطيع أن تدرك المدركات المجردة التى تكون من جنسها إذا تخلصت من العوائق والشواغل البدنية ، فاذا ضعفت أو مانعت شواغل الانسان الحسية إما بسبب النوم أو كثرة المجاهدة والرياضة النفسية ، فانه قد يصل إلى الاطلاع على أمور غيبية .

أما الأنبياء (٢) فان لهم فى النفس قوة أصيلة تمكنهم من الاتصال فى يسر وسهولة بالعالم العلوى مع اشتغالهم فى نفس الوقت بالبدن، ذلك لأنهم يستطيعون أكتشاف العلم الغيبى فى حالة اليقظة ، لأنهم مكلفون باصلاح النوع فتحصل لهم العلوم من غير تعليم بشرى ، ويلى مرتبة الأنبياء ، مرتبة الأولياء لما لهم من قوى مكتسبة لنفوسهم يطلعون بها على الغيبيات ، وليس هناك شواغل إلا شواغل الحس الظاهر والباطن .

والحكم على صدق الرؤيا يظهر بوضوح عندما تكون الصور الجزئية المشاهدة تناسب الخيال فتطبع فيه وتنتقل هذه الصور من الخيال إلى الحس المشترك فتصبح وكأنها ماثلة للحس الخارجى ، فتدرك كما لو كانت موضوعاً للإدراك الحسى الخارجى ، وفى هذه الحالة تكون الرؤيا قوية غنية عن التعبير .

---

(١) الروح لابن القيم ص ٥٥ ومابعدها .

(٢) المرجع السابق

أما حالة كذب الرؤيا كما فى الاحلام فلا تكون هناك مناسبة بين المعانى الكلية وبين الصور الخيالية الجزئية فتكون هذه الرؤيا من قبيل أضغاث الاحلام.

والرؤيا أو المبشرات عند حكومة الباطن لايمكن حصرها لأنها دليل العمل اليومى، وهى لذلك أقوى عندهم من اليقظة وأفضل منها.

ومن الرؤى ما تفسر نفسها دون تأويل أو رمز وغالبا ما تكون سؤالا من الرائى وجوابا من الرسول ﷺ مثل رؤيا أبى الحسن الشاذلى للرسول ﷺ (١) فقال له: «أدع الله أن يعطنى رحمة العالمين» فقال له: «أنا هو ذاك ياعلى، والولى رحمة فى العالمين».

ونرى أن الرؤيا الصادقة ليست عامة بين الناس، لأنها تحتاج الى صدق المجاهدة، وزهد فى متاع الدنيا، وإقبال على الله وإدبار عن الخلق أجمعين، وأن أعلم العلماء عندما يكشف عنه الغطاء، وتزال له الحجب، فانه يرى ويسمع ويشاهد مالم يخطر بباله، ولاأختلج به ضميره ولا أحس به فؤاده، وما لايستطيع له بغير الرؤيا معرفته، فيعرف أن علمه الكسبى لا ينفعه فى الدنيا والآخرة إذا لم يكن سلوكا وأخلاقا وقربة الى الله.

الرؤيا وعلم الروح الحديث:

إذا عقدنا مقارنة بين ما ذكره أهل الباطن عن الرؤيا وما يراه علماء الروح فى العصر الحديث عن الصور المرئية فى حالة النوم لوجدنا أن هناك إتفاقا تاما فى الرأى إذا قربنا بين المصطلحات التى يستخدمها كل فريق والتى لها نفس دلالات المعانى، ولقد تعمدنا هذه المقارنة لإقناع أصحاب العقل بعدم إمكانهم الوصول الى شىء بدون إستخدام طريق الله وهو الطريق المستقيم الذى به يحظى السالك باليقين والحقيقة.

---

(١) د. عبد الحليم محمود — أبو الحسن الشاذلى — ص ١٥ أعلام العرب ١٢.

فتلا نجد علماء الروح يقررون(١) أن العقل عندما يكون فى حالة اللاشعور أى خلال عملية النوم الطبيعى ، فان الشعور الباطنى أو الشعور الروحى يصعد فوق عتبة الإدراك ، ونظرا لأن العقل غير مقيد فى هذه الحالة فانه يمكن النائم ، فى الرؤيا أو الحلم أو الوهم أو الجولان النومى Somnambulism ، أن يصل إلى حلول للمشكلات أو المعضلات التى يعجز عنها فى حالته الطبيعية .

ويعبر علماء الروح المحدثون عن ظاهرتى الجلاء السمعى Clairaudience والجلاء البصرى Clairvoyonce على أنها القدرة على الرؤيا بشكل يخالف العرف وبدون إستعمال الحواس العادية ، فيخترق البصر الحجب المعتمة ويرى ما وراءها متعديا حدود الفضاء والزمن ، والجلاء السمعى خاص بالتأثرات الصوتية وهو كزميله الجلاء البصرى ولا يتقيد بأبعاد الزمان والمكان .

وكذلك يرى علماء الروح(٢) أيضا أن من يستطيع أن يناجى الموت ساعة من الزمان، لابد وأن يكون طاهر القلب ، سليم العقل، ذا عواطف قدسية فياضة، ويعتقد جيمس فندلاى (٣) أنه يوجد بالأرض قوم تؤهلهم طبيعتهم لأن يكونوا وسطاء صالحين بين عالمنا هذا والعالم الاخر ، ويرى أن الروحانيين هم أقدر الناس على الهيمنة على الوسطاء عن غيرهم .

فعندما تغشى الوسيط حالة الغيبوبة فعنى ذلك أن روحه قد تزحزحت إلى خارج الجسم مؤقتا ، وأنها تقف خارجه وانها عند ذلك تستطيع أن تستخدم حنجرته وأحباله الصوتية ولسانه ، وعضلات حلقه.

---

(١) أحمد فهمى أبو الخير ــ الحياة بعد الموت ص٠ ١ وما بعدها ، ص٧١/٨٠ .

(٢) سير جيمس فندلاى ــ على حافة العالم الاثيرى ص٨٧ ومابعدها ــ ترجمة فهمى أبو الخير .

(٣) المرجع السابق ص ٦٢ ــ ٨٨

وإذا إنتقلنا الى عالم المثال عند الصوفية أو العالم الأثيرى عند علماء الروح فاننا نجد كثيرا من التشابه فى الرأى والتجاريب المختلفة رغم إختـلاف الطريق والغاية والقصد ، فعلماء الصوفية يقولون أنه إذا خلصت نية المريد ، وصح قلبه ، وجسده تجلى الله له ، وأفاض عليه من نعمه ، فينطلق من حضيض ظلمات البعد والغفلات ، الى روض جنات القـرب والمشاهدات ، فاذا إتصل بالله استولت الغيرية على الحشا والأوصال ، وتجسد المثال أمام المثال ، ولا يزال السالك يرقى فى المشاهدات حتى تصفو روحه ، فيرى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بلا ريب ويفوز بالمخاطبة الشريفة(١) .

فعالم المثال هو العالم الأثيرى، أو عالم الأجسام اللطيفة، وهو البرزخ الجامع لعالمى الارواح ، والأجسام الكثيفة ، وهنا يأتى التأثير والتأثر بلغة الروحانيين ، والامـداد والاستمداد بلغة الصوفية ، والأجسام الكثيفة عندهم مركبة ، أما الأرواح فبسيطة ، فلا رابطة بينهما إلا بعالم المثال أو العالم الأثيرى ، ذلك أن عالم المثال هو الذى يحصل به التأثير والامداد والتأثر والإستمداد .

فما هو العالم الأثيرى او عالم المثال اذن :ـ

الجسم اللطيف فى عالم المثال له وجهان ـ روحى وأرضى .

الروحى : مائل الى الملكية وبه يسمو الانسان ويصفو .

الأرضى : بهيمى شهوى يسفل وينزل به الانسان ويخبو .

فالإنسان مركب من عوالم ثلاثة :ـ

١) الأجسام الكثيفة (الجسم المادى أو الطبيعى).

٢) الأجسام اللطيفة (الجسم الأثيرى أو المثال).

٣) الأرواح ـ (الروح ـ الروح الشريف) .

(١) الشيخ ابراهيم حلمى القادرى ـ مدارج الحقيقه ص ١٠ ـ ٣٠

فاذا نام الجسم فان الراقد على الفراش هـــو الجسم الكثيف والذى يسهر فى النوم هو الجسم اللطيف أو الأثيرى أما الروح فهى الرابطة بينهما .

مفارقة الجسم الأثيرى اللطيف .

الجسم اللطيف أو الأثيرى أو المثال، غير مرئى فى اليقظة بالعادة ، مالم يتلطف بالبصر فيراه، وهو غير مقيد بالجسم المادى أو الطبيعى أو الكثيف ، ولا بمادياته ولوازمه فتراه إذا فارق الجسم الكثيف أو المـــادى فى حال النوم ، فانه يطير فى الهواء ، بل ويمشى على الماء ، ويجتمع بالأنبياء، ويقطع المسافة بين الشرق والغرب فى لحظات وغير ذلك من خوارق العادات وهذا ما يسمى عند علماء الروح بالجولان النومى والجلاء السمعى والبصرى .

وكما يقول الصوفية إن الأنبياء والأولياء والصالحين هم الذين يستطيعون ذلك بما من الله عليهم من قدرات خرق العادات ، أما علماء الروح فيقولون أن أصحاب العواطف القدسية ، والقلوب الطاهرة ، يستطيعون أن يلطفوا أجسامهم الكثيفة فتصير مضاهية لأجسامهم اللطيفة ، وبذلك تظهر لهم الرؤى ويتمكنوا من الانتقال والجولان والجلاء البصرى والسمعى، بما يخالف العرف بدون إستعمال الحواس العادية .

فالواضح أن الاتفاق تام بين الصوفية وعلماء الروح المهم فى درجة المعرفة ، وطريقة الوصول ، وأسباب الكشف ، بل وفى الهدف والغاية .

فعلماء الروح يعتبرون عالم المثال أو العالم الأثيرى ، عالما غريبا لا يمكن تفهمه إلا عن طريق بعض التجارب العملية، التى قد تنجح أو لا تنجح فى استحضار بعض أرواح الأموات، ورؤية غير المألوف وهم يبذلون جهدهم للاتصال بالعالم الأثيرى بواسطة وسطاء ، يتمتعون بشفافية عاليـــة، وعواطف قدسية وقلوب طاهرة (١).

(١) راجع كتاب د. رؤوف عبيد — الانسان روح لا جسد .

الا أن أهل الباطن يختلفون عنهم فى الوسيلة والغاية ، ذلك أن كشفهم ووصولهم للعالم الآخر هو ثمرة رياضات ، ومجاهدات ، وطاعات، وقربات. . . فصارت نفوسهم مضاهية لأجسامهم اللطيفة ، وخرجوا من قيود المادة الى عالم الحق ، وهم فى جهادهم الى الله لايتفكرون إلا فى القرب من الله ولا غاية لهم إلا الوصول اليه تعالى .

وإذا كانت غاية علماء الروح كشف أغوار العالم الاثيرى، ومعرفة كنهه ومحتواه ، فان غاية الصوفية هى التقرب الى الله كما سبق الاشارة وهى غاية أسمى وأنبل ، وأن ما يتكشف للصوفى من مشاهدات وفتوحات كثمرة لمجاهداته لا يهتم بها ، بل كثيرا ما يخفيها عن الخلق وذلك لأن هدفه أنبل، وغايته أسمى ، وهو الوصول الى الفناء فى الله ثم البقاء مع الله، وهذه غاية السالكين فى الطريق .

كما أن الوسائل والغايات مختلفة بين الصوفية وعلماء الروح فغايات علماء الروح كشف العالم المجهول أو العالم الاثيرى الذى لا يعرفون عنه شيئا ووسيلتهم فى ذلك إستخدام بعض الأناس الطيبين والهيمنة عليهم كوسطاء بين العالم المادى والعالم الاثيرى . بل واستخدام بعض الادوات المادية للوصول الى ما هو فوق عقلى ومادى .

أما الصوفية فانهم يسيرون حسب الشريعة الغراء متخذين القرآن دستورهم والسنة قانونهم، والرسول صلى الله عليه وسلم قدوتهم وإمامهم ، فهم فى طاعة الله أبدا سائرين، وسيلتهم مجاهدة وتقوى، وأخلاقهم ايثار وتضحية وإنكار اللذات وعلمهم سماوى قرآنى ، يؤدون ذلك فى صبر وخشوع ، ورضا وتواضع باخلاص وتوكل وشكر ، ويتوجون عبادتهم لله بالفقر والزهد والتخليه من الاوصاف المذمومة والتحليه بالاوصاف المحمودة للوصول إلى الكمال الاخلاقى .

وخلاصة القول أنه إذا صدقت بعض تجارب علماء الروح كذبت أكثرها، وإذا نجح بعضهم بمصادقة بعض معالم عالم المثال أو الاثير، فشل أكثرهم فى اجلائه ومعرفته، ذلك أن الهدف ليس رضا الله وإنما إرضاء غرور الإنسان وشيطانه وما دام الامر كذلك فان تجاربهم لهو وعبث لأن طلبهم كمن أراد أن يحيك « ستره على يدى سروجى الخيول ! »

أما طريق أهل الحق فواضح صريح فمن يتقرب الى الله شبرا تقرب إليه ذراعا. وهكذا الى أن يكشف له، ومن يتقى الله يعلمه الله، وعلم الله يحوى السموات والارض وما بينهما .

فلا غرو إذن أن تكون الرؤيا عند الولى سمة من سماته ، وطريق يبصره بالمثالب والمحامد، ويقيه من غوائل الشيطان، وينقذه من براثن الطاغوت، ويعلمه الحق المبين ويرشده الى طريق الله الأمين .

الفصل الثاني

الطـــاعة

الطاعة هي سمة من سمات الولاية الكبرى، وأساس الصدق في الطريق، والطاعة هي إحدى دعائم الحكم في الحكومة الباطنية ، فهي تسير جنبا الى جنب من الرؤيا والاخلاص والتقصير في أحداها تقصير في غيرها ، فما قرره الله تعالى مع الشرائع هو لنفع الناس فلا مخالفة له ، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه ، فاذا لم يعمل به(١) إختل النظام وفسدت الأرض .

فالطاعة مسابقة بين العباد في الظاهر والباطن ، فكما أن بين الناس اختلافا واضحا في الطاعات الظاهرة ، فان بينهم أيضا إختلافا واضحا في الطاعات الباطنية ، فاذا طلب الانسان أعلى الدرجات فعليه أن يجتهد حتى لا يسبقه أحد بطاعة الله ، وقد أمر الله تعالى بالمنافسة والمسابقة في الطاعات، إذ قال تعالى (٢) : «سابقوا الى مغفرة من ربكم» (٣)«وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».

فالطاعة في الحكومة الباطنية منافسة شريفة صادقة للتقرب الى الله الى أن يصل العبد الى الثبات في المرتبة، فتتلاشى مشيئته في مشيئة الله، وعند ذلك تصبح نفسه سلسلة ، سلسة واستسلمت وأصبحت في طاعة القلب وسلطانه ، وأصبح القلب خاشعا لله ، صادقا فيما يرد عليه من أنوار المنة الإلهية(٤) .

---

(١) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ ج٢ ص ٤٢/٤٥ مكتبة الباني .

(٢) سورة الحديد ـ آية ٢١ .

(٣) سورة المطففين ـ آية ٢٦ .

(٤) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ج ٢ ص ١٠٢/١٠٤ مجمع البحوث الاسلامية سنة ١٩٧١ .

فالطاعة هي عـــدم الغفلة عن ذكر الله، وهي في نفس الوقت عـدم المخالفة والاعتراض فهي إيجابية وسلبية في آن واحـد ، بمعنى وجوب طاعة الله ، وسلب الاعتراض من النفس على أحكام الله وسنة رسوله ، فاذا أعترض مسلم على أمور أباحها الشارع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويقول مثلا : لو [١] كان الحكم لى ما أبحتها بل حرمتها وحجرتها » .

مثل هذا الاعتراض هو ترجيح لنظره على نظر الشارع وهو جهـل منه لأنه يغضب إذا فعل الناس المباح من الأفعال ، بل وضلال وسوء أدب مع الله.

فالطاعة واجبة للرسول صلى الله عليه وسلم وهو القطب الصمد لجميع الأقطاب في الحكومة الباطنية ،فهو لا ينطق عن الهوى، ولا ينسى شيئا مما أمره الله بتبليغه ان هو إلا وحي يوحى .

وإذا كانت الطاعة في الفرائض والتكاليف واجبة عند أهل الظاهر والباطن على السواء نظرا لأنه جاء بها الوحي فنأخذ بها بلا ميزان ، لأنها من أمر الرسول ﷺ ومن القرآن الكريم ، الا أن ما جاء بلا واسطة يجب أن نأخذه بميزان ، فالعلم الالهامي — كالرؤيا مثلا — يختلف عن القرآن الكريم والسنة من جهة التسليم به والطاعة له، ذلك لأن هذا العلم يجوز أن يكون اختبارا من الله أو إمتحانا لا يأمن العبد من المكر فيه ، أما ما جاء به الرسول ﷺ فهو مرسل ليبين الناس الطاعات والمحرمات فنحن به آمنون من مكر الله .

لذلك فان أهل الباطن يرون أن طاعة المريدين لشيوخهم واجبة ، لأنهم إنما يأخذون عن الشارع ، لذلك نرى المريدين يبالغون في احترام مشايخهم حتى أنه ليؤثر عن ذى النون المصرى قوله : طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه [٢] .

---

(١) الشعراني — اليواقيت والجواهر — ص ٤٢—٤٥ .

(٢) نيكلسون — التصوف الاسلامى — ترجمة د. أبو العلا عفيفي — ص ١٩

وتفسير قـول ذى النون أن طاعة المريد لشيخه ليس المقصود منه الطمع فى إجلال الشيخ وإنما إحساس الشيخ بأنه مسئولية ملقـاة على عاتقه، فالشيخ إنما هو بمثابة المدرب الذى يعلم الصبي العوم ، لذلك تلزم طاعة الصبي له وإلا غرق وفات وقته إنقاذه ، اما توكل الصبي على الله وهو لا يعرف العوم فهو تواكل بل واهمال من جانبه يورده موارد التهلكة .

لذلك وجب على الصبي أن ينفذ تعاليم مدربه ولو وجدها على غير ما يعرفه ، أو تخالف ما سبق له تعلمه ، فربما ما يرشد اليه أو يلقنه له ، لحكمة يعلمها وهو الخبير بفنون البحر ، المدرك لأغواره وأمواجه .

فاذا ركن الصبي أو السالك الى تعليمات أو أوامر أعلى فإنه ربما يغرق أو لا يحقق طريقه بنجاح ، لأنه لم يتعلم الطريقة المثلى لفن السباحة . ذلك لأنه ربمـا تلقى تعليمات أو أوامر أعلى من مستوى إدراكه أو كان مقصوداً بهـا غـيره ، أو لا تلائم حالته .

ومن(١) ناحية أخرى ينظر الصوفية إلى عمل الطاعات ، بعدم فهم أو بجهل على أنها من أكبر المعاصى، ومن أعظم المخالفات ، فى حين ينظرون إلى عمل المعاصى بجهل على انها اخف فى الضرر من عمـل الطاعات بجهل ، لذلك كان من واجب الشيخ ان يحـذر ويبين ويوضح الطاعات والمباحات والمحرمات ، حتى يجلو الطريق امام المريدين فلا ينزلقوا إلى المحظورات وهم يؤدون الطاعات ، ولذلك يقـول الشيخ شاه الكرمانى «اعلوا الطاعات انزه ما يكون ، وانظروا إليها أقذر ما يكون» .

فالخوف كل الخوف أن يقوم العبد بالطاعات ، ويرضى عن نفسه ويستشعر لذة انه قام بها على اكمل ما يكون ، فيمتلكه الغرور وتكبر نفسه عنده فيسرع إليها الفساد والعطب .

---

(١) السلمى ـ طبقات الصوفية ـ ص ٤٤

والطاعة فى الحكومة الباطنية أساس من أسس البناء السلوك والأخـــلاق الصوفية ، وهى مصدر من مصادر التشريع، وترتبط بالرؤيا والكشف والفتح والمنن والعطايا الألهية بل ترتبط باليقين والصدق والكرامة أو خرق العادة التى يحظى بهـا الأولياء دون سائر الخلق . فليس المهم إذن أن يؤدى المسلم التكاليف والفرائض الشرعية الظاهرة ثم يغتاب الناس ، ويظلم العباد ، وهذه طاعة ظاهرة ليس فيها إخلاص ولا نية ولا صدق ، وإنما على العكس من ذلك هى رياء أو كما يسميه الصوفية بالشرك الخفى ، ذلك لأن الطاعة ليست تظاهراً بالورع وإنما هى إخلاص نابع من القلب وجهاد فى تجنب الرياء ، فالصوفى الذى يجد فى نفسه حبا فى هوى أو شهـــوة أو فى حظ من الحظوظ ، فإنه يعمل على مخالفة نفسه لأنه يعرف أن ذلك طريق الحجب والغرور .

أما إذا صفت نفسه ظاهرا وباطنا ، وكان مطيعا لله مخلصا له فى السراء والضراء، فإنه يكون من أصحاب الحق ومن أهل الله، وبذلك يكون صاحب بصيرة وكشف، يبصر بنور الله ، ويرى بعين الله ، لأنه سائر فى طريقه، متعمد عليه ، ومسقط لتدبيره، فيصبح مع الله كالميت فى يد الغاسل ، ل يرى لنفسه شيئا ، وكل لاما يراه من الله ولله وفى الله ومع الله ، هذا هو الطائع الذى تخلى عن الأوصاف المذمومة ، وتحلى بالأوصاف المحمودة ، فكاشف وعاين وشاهد وراقب ، ففاض الله عليه بنعمه ومننه وفتوحاته وتجلياته وأسراره وأصبح بذلك عبدا ربانيا ، أصطنعه الله لنفسه فهو مراد لله. وهذه هى مرتبة من مراتب الولاية الكبرى .

الفصل الثالث

الإخـــلاص

من صفات الولاية في الحكومة الباطنية الاخلاص :

والإخلاص(١) عندهم أن يكون ظاهر الانسان وباطنه ، وسكونه وحركاته خالصة لله ، فلا يشوبه حظ نفس ولا هوى ولا خلق ولا طمع.

والاخلاص ضد الرياء ونقيضه ، فالمرائي يعمل ليرى ، والمخلص يعمل ليصل ، ويحدد الرفاعي طريقته على أساس الاخلاص والنية ، فيقول لمريديه:

طريقتي دين بلا بدعة ، وهمة بلا كسل ، وعمل بلا رياء ، ونفس بلا شهوة، وقلب عامر بالمحبة » .

فالنية هنا كمبدأ والإخـــلاص كسند ووسيلة ، وهذا هو أساس التشريع الإسلامي الذي جمع بين معاملات مع الله ومعاملات مع الناس .

والارتباط بين النية والإخلاص في الدولة الباطنية واضح بشكل ملحوظ ، فلا إخلاص بلا نية ، ولا نية بلا أخلاص ، فمقدار الإخـــلاص في النية يكون الثواب ويكون الترقي ولا بد في كل عمل يأتيه الانسان بل وكل أمر يتركه من النية والاخلاص معا وذلك لكي يترتب عليه الثواب والأجر من الله على هذا العمل، فالنية والقصد والعزم والارادة والمشيئة ، كل ذلك بمعنى واحد (٢) ويمكن جمع هذا المعنى في الحديث النبوي: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرىء مانوى .. .. فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر اليه» .

---

(١) السلمي — طبقات الصوفية — ص: ١٠٦ ، ١١٠

(٢) د. عبد الفتـــاح بركة —الحكيم الترمذي ج١ ص١٣٢ مجمع البحوث الاسلامية.

فالاخلاص مرتبط منا بعزم وارادة ومشيئة ونية العبد، فاذا صحت جميعا كان الاخلاص نوراً من نور الله استودعه، قلب عبده المؤمن فقطعه به عن غيره، ذلك هو الاخلاص الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وكما أن فى الرؤيا والطاعة درجات كذلك فى الاخلاص درجات، ويتفق الصوفية على أن الاخلاص على ضربين: إخلاص الصادقين، وإخلاص الصديقين، فالأول لطلب الأجر والثواب، وهو يختص به مادون الأولياء، أما إخلاص الصديقين فهو إخلاص الحق مقصوداً به لذاته، لا لشىء غيره ولا لشىء من غيره

فإخلاص الصديقين عند الحكيم الترمذى (١) وأبى الحسن الشاذلى (٢) مرتبة عالية جداً، إذ يسلكون على طريق الاخلاص فى الشريعة إلى منازل القربة، فهم رجال جبلهم الله على حسن العبودية، ومنحهم الله أسرار حضرته، واخلصهم لإخلاص توحيد ربوبيته.

فالاخلاص ظاهر وباطن، فاذا كان الظاهر كالباطن أكتمل معنى الاخلاص وبذلك تنكشف للإنسان الأشياء على حقيقتها — وفى هـذا المعنى يتمثل حجة الإسلام بأمر الرسول ﷺ بوجوب الطهارة عند النوم، وذلك لينام الإنسان طاهراً، وفى النوم يبقى الباطن وتنقطع العلاقة بالظاهر، فذلك معناه أن الرسول يشير إلى طهارة الباطن أيضا عند النوم، بل يعتبرها صلى الله عليه وسلم الأصل فى الطهارة، وهذا يدل على وجوب أن يكون الانسان مخلصا ظاهراً وباطنا، أى أن يكون الانسان مستعدا بقلبه لما يراه من رؤى فى منامه، أما عدم الاخلاص فينتج عنه ظلمة القلب وفساد الرؤيا.

(١) د. عبد الحليم محمود — أبو الحسن الشاذلى ص: ١٤٨ — ١٢٦، ١٢٩ أعلام العرب مجلد ٧٢.

(٢) د. عبد الفتاح بركة — الحكيم الترمذى ج ١ ص: ١٤٢ مجمع البحوث الاسلامية.

فالحكومة الباطنية ترى فى الإخلاص دليل العمل والعبادة ، فاستحضار الله فى الركوع والسجود إخلاص ، وإستحضار الله فى التسبيح والتقديس والتوحيد إخلاص له ، وإستحضار الله فى التحيات والتعظيمات والحمد والشكر إخلاص له، وإذا قلت أشهد ألا إله إلا الله، كأنك لا ترى شيئا فى السموات والأرض إلا ذاته النورانية ، إخلاص له ، فيكون الله دائما معك بالمعونة والنصر أو للعناية والمشاهدة على قدر هذا الاخلاص فى عبادتك .

ويرى بعض الصوفية أن الاخلاص علم متضمن حقيقة الاسلام ، اذ لايكون المسلم مسلما حقا إلا بإخلاص العمل ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله» فبدأ بالاخلاص وإشترطه للاسلام (١) .

ويرى الجنيد (٢) أن الاخلاص ما أريد به الله فى أى عمل كان، وعن رويم: « الاخلاص ارتفاع رؤيتك من الفعل ، أى أن المرء يقبل ويطيع ويخلص فى فعله وطاعته دون أن يرى وجه إخلاصه وطاعته ، فهو بذلك يرتفع عن رؤية الفعل الخالص لله بل ومشاهدة طاعته وبذلك يكون الايثار والحب بعيدين عن تدخل الذات والعقل وهذا منتهى الكمال الانسانى .

وفى هذا يرى أحد الصوفية أن الاخلاص فى العمل هو مالم يعلم به ملك فيكتبه ، وعدو فيفسده ، ولا النفس فتعجب به، وبذلك يكون الاخلاص إفتقاراً من العبد الى الله وحده والرجوع اليه فى كل فعل وأمر . فالاخلاص إذن هو بعد عن الآفات ، وابتعاد عن اللذات ، وكان خالصا مخلصا لله ، وبذلك يستقيم عمل

---

(١) أبو طالب المكى — قوت القلوب — الجزء الاول ص: ٢٦٥ مطبعة الحلبى .

(٢) الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٨ ؛ — راجعه محمود أمين النواوى — مكتبة الكليات الازهرية عام ١٩٦٩ .

العبد ويصعد درجات عليا، لأنه مخلص مطيع يحيا فى رحاب الله، فيكتمل بذلك ويصبح عضوا فى حكومة الله، ووليا من أوليائه فيصفو قلبه ، وتسكن نفسه ، فيكون مايراه حقا وصدقا ، ومايصل اليه حقيقة وحقيقة ، فيلهم بالمكاشفات، ويمن عليه بالمشاهدات وينعم بالتجليات ، وتهبط عليه الرحمات ، وهنا يتضح لنا كيف يستقى الولى عضو الحكومة الباطنية مصادر سلطاته الروحية ، وكما سبق الأشارة فهى الرؤيا والطاعة والاخلاص.

الفصل الرابع

اليقـــين

إن اليقين بالله في كل شيء هو من استمدادات الولاية الواضحة ، وقد ورد لفظ اليقين في القرآن الكريم في قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (1).

ويشرح الشيخ(2) الأكبر هذا المعنى القرآني على أنه صعود الولى إلى المقامات العليا فيقول : « ويرتفع الشك والالتباس ، ويأتي اليقين ، كما قال تعالى بإجلاء هذه الأشياء وهذه هي القيامة الصغرى ضربها لك الحق مثلا في هذا التجلي، سعادة لك وعناية بك أو شقاوة أن ضللت بعدها » .

ويرى صاحب التعرف (3) أن اليقين هو ارتفاع الشك ويقسم اليقين إلى علم اليقين ، وعين اليقين وحق اليقين .

علم اليقين :

هو العلم اللدني أو العلم الإلهي الذي لا ريب فيه ، وهو منحة ربانية يحظى بها الأولياء والصالحون ، والمقربون ، والصديقون ، عن طريق الإلهامات ، والتجليات ، والفتوحات ، والكشوفات ، والمشـــاهدات ، والفيوضات ، والرؤى ، وهذا العلم سر الأسرار يودعه الله قلب عبده المخلص ، ولقد ذكر هذا العلم في القرآن الكريم في آيات عديدة : « عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (4) » .

وهذا العلم وهبي، وسيلته البصيرة، وهو غير العلم الكسبي، الذي وسيلته الإبصار ، والذي يحصل السالك عليه بالمجـــاهدة والنظر ، بطريق العلم والتلقين ، أما العلم

(1) الحجر : 99

(2) رسائل ابن عربي — اصطلاح الصوفية ص 12 .

(3) التعرف — الكلاباذي ص : 122 . (4) الكهف : 65

الوحي ، فهو علم يقيني ، وهو هبة ، أو منحة ، أو منة الهبة ، يهبها الله لمن يشاء من عباده .

عين اليقين :

يرى أئمة الصوفية أن عين اليقين [١] هو العلم اللدني ذاته ، أو الهبه الربانية نفسها وعين اليقين واردة في القرآن الكريم بنفس المعنى « كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين [٢] .

حق اليقين :

هو منتهى غاية الواصلين للعلم الإلهي [٣] ، فهو الصدق اليقيني الذي يشهده السالكون في المقامات العليا ، ويراه الشيخ الأكبر هو ما حصله المريد الصادق من العلم حسب مجاهداته ، وإخلاصه ، وطاعته ، وصدقه ، بل حسب ما قدر له الله أن يعاين من العلوم الإلهية [٤] .

---

(١) رسائل بن عربي — كتاب التجليات .

(٢) التكاثر ٥ ، ٦ ، ٧

(٣) رسائل بن عربي — كتاب اصطلاح الصوفية .

(٤) رسائل بن عربي — كتاب التجليات .

الفصل الخامس

الكرامة وخرق العـــادات

من استمدادات الأولياء الظاهرة خرق العادة أو الكرامة، والكرامة هي خرق العادة على غير المألوف والطبيعي ، فهي تدخل في باب المعجزات كطى المكان — أي الانتقال من مكان إلى آخر - يبعد عنه مئات الأميال في خطوة أو خطوات . والمشى على المـــاء ، وكلام البهائم ، وظهور الشيء في غير موضعه أو وقته — كالاتيان بفاكهة الصيف في الشتاء - وقلب الاعيان -كتحويل المعدن الخسيس إلى معدن ثمين ، كالرصاص إلى ذهب .

قال أبو يزيد : (١) ليس الرجل من يسير مع القافلة ، إنما الرجل من ينام إلى الصباح، فيصبح أمامها في المنزل ، وعلامة العارف أن يكون طعامه ماوجد ، وميتته حيث أدرك ، وشغله بربه .

والأولياء لا يفرحون بإجابة الدعوات التي هي عين الكرامات ، كالمشى على المـــاء والهواء ، وطي الأرض ، وركوب السماء ، فإن أدعية الكفار تجاب ، والأرض تطوى للشياطين ، والهواء مسخر للطير ، والماء للحوت ، فمن أنعم عليه بشيء منها فلا يأمن المكر .

ويتمثل الصوفية بآيات القرآن الحكيم والقصص التي وردت عن الصالحين ، كقصة مريم حين قال لها زكريا : « أنى لك هذا ؟ .. قالت : « هو من عند الله»(٢) وقصة سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر في خرقه السفينة وهدمه الجدار ،

---

(١) المناوى — الكواكب الدرية جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٢) آل عمران : ٣٧

وقتله الصبي ، وغير ذلك مما رواه لنا القرآن الكريم من خرق العادة والمألوف .

والأخبار فى هذا كثيرة ووافرة ، فنجد أنه من كرامات الصحابة العديدة ، قصة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين نادى قائد جيشه سارية وقال له وهو على المنبر ـ وكان سارية على بعد مئات الأميال يحارب جيش الأعداء ـ الجبل... الجبل ، أى الزم الجبل ، وقد سمعه سارية على هذا البعد ، وأطاع أمره ، مما كان السبب المباشر فى إنتصار جيش المسلمين(١) .

والكرامة للأولياء ، أما المعجزة فللأنبياء . والولى الصادق لا يدعى النبوة أو يقول إنه صاحب معجزة ، وهو يدعو إلى الحق والصدق ، فإذا منّ الله عليه بكرامة أو خرق عادة ، فانه لا يدعى لنفسه النبوة ، ولا يقدح فى نبوة النبى أو الرسول أو يشك فيها ، لأنه يدعو إلى ما يدعو إليه النبى من الفضائل والآداب والمحافظة على السنن والأحكام الشرعية ، فإذا ظهرت على يده الكرامة ، قال: ذلك تأييد لدعوة النبى وإظهار لصدق الرسالة .

وقد أجاز بعض أئمة الصوفية ظهور خرق العادة والمألوف لدى بعض أعداء الله ، وذلك بقصد الإستدراج لهم للوقوع فى الهلاك والسقوط فى براثن الشرك ، وخرق العادة بالنسبة لهم يولد عندهم الغرور والكبرياء والتعظيم والتعجب ، ويعتقدون كذبا أنهم منحوا هذه الكرامات لأنهم يستحقونها بأعمالهم ، ويرون أن لهم الفضل على الخلق بها ، مما يزيد فى عذابهم فى الدنيا والآخرة .

أما الأولياء فإذا ظهرت لهم كرامة من الكرامات ، إزدادوا لله تضرعا وتذللا وخشية وإستكانة بل وإزدراء لأنفسهم ، وتكون الكرامة بالنسبة لهم قوة تزيد من مجاهدتهم ، ونعمة تزيد من شكرهم ، وفضلا من الله على ما أعطاهم من نعم .

وخلاصة القول أن للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات ، وللأعداء مخادعات .

---

(١) المحب الطبرى ـ الرياض النضرة فى مناقب العشرة ـ ج ١ .

الفصل السادس

الاصطفاء

معنى الاصطفاء هو الإجتباء ، فالعبد المجتبى هو منذ البداية أمره ومن القبضة الإلهية (١) ، ويرى الحكيم الترمذى أن المجتبى هو المصطفى ، وهو الذى فى أول أمره لم تزهد نفسه بعد بحيث تصلح لما أعد لها من مرتبة ، ولو لم يكن الامر كذلك لحلت هذه النفس مقاما عزيزاً مكرماً ، ولذلك فانه يحال بين المجتبى وبين نفسه حولاً كاملا، حتى لاتشارك القلب فى عطاياه، ويتولى الحق تعالى هذه النفس بالعناية ، ويفيض عليها قليلا قليلا على قدر ما تتحمله من أنوار العطاء الالهى ، حتى يزال عنها الهوى ، وحلاوة وشهوات الدنيا ، ثم يسكرها الله تعالى بحلاوة العطاء وحلاوة القربة ، وحينئذ تصل إلى مقام القربة العظمى ، فتحظى فيه بما يحظى به القلب ، فلايصبح هناك من حائل بين القلب وبينها لأنها أصبحت طائعة ولاتقدر هذه النفس أن تدنس القلب بشهواتها ، حيث لا طلب ولا شهوة لها ، لان كل شيء أصبح بمشيئة الله وبقدرة الله ، وأصبحت هذه النفس سالمة مستسلمة لله ، وعندئذ تنتقل مع القلب من ملك إلى ملك ، ومن مرتبة إلى مرتبة حتى تصل إلى مقام الصديقية العظمى ، وهو المكان الذى رتب لهذه النفس بين يديه تعالى ، فتصل إلى هذه المنزلة ويفتح لها ، ثم ترجع فتصير فى قبضته سبحانه وتعالى .

ويقول الله فى كتابه العزيز : « واجتبيناهم وهديناهم » (٢) فالاصطفاء اجتباء من الله وهداية منه تعالى، ويقول الله تعالى أيضا : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » (٣) .

---

(١) د. عبد الفتاح بركة — الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ص ٤ ١١٨

(٢) الانعام : ٨٧ (٣) الحج : ٧٥

الفصل السابع

الإلهـــام

يقال دائما أن الولى يلهم بالحق الهاما ، ويرى الامام أبو حامد الغزالى (١) أن معرفة الله ليست عن طريق ذكر الاسماء والصفات والحركات والسكنات وطرق التشبيه والتعليم ، والاستنباط والقياس ، فمهما كان هذا الطريق واضحا فانه قاصر عن معرفة الله ، بل أنه طريق وهمى ، وتشبيه لله بما ليس لله تعالى ، فالله حى وليس كالاحياء ، قادر ولكن ليس كالقادرين ، والسبيل الحق إلى معرفته باقرارك بعجزك عن معرفته ، كما عليك أن تعرف الحقائق التى يعرفها أهل الله وعباد الرحمن ، وهى أنهم لا يمكنهم معرفته على حقيقته عز وعلا ، فمعرفة الله بصفاته وذاته لا يعرفها إلا الله تعالى نفسه .

والعارفون من أهل الله يكشف لهم طريق الإلهامات ، أن الله تعالى فوق كل تصور وأكبر من كل تصوير ، وقد أشار إلى ذلك سيدنا أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — حين قال : العجز عن درك الإدراك إدراك .

وقد يكشف لبعض الصادقين عن طريق الالهامات بعض علم الله تعالى ، وعجائب قدراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة ، ولذلك يتفاوت الناس فى العلم والمعرفة ، ولا تتوقف المنن الالهية ولا العطايا الربانية ، فهى لا نهاية لها .

والعلم الالهامى يختلف عن العلم الكسبى ، فى أن الأخير يحتاج إلى درس وتحصيل وصبر حتى يحصل المريد فيه الى بغيته ، أما العلم الإلهامى فهو نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فيصبح عالما وعالمنا ومعلوما جميعا ، والقلب الصادق مرآة مستعدة

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى — احياء علوم الدين جـ ٨ ص ٢٣٤٢ — ١٣٦٠ .

لان يتجلى فيها حقيقة الحق بالأمور كلها ، ولهذا لا يحصـــل القلب على العلم الإلهامى لأسباب عديدة هى:

١ — إما لنقصان فى القلب ذاته ، كقلب الطفل إذا لا تتجلى له العلوم لضعفه ونقصه .

٢ — أو نتيجة لارتكاب الآثام ، وعمل المعاصى والخبث ، فيتراكم ذلك كله على وجه القلب ، فيمنع صفاء القلب ، ويمتنع بذلك ظهور الحق فيه لظلمته وظلامه .

٣ — كأنه لا تزول عن القلب هذه الظلمة ، إلا إذا أتبع الإنسان عمله بحسنة يمحو بها السيئة ، وبذا يشرق القلب ، وعلى العكس فانه إذا تقدمت السيئة سقطعه الحسنة .

فالإقبال على الطاعة والإعراض عن الشهوات ، هو الذى يجعل القلب صافيا ، مستعداً لأن يتقبل الحقائق .

٤ — ألا يكون القلب محققاً للغايات الروحية ، أى لا يكون منصرفا إلى التأمل فى الحضرة الوجودية ، أو فى الحقائق الإلهية ، فلا ينكشف له شىء من هذه الحقائق ، وذلك نتيجة لآفـــات فى عمله وعيوب فى نفسه ، أو مصلحة أو منفعة دنيوية يفكر فيها وينصرف ذهنه اليها ، ولو كانت ليست من المحرمات أو من قاذورات الشهوات ، إلا أنها مع ذلك تمنع الكشف الحقيق .

٥ — إذا كان الانسان مقلداً وعاكيا غيره نتيجة التربية والإعتقاد ، ومن ثم تكون هذه الإعتقادات التقليدية والآراء المتوارثة قد جمدت فى نفوس أصحابها ورسخت فى قلوبهم ، فتصير حجابا بينهم وبين إدراك الحقائق ، ويسمى ذلك

(١) الامام الغزالى — الإحياء ص ١٣٤٢ وما بعدها ـ ٨ .

بالحجب (١)، وهذا ما نجده عند كثير من المتعلمين؛ وأصحاب التعصب المذهب، وكذلك أكثر علماء الكلام.

٦ — الجهل بالمطلوب، فلا يمكن لطالب المعرفة أن يحصل على المعرفة إلا بالإعتماد على معارف أخرى، فكل علم مراد لا يحصل إلا من علمين سابقين ويحصل من ازدواجها علم ثالث (٢).

وعن العلم الإلهامي يتكلم الإمام أبو حامد الغزالي كلاما يتبين منه أن العلوم الوهبية غير العلوم الكسبية، وأن أهل الذوق غير أهل النظر والعقل، ويقول في هذا: « لما أردت أن انخرط في سلكهم، وآخذ مأخذهم، وأغترف من البحر الذي أغترفوا منه، خلوت بنفسي وأعتزلت عن نظري، وشغلت نفسي بالذكر، فإنقدح لي من العلم ما لم يكن عندي، ففرحت بذلك وقلت أنه حصل لي ما حصل للقوم فتأملت فيه، فإذا فيه قوة فقهية عما كنت عليه قبل ذلك فعلمت أنه بعض ما خلص لي، فعدت إلى خلوتي واستعملت ما أستعمله القوم فوجدت مثل ما وجده القوم فعاودت ذلك مراراً والحال الحال، فتميزت عن سائر النظار أصحاب الأفكار (العلماء) بهذا القدر، ولم الحق بدرجة القوم في ذلك، وعلمت أن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى.

وحجة الاسلام يفرق في الاحياء بين نوعين من العلوم، علم اكتسابي وهو محل النظر والدرس والتحصيل، وعلم إلهامي وهذا العلم ينقسم بدوره إلى قسمين إما أن يكون وحياً فهو للأنبياء والمرسلين، وإما أن يكون إلهاما فهو للأولياء والصالحين، وهذا العلم الإلهامي منحة من لدنه تعالى، ويعتبر من خوارق العادات ومن غير المألوف الطبائع البشرية، ذلك ما نجده حقا عند الأولياء والصالحين

---

(١) راجع بالكتاب الحجاب

(٢) الامام ابو حامد الغزالي — احياء علوم الدين جـ٨ص ١٣٤٢ — ١٣٦٠.

الذين يكتبون لنا كتبا ورسائل لا يمكن كتابتها ولا تدوينها فى تلك الفترة القصيرة التى يعيشها الإنسان على الأرض ، وقد عاش الإمام الغزالى نيفا وخمسين عاما ، ألف فيها كتبا عديدة كالأحياء لعلوم الدين ، ومكاشفة القلوب ، والاقتصاد فى الاعتقاد وغيرها كثير ، والاحياء وحده جمع بين علوم عديدة يعجز المرء عن معرفتها فى مدة طالت أم قصرت ، ولا يمكن أن يقال إلا أن هذا الكتاب قد كتب بوحى إلهامى ، وكذلك الحال بالنسبة للشيخ الأكبر محى الدين بن العربى الذى كتب لنا الفتوحات المكية ، وهى معارف وعلوم تحتاج عمراً لدراستها فكيف يتسنى لصاحبها أن يكتبها فى حقبة يسيرة من الزمن إلا إذا كان إلهاما .

ويقول الإمام الشعرانى (١) : « انه لو كانت العلوم الإلهامية ـ ويسميها علوم الوهب فى مقابل علوم الكسب ـ لو كانت هذه العلوم نتيجة للفكر أو النظر، إذن لانحصرت فى أقرب مدة ولكنها موارد تتوالى من الرب على خاطر العبد ، والحق تعالى وهاب على الدوام ، فياض على الاستمرار ، والمحل قابل على الدوام ، فإما يقبل الجهل وأما يقبل العلم بحسب جلاء مرآة قلبه وصدئها ، فإذا صفا القلب حصل له من العلم فى اللحظة الواحدة ما لا يقدر على كتابته فى أزمنة متطاولة ، وذلك لاتساع ذلك الفلك المعقول وضيق هذا الفلك المحسوس ، ولذلك قال الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ فى كتابه العزيز : « وقل رب زدنى علماً »(٢) .

ويقصد الإمام الشعرانى به العلم الإلهامى ، وليس العلم الكسبى ، ويفرق الشعرانى بين وحى الكلام ووحى العبارة والاشارة ، فيقول : « يا أخى هناك فرق بين وحى الكلام ووحى الإلهام ، فاذا عرفت تكن من أهل ذى الجلال والاكرام » .

---

(١) الامام الشعرانى — اليواقيت والجواهر ج١ ص : ٣ ـ ١١

(٢) طه : ١١٤

ويورد الشعرانى نقلا عن الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي قوله : « إن جميع ما أكتبه فى تأليفى ليس هو عن روية وفكر وإنما هو نفث فى روعى ، على يد ملك الإلهام » .

وفى موضع آخر يقول : « إن جميع ما كتبته وأكتبه فى هذا الكتاب إنما هو عن املاء إلهى ، وإلقاء ربانى ، ونفث روحانى فى روح كيانى ، كل ذلك بحكم الإرث للأنبياء والتبعية لهم ، لا بحكم الاستقلال » (١).

ويقول الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي فى الباب التاسع والثمانين من الفتوحات « واعلموا أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكرى ، وإنما الحق تعالى يملى لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره ، وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ، ولا بعده ، وذلك شبيه بقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (٢) .

ويقول فى موضع آخر من الباب الثانى من الفتوحات : « أن العارفين إنما كانوا لا يتقيدون بكلام على ما بوبوا عليه فقط لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الإلهية ، مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أو بادرت لامتثاله والقته على حسب ما حبب لها ؛ فقد تلقى الشيء إلى ما ليس من جنسه ، امتثالا لأمر ربها » .

ويقول فى الباب السابع والأربعين : « اعلموا أن علومنا وعلوم أصحابنا ليست عن طريق الفكر ، إنما هى من الفيض الإلهى ، والله أعلم » .

وفى هذا المعنى يفرق الشيخ محي الدين بن عربى بين العلم النظرى وبين العلم الالهامى ، ويتجه إلى عارف الله بروحه وبساط إلهامه متفكرا فى خلق السموات

---

(١) الامام الشعرانى — اليواقيت والجواهر — (الكبريت الاحمر هامش الكتاب) ص ٤ ج ٢ — ١١
(٢) البقرة ٢٣٨

والأرض ، كما يتجه إلى طريق الذكر الدائم المطهر الملهم ، وفصلا لقد ابن عربي أفكاره علياً ، قاصداً الوصول عن طريق السلوك والمجاهدة إلى العلم الإلهي وقد حدد لنفسه وللسالكين الطريق والغاية ، وأعلن أن هناك مسائل سبع يختص بعلمها أهل الحق قولا وفعلا ، والتي إذا عرفها السالك فانه لايقف أمامه شيء من علم الحقائق ، وهي معرفة التجليات ، ومعرفة كمال الوجود ، ومعرفة خطاب الحق ، بلسان الشرع ، ومعرفة الإنسان من جهة الحقائق ، ومعرفة كشف الكلام ، ومعرفة العلل والأدوية .

لقد سلك ابن عربي طريق المجاهدة والذوق عاملا عابداً فلما وصل إلى نهاية المطاف ، كانت هناك مقابلة بينه وبين ابن رشد ، الذى ظل حياته يعتمد على البحث النظرى فى دائرة العقل العلمى ليصل به إلى الكشف والفتح . . . كانت مقابلة رائعة بين طريق النظر وطريق الذوق أو طريق العلم وطريق الإلهام .

سأله ابن رشد ليطمئن على طريقه فى النظر : هل وجدت الأمر فى الكشف والفيض نفس ما أعطاه النظر ؟ . . .

يرد ابن عربى فى ثقة : نعم . . . ولا . . . وبين نعم . . . ولا . . . مثلما بين المؤمن والكافر ، أو قال : بين نعم . . . ولا . . . تطير الأرواح .

ومعنى ذلك أن العقل قد يهتدى إلى الله ، ويدرك ويلمس أسرار الكون وعجائبه وآياته ، لكنه يعجز مع ذلك كعقل مجرد عن الوصول إلى القمة ، فينحدر وينزلق ويضل فى المتشابهات والعبادات الربانية .

وإن ما قاله ابن عربى لابن رشد فى هذا الرد يدل على أن المقدمات أو البدايات فى طريق الذوق والنظر إنما هى واحدة ، فالتصوف والعلم النظرى

لايوجد بينهما معارضة فى الوصول إلى الله ، إلا أن النهايات ليست واحدة فى كل الأحوال ، فالعقل عند بن عربى قد يهتدى إلى الله ولكن بعد الوصول إلى القمة ينحدر وينزلق ويضل فى المتشابهات ، ولكن بالنسبة للعلوم الإلهامية فإن من يدخل الخلوة جاهلا يخرج منها مرشداً ، ذلك لأن العلم الإلهامى إنما يقذف من الحق فى قلب العبد ، فيصبح علماً وعالماً ومعلوماً جميعاً . وشتان بين علم الله وبين علم غير الله .

الفصل الثامن

١ — العلم

يشترط فى الولى الصادق العلم ويختلف العلم عند الصوفية ، عن العلم الحسى ، الذى هو حكما بإثبات أو بنفى ، فهى بعض الصوفية أن العلم علمان ، علم كسبى ، وهو يأتى عن طريق التحصيل ، والتلقين ، وعلم وهبى ، وهو مايقذفه الله فى قلب عبده فيصبح علماً وعالماً ومعلوماً جميعاً ، والأخير هو الذى يسمى عندهم بالمعرفة ، ويكون العلم الكسبى هو الطريق الموصـــل لمعرفة الشريعة الغراء ، عن طريق العقل ، وذلك التمييز بين الحلال والحرام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أما العلم الوهبى أو ما يسمى باللدنى ، فإما أن يكون وحيـاً ويختص به الأنبيـاء وحدهم ، أو يكون إلهاما ويختص به الأنبياء ، والأولياء ، وهـــذا العلم هو الوارد فى قوله تعالى : « نحن نعلمهم [1] ، وقوله تعالى «ومايعقلها إلا العالمون»[2] وقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » [3] ، وقوله تعـالى : « علم آدم الأسماء » [4] ، وقول يوسف عليه السلام عن الله تعـالى : « علمنى ربى » [5] ، وقوله تعالى : « ويعلمك من تأويل الأحاديث » [6] وقوله عز وجل : « وعلمتم مالم تعلموا » [7] .

---

(١) التوبة : ١٠١
(٢) العنكبوت : ٤٣
(٣) فاطر : ٢٨
(٤) البقرة : ٣١
(٥) يوسف : ٣٧
(٦) يوسف : ٦
(٧) الانعام : ٩١ .

٢ — الكشف

صاحب الولاية يحظى بالكشف ويستعمل فى المعنويات والحسيات ، فيقال كشف الشيء بمعنى أظهره ، ورفع عنه ما يواريه ، ويقـــال كشف عنه الهم أى أزاله (١) ، كما يقال عند الصوفية كشف عنه الحجاب ، أى حجاب الظلمة ، فرأى الحقائق فهى مكاشفة لا بعين البصر ، ولكن بعين البصيرة ، وقد وردت آيات قرآنية بهذا المعنى كقوله تعالى : « بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء الله » (٢) وقوله تعالى : « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » (٣) .

ويروى عن الإمام أبى الحسن الشاذلى أن بعض الناس زعم انه وصل إلى مقـــام المحبة لله ، وهو فى درجة تغنيه عن اتباع التكاليف الشرعية , ويرد عليه أبو الحسن رضى الله عنه فيقول : (٤) سمعت هاتفا يقول « إن أردت كرامتى فعليك بطاعتى ، وبالاعتراض عن معصيتى » .

فالكشف الحق هو الذى لا يعارض الكتاب والسنة ، والمريد الصادق هو الذى يدع الكشف ، ويتمسك بالكتاب والسنة ، والله سبحانه وتعالى ضمن للانسان العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها عن طريق الكشف ولا الإلهام ، ولا الرؤى ، ولا المشاهدة ، وإذ لم يوافق الكشف الشريعة فلا ينبغى العمل به ، وهذا رأى الصوفية .

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ٢ ص ٤ ٣١٦
(٢) الأنعام ٤ ٤١ .
(٣) النجم ٤ ٥٨
(٤) د. عبد الحليم محمود — أبو الحسن الشاذلى من أعلام العرب عدد ٧٢ .

الفصل التاسع

اسم الله الأعظم

يعتقد غالبية الأئمة والصوفية أن الأولياء والصالحين على علم باسم الله الأعظم يستخدمه كل منهم على قدر معرفته به ، وكما يفتح سبحانه وتعالى عليهم به .

والذى يتكشف له من أسماء الله شىء ويعلم شيئا من حقائقها ، لا يجوز له الاخبار عنها لغير أهلها نظرا لأنه لا سبيل لتصورها على خــلاف ما هى عليه وأنه لمن الجدير بالذكر أن العلماء والفقهاء عجزوا عن معرفة اسم الله الأعظم ، وذكر كثير منهم أن لفظ الجلالة هو (الله) وبعضهم قرر أنه موجود بين ثنايا فواتح السور ، فإذا أخذ من حرف لا يشبه صاحبه فجمعهن كان اسم الرحمن ، إذا عرف دعا به أحدهم كان الاسم الأعظم الذى إذا دعا به أجاب .

وقد حدد الحكيم الترمذى (١) الذين على علم باسم الله الأعظم ، وهم عنده طبقتان . . المقربون والصديقون . . . ، وأن علم الحروف المقطعة فى فواتح السور القرآنية يقتصر معرفتها عليها فمن فوقها من الأنبياء والرسل ، أما غيرهم فعاجزون عن ذلك .

ولا شك أن فواتح السور تعد سرا مغلقا حتى الآن على علماء الظاهر ، وقد حاول كثير من المستشرقين سبر غورها ، وتفهم معانيها إلا أنهم عجزوا وضلوا سبيل الرشاد ، فأصدروا آراء بعيدة عن الحق ، فمن قائل أنها ليست من القرآن فى شىء ، وإنما هى رموز لمجموعات من المصاحف لأوائل المسلمين ، وهذا الرأى

---

(١) عبد الفتاح بركة — الحكيم الترمذى — الجزء الثانى ص ٦٦ — ١٨٤ مجمع البحوث الإسلامية .

تبناه (نولديك) فى كتابه تاريخ القرآن وتبعه المستشرقين (شفيك وبول) فى نفس الرأى ، ورد عليها (لوت وفور) بأنه لا يعقل أن أولئك المسلمين الأتقياء الذين نسخوا المصاحف أن يضيفوا إلى كلام الله ما ليس منه أو أن يقرروا اضافة عليه وهناك اراء فجة أخرى لا تفيدنا فى دراستنا (١) .

ولقد وردت هذه الفواتح فى تسع وعشرين سورة من القرآن ، وقد رتب بعض الباحثين السور التى ابتدأت بها ووضع جدولا لها ، وهذه الطوالع يستخدمها بعض السحرة فى أوفاقهم وأحجبتهم ، وهى عبارة عن أربعة عشر حرفا من الحروف الهجائية صيغت فى أربعة عشر سورة من السور القرآنية المختلفة وهى :

ص ، ق ، ن ، طه ، طس ، يس ، حم ، ألم ، الر ، طسم ، المص ، المر ، كهيعص ، حمعسق .

ويبدو أن الصوفية على اختلاف طوائفهم يستخدمون لفظ الجلالة باعتباره اسم الله الأعظم ، فمن المعتقد انه أسم جامع لمعان أسماء الله الحسنى كلها ؟ سلطان الأسماء كلها عندهم ، فلو حذفت منه اللام أصبح (اله) وإذا حذفت اللامين نطق « آه » وإذا حذفت منه اللام والهاء نطق باسم سريانى عظيم هو « ال » وإذا سقطت الألف واللامين نطق هو « ه » ، وهو اسم ناطق من اسماء الذات العلية وجامع الأسماء ، وجميعها متعلق به .

ويرى بعض المتصوفة أن هذا الأسم صالح لشفاء جميع الأمراض ولا يجهر من تكشف له اسم الله الأعظم به ، إشفاقا على من حجب عنه العلم ، فهو مأمور بكتمانه عن الآخرين ، وإن استخدمه لابد أن يكون فى عمل الطاعات وصالح الأعمال وإلا رفع عن صاحبه .

ويرى بعض الصوفية أن اسم الله الأعظم داخل الأشكال السبعة التى

---

(١) د. محمد غلاب — هذا هو الاسلام — ص ١٠٧ — كتاب الشعب

يستخدمونها كرقى للمرضى وأصحاب الحاجات من باب عمل الخير وعلاج الأمراض وقضاء الحاجات .

ويعتقد أهل الطريق الصوفى أنه عن طريق استخدام اسم الله الأعظم تحقق القوة الروحية فى التصرف فى الأشياء على نحو يماثل تغيير خواص المعادن من خسيسة إلى معادن ثمينة ، كتحويل الرصاص إلى ذهب ، ولذلك يسمون اسم الله اكسير الكيمياء النفسية بما يحققه من معجزات مادية ومعنوية لا يصل إليها الاكسير المادى فى تأثيره .

وواضح أن هذا النوع من الكيمياء لا يمكن أن يستخدمه شخص عادى فلا بد أن يكون حاصلا على مقومات العلم اللدنى ، ذلك أن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى تختلف عنهـا تمامـاً إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية (١) .

---

(١) د.عبد الفتاح بركة ــ الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ج٢ ص ٦٦ــ ٨٥ .

الفصل العاشر

الفراسة والتوسم

التوسم بمعنى التفرس أى المعرفة النافذة ، أو البصيرة ، والمتوسمون هم المتفرسون فى الدين والمتعرفون على حقائقه (١) ، والمتبصرون الذين يتثبتون فى تفرسهم حتى يصلوا إلى الحقيقة . وقد ذكرهم الله تعالى فى قوله : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين (٢) » ، كما روى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله عز وجل »(٣) .

يقول أحد الصوفيه عن نفسه خرجت إلى البادية على التجريد (٤) ، فلما وصلت جلست على حافة بركة وحدثتنى نفسى فى شىء من العجب بما وصلت إليه ، وإذا بالشيخ الكتانى خلف البركة ينادينى : يا فلان ، احفظ قلبك ، ولا تحدث نفسك بالأباطيل (٥) .

ولما تقابل أويس القرنى مع هرم بن حيان — رضى الله عنهما — قال أويس : « هرم بن حيان » . كيف أنت يا أخى ؟ ومن دلك على ؟ قال هرم ...

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ج ٢ ص ٦٥٤ .

(٢) الحجر : ٧٥ .

(٣) رواه البخارى فى الأدب والترمذى ، والسيوطى فى الجامع الصغير ص ٩ .

(٤) راجع التجريد والتفريد بالكتاب .

(٥) الامام الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف — ص ١٥٧ تحقيق د. عبد عبد الحليم محمود .

« الله » قال أويس : « لا إله إلا الله سبحان ربنا ، ان كان وعد ربنا لمفعولا » . فقال هرم : من أين عرفت اسمي واسم أبي ؟ ... وما رأيتك من قبل اليوم ، ولا رأيتني ؟ قال أويس : « نبأني العليم الخبير ، عرفت روحي روحك ، حين كلمت نفسي نفسك ، إن المؤمنين يعرف بعضهم بعضا ، ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا (١) » .

والفراسة ليست من عالم الغيب ، بل هي علم نوراني ، أودعه الله قلب عبده المؤمن القريب إليه ، والمشغول به ، والفراسة غير الظن لأن الظن يخطيء ويصيب ، حسب طهارة القلب وظلمته وكثيراً ما يخطيء وقليلا ما يصيب ، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير من الظن ، وأخبر تعالى أن بعض الظن إثم ، أما أصحاب الفراسات فأثنى الله عليهم فقال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم (٢) » .

والمتفرس إذا جالس أحدا من الناس يطلع على سره ، فهو جاسوس القلوب ، فقد ألقى الله في روع سيدنا أبو بكر الصديق أن أحد الصحابة هو « بطن بن خارجة » فكان ذا حقا وصدقا ، فالذى ينظر بنور الله ينفذ في الأشياء والحجب فيرى ما هو مقدر ومكتوب (٣) ، وكان أبو بكر رضى الله عنه في قمة المتفرسين حين استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما كانت صاحبة موسى عليه السلام صاحبة فراسة أيضا ، حين قالت : « استأجره

---

(١) روض الرياحين ص ١٨٢ .

(٢) البقرة : ٢٧٣ .

(٣) د. عبد الفتاح بركة — الحكيم الترمذى ونظريته في الولاية — ج ٢ ، ص ١٣٢ — ١٥٠ .

فهو القوى الأمين » ، وكذلك العزيز حين تفرس فى سيدنا يوسف وقال لإمرأته « إكرمى مثواه » .

ويرى أئمة الصوفية أن الفراسة موهبة دائمة فى جميع الأوقات ، يحظى بها الولى كنفحة إلهية ، ونفحة ربانية ، ويستخدمها متى شاء ، فهى فى أخلاق الصوفى وسلوكه وطبيعته ، لأنه ينظر بنور الله ، ولأن قلبه قد تطهر من الحظوظ والهوى فلم يعد ينظر ببصره ، وإنما ببصيرته ، ويلهم بالحق إلهاماً .

الباب الخامس

الدراسات الميدانية للحكومة الباطنية

مقدمة :

تبين من البحث الميدانى أن هناك رابطة وثيقة فى الطريق الصوفى بين الشيخ ولى المنطقة وبين المريدين ؟ وهذه الرابطة تؤثر تأثيرا كاملا فى حياة المريدين الاجتماعية والثقافية والاخلاقية والسلوكية وذلك من خلال مجموعة من العادات والتقاليد والقواعد السلوكية التى تنفرد بها جماعات الصوفية .

كما أنه اتضح من الدراسات الأولية أن مراسم الطريق الصوفى لايمكن لباحث تفهمها إلا بالمعايشة الصادقة مع أفراد الطريق وذلك فى ظل نظامهم ومن خلال معاملاتهم وتفهم قواعدهم ، وأنماط آدابهم والتعرف على مواجيدهم وأخلاقهم ، بدراسة ذلك حسب ما تقضى به الطريقة السيسومترية فى البحث ، من دراسة العلاقات تجاه شىء ما ، والاستعانة أيضا بالطريقة الانثربولوجية فى الدراسات التحليلية المتكاملة والتى تدرس العوامل الاقتصادية ، والاجتماعية، والثقافية ،وهذا اقتضى دراسة التقاليد والعادات والشعائر والطقوس الدينية لهذه الطوائف،وذلك بقصد الوصول الى نظرية متكاملة تفسر الحياة فى ذلك المجتمع المدروس.

ولذلك كان من الضرورى كمطلب أساسى وضع فرض مناسب يمكن اختبار مدى صحته فيما يمكن أن تكشف عنه الدراسة الحقلية والدراسات المقارنة من نتائج .

ولقد تجمعت لدينا من خلال دراستنا النظرية لحياة الصوفية طائفة من الشواهد تدفعنا الى القول بوجود نوع من التنظيم السائد والذى تلتزم به الجماعات الصوفية فى حضراتها ومجالسها المختلفة أو المفتوحة أو فى شئونها الروحية أو فى أمور معاشها الدنيوى .

لهذا فإنه يمكن أن نضع فرضا إجرائيا أوليا ألا وهو افتراض وجود تنظيم من نوع معين فى المنطقة المراد دراستها وأن هـذا التنظيم لا يقوم بطريقة تلقائية أو عفوية بل يستند الى تخطيط ووساطة مركزية من نوع ما .

وسنحاول فى الدراسة الميدانية ان نترسم أسلوب جمع الوقائع الذى قد توصلنا لتحقيق هذا الفرض الاولى سواء بالطريقة الإيجابية أو السلبية عند الجماعات الصوفية، أو عند غيرهم من المستجيبين لها أو المؤمنين بها ، وكذلك اعتبار رأى عامة الناس ومثقفيهم كما أنه بالإضافة الى ذلك يهتم البحث بدراسة منابع أو مراكز السلطة الروحية فى المنطقة ، وخفايا التفويض الجزئى أو الكلى لهذه الوساطة الروحية وشواهدها فى المنطقة ثم التناسب بين السلطة الروحية ، وإنتشار التعليم والوعى الصحى فيها والازدهار الاقتصادى ، والأوضاع الاجتماعية فى المنطقة .

نبذة عن منطقة البحث .

تم اختيار منطقة وسط الدلتا لما تمتاز هذه المنطقة الواقعة بين دلتا النيل من ميزات عـديدة منها أنها مركز إشعاع روحى ، وخاصة مـدينة طنطـا التى تعتبر بحق بؤرة هذا الاشعاع، الذى يمتد تأثيره إلى المناطق الأخرى فى دلتا النيل، لذلك فقد اقتصر البحث على مـدينة طنطا وضواحيها نظرا لمـــا لوحظ أثناء الدراسة الأولية من أنها المصب الحقيقى لجميـع الطرق فى منطقة البحث، والأكثر من ذلك أن جميع الطرق الصوفية بإختلاف تفرعاتها وطرائقها تتركز مراسمها واحتفالاتها بمولد النبى ﷺ فى طنطا ، وتباشر شعائرها وطقوسها فى هـــذه المدينة ، الا أنه لايمكن إغفال ما لمدينه دسوق من أهمية وإنتقال عـدد كبير من المريدين للطرق الصوفية المختلفة للأحتفال بمـــولد الدسوقى (١) بعد إقامة شعائرهم واحتفالاتهم

---

(١) سيدى ابراهيم الدسوقى : هو قطب مدينه دسوق وتنتسب اليه الطريقه البرهاميه توفى فى ٦٧٦ هـ

بمدينة طنطا ، وكذلك مدينة الزقازيق التى بها ضريح سيدى أحمد أبو خليل(١)

لذلك فإننا نأمل أن يكون البحث قد نجح فى دراسة المنطقة دراسة متكاملة عندما تم فيه التركيز على منطقة طنطا وضواحيها مشيراً الى مدينتى دسوق ودمنهور كمراكز إشعاع فرعية أخرى فى المنطقة تصلح أن تكون دراسة مقارنة .

والحقيقة أن أصحاب الولايات الموجودة أضرحتهم فى مدينة طنطا وضواحيها يمثل تعداداً كبيراً لا نظير له فى مدينة أخرى فى حجم وكثافة سكان طنطا ، وهذه الملاحظة يمكن ان تبعث على التساؤل الذى يحتاج الى تفسير ، إذ يربو عدد ضرائح الأولياء على مائة وعشره ضريحا بالاضافة الى ما ذكره الشعرانى (١) عن الأولياء الذين لم نجـد لهم أثناء البحث ضرائح أو زوايا فى منطقة البحث ، ويصح أن يكون سبب ذلك راجعـاً الى اكتشاف أهل المنطقة أن هذا الولى أو ذاك ليس له مرتبة فى الولاية الروحية ، أو لأن ولاية السيد البدوى وأتباعه فى المنطقة قد محت هذه الولايات الصغيرة إذ أن المعروف أن المحك فى شهرة الولى هو مايتناقله الناس عنه من خوارق العادات ، ومن واسطته فى استجابة الدعاء وحل المشاكل ، ونصرة المظلوم ، وشفاء المرضى ، وزواج العانس ، ورد المسروق والكشف عن الجناة ، وغير ذلك كثير ، فالولى بهذا المعنى رجل مبارك قريب من الله فى حياته وبعد إنتقاله .

وفى الفصل التـالى سنعرض لتاريخ مدينة طنطا فى العصور القديمة ثم نتتبع تاريخها حتى وصول السيد البدوى اليها والاقامة بها ثم نعرض لما حدث فيها من تغيير فى النواحى العمرانية والاقتصادية والاجتماعية .

---

(١) سيدى أحمد أبو خليل تنتسب اليه الطريقة الخليلية .

الفصل الأول

طنطا كمركز للاشعاع الروحى

كانت طنطا من المدن المصرية القديمة ، وكانت تدعى عند المصريين القدماء باسم تفتاسو ، وعند الروم باسم ـ تانيتاد ـ ، وقد وردت فى الكتب العربية باسم طنشتا ، وطنتدا ، وطندتا ، ثم أسقطت الدال للتخفيف ثم فخمت التاء فصارت طنطا ، وهى اسمها الحالى .

وقد ذكر أيضا أن طنطا كانت مدينة قديمة ذات أسقفية ، وكان اسمها القبطى طنيطاد ، وقد عرفت قبل الفتح الإسلامى باسم « طنثتا » ، ثم حرف الاسم بعد الفتح العربى فصار « طندتا » ، وفى القرن الخامس الهجرى عنى الفاطميون بها عناية كبيرة ، واتخذوها عاصمة لأحد أقاليم مصر السفلى الإثنين والعشرين التى قسمت إليها الدلتا فى عهد ــ الخليفــة المستنصر (٤٢٧ ــ ٤٨٧ هـ) وعرف اقليمها باسم « الطندتاوية » (١) .

وقد عرفت طندتا فى عهد المماليك البحرية باسم « طنت » ، وكانت إحدى قرى الغربية فى أقاليم الدلتا الإحدى عشرة .

وقد ظهرت المميزات الفريدة لموقع طنطا فى العصور القديمة السابقة للاسلام اذ ورد فى المراجع القديمة (٢) انها كانت مركزا لاسقفية كبيرة ، ومن ذلك يتضح أنها كانت ذات موقع استراتيجى ممتاز كمركز من مراكز الاشعاع الروحى .

وعادت طنطا إلى اقليم الغربية فى عهد محمد على ، وصارت عاصمة لأحد أقسام

---

(١) جمال الدين أبو المحاسن الاتابكى ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٧ هامش ص ٢٠٣ وزارة الثقافة .

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور ــ أحمد البدوى شيخ وطريقة ١٩٦٧ دار الكاتب العربى

الغربية ويؤيد ذلك ما ورد بالنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . كما سبق الاشارة .

وكانت مدينة المحلة الكبرى قاعدة لاقليم الغربية من أيام الفتح العربى لمصر فلما عين عباس حلمى الأول سنة ١٢٤٦ هـ مديرا الغربية قبل ولايته على مصر ، سعى إلى جده لنقل قاعدة المديرية من المحلة الكبرى إلى طنطا ، فوافقه جده وأصبحت طنطا ١٢٥٢ هـ — ١٨٣٦ ميلادية قاعدة المديرية وقد زادت شهرة المدينة بحلول ولى الله تعالى أحمد البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ، فان وجود قبره بها كان سببا فى زيادة شهرتها ، حيث يحتفل فيها سنويا باحياء ذكرى مولده العظيم ، ويقصدها خلق كثير للتبرك بهذا الولى والذى له فى مصر ضريح تعلوه قبة عظيمة لا تخلو يوما من الزائرين ، وله مسجد من أكبر المساجد (١) الحافلة بطلبة العلم والمصلين ، وإليه ينسب المعهد الدينى الأحمدى ، وطنطا من أكبر مدن مصر وأشهرها ، ومما زاد فى أهميتها التجارية وقوعها فى وسط الوجه البحرى ، ووجود محطة كبيرة بها شبكة السكك الحديدية المنتشرة فى الوجه البحرى .

ويرى الدكتور سعيد عاشور (٢) أنه من سوء حظ سنفا ، أن السيد / أحمد البدوى لم يتجه إليها واتجه إلى طنطا بالذات » . ويقول أن « سنفا فى عصر السيد / أحمد البدوى أى فى القرن السابع الهجرى أو الثالث عشر الميلادى ، كانت من أكبر مدن الغربية وبها دار الوالى ، وكما ذكر ياقوت الحموى (٣) فى معجم البلدان أن سنفا كانت عاصمة الغربية منذ العصور القديمة وكان أسمها فى عهد البطالسة (اسكوريس) .

---

(١) جمال الدين الاتابكى — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة هامش ص ٣٠٢

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور — أحمد البدوى شيخ وطريقة ١٩٦٧ دار الكتاب دار الكاتب العربى ص ٢٤١ ومابعدها

(٣) ياقوت الحموى — معجم البلدان ج٣ ص ١٩٦ طبعة بيروت .

وواضح أن إقامة سيدى أحمد البدوى بطنطا ـ كما أجمعت كل المراجع ـ جعل هذه القرية الصغيرة تتنفس ، وتنتعش ، بل وتنمو فى سرعة مذهلة ، فكثر النازحون إليها ، والراغبون فى الإقامة بها ، وقد ذكر السخاوى (١) بالحرف الواحد ، جاء الحجاج هذه السنة لسيدى أحمد البدوى من الشام وحلب ومكة أكثر من حجاج الحرمين » . وهذه طبعا مبالغة من السخاوى وربما ذلك راجع إلى أسباب أخرى كاجتياح الأمراض والأوبئة بمكة أو المدينة فى هذه السنة بالذات .

لمحة تاريخية عن التصوف فى عصر البدوى :

يرجع تاريخ الجامع الأحمدى بطنطا إلى زاوية بناها السيد / عبد العال تلميذ البدوى وخليفته بأمر من السيد البدوى ثم كان عهد السلطان ، الأشرف قايتباى ، وقد ذكر ابن اياس فى بدائع الزهور ، انه تم تجديد مقام سيدى أحمد البدوى وأعاد بناؤه وتوسيعه .

وفى عهد السلطنة العثمانية ـ والتى كان ولاتها شأنهم شأن حكام المماليك يتقربون من المتصوفة ـ عملوا على إنشاء المدارس فى عهدهم لتدريس مختلف العلوم ، وبخاصة التصوف ، الذى كثر مريديه وقد مال الناس إلى الاعتكاف ، وذلك لأن حالة العالم الإسلامى تدهورت ، وتقلصت الحضارة الإسلامية فى الاندلس ، علاوة على هجوم التتار واكتساحهم الشرق .

وما أن تجمعت العوامل كلها من حروب ، وعسف ، واستبداد ، وقلق نفسى ، حتى ضاق المسلمون ، فى العالم الاسلامى بالحياة الدنيا وانضموا إلى دولة الصوفية يعيشون فى رحابها ، عسى أن تجلب لهم استقراراً وهناء ، وتبشرهم بجنات ونعيم .

---

(١) السخاوى ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ١٧٦

ويقول الدكتور توفيق الطويل فى ذلك (١) أنه كان من الطبيعى لهذه الدولة أو الحكومة الباطنية أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون ادارتها ، ثم يخرج من ذلك إلى تصنيف هؤلاء الحكام فى طبقات يتزعمها القطب ، وتليه فئات من الأوتاد ، والأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة فى هذه المملكة الباطنية ، ويسيّرون دفتها وينظمون أمـــورها ، ويعوضون الناس عما يلقونه من شر فى دنياهم ، ونحن لا نوافق على أن أهل الحق قد قامت دولتهم بطريق تعويضى ، أو انها اصطنعت لظروف سياسية أو اجتماعية ، وإنما يمكن القول أن الناس يتجهون إلى الله عندما يمتحنون بالابتلاء والاختبار والامتحان فيعرفون أن طريق الله هو الطريق الحق .

وفى عهد على بك الكبير الذى كان رجلا طموحا (٢) تحولت الزاوية الصغيرة إلى مسجد ضخم يضم قبابا ثلاث — القبة الكبرى للسيد / أحمد البدوى والقبة الغربية للسيد / عبد العال خليفته — والقبة الشرقية للشيخ مجاهد — شيخ المسجد فى عصر على بك الكبير، وأنشأ فى واجهة الجامع سبيلا ، وفوقه مكتب للصبية وقيسارية عظيمة ، أصبحت فيما بعد مركزا تجاريا محليا ، ثم أوقف وقفين كبيرين على المشروعات الخاصة بمقام السيد / أحمد البدوى بطنطا .

وقد جعل على بك الكبير كل ذلك وقفا على الخلفاء لسيدى أحمد البدوى وخدم المقام ، والعلماء والقائمين به ، والمجاورين بالمسجد المشار إليه والعواجز والايتام ، وأرباب الاشاير المنسوبين للطريقة الاحمدية ونصت الوقفية أيضا على أن يكون عدد المجاورين اربعمائة يقطنون بمسجد السيد / أحمد البدوى ويتعاطون جراية يومية قدرها

(١) توفيق الطويل — التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور — السيد / البدوى شيخ وطريقة دار الكاتب العربى ص ٢٤٦ وما بعدها .

ستة أرغفة خبز للمجاور الواحد وفول نابت بعد صلاة الصبح وشربة بر — وقف السيد / البدوى المشهورة — ويدخل فيها الارز واللحم والعسل والبصل والحمص .

وقد بذر على بك الكبير البذرة الاولى لنشأة المعهد الاحمدى فى طنطا - اذ انه قد رتب عددا من الفقهاء والمدرسين والمعيدين للتدريس بمسجد السيد/البدوى فأمه الطلاب والمجاورين والوافدين من كل ناحية ، وخصص لهم خبزا وجرايات وحساء يصرف لهم يوميا .

وفى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ١٣٢٨ — ١٩١١ م أنشا المعهد الاحمدى تحت إشراف الإدارة العامة للمعاهد الدينية بالأزهر بعد أن ضاق الجامع الاحمدى على طلابه .

الفصل الثانى

مفهوم الولاية بالمنطقة

اتضح من الدراسة الحقلية بالمنطقة أن للولاية مفهوما فى رأى غالبية المريدين وهو أن الولى عارف بالله من أهل الحق ، كما أن لها مفهوما آخــــر فى رأى عامة الناس ، وهـو أن الولى شخص قريب من الله مستجاب الدعاء وهـو إنسان غير عادي، وهو واسطة أو شفيع يلجأ اليه الناس فى الملمات والكوارث وهو على قدر كبير من العلم والمعرفة ، حتى ولو ظهر لهم عـكس ذلك .

فالمجـذوب الذى يهـذى ، والدرويش الذى يسأل الناس ، هو ولى فى رأى العامة لأنه شخص غير عادي يملك مقومات خرق العادة ولأنه من أحباب الله حتى ولو جاءت كراماته من قبيل المصادفات أو نطق بلا قصد أو اكترات ومع ذلك يقرن أسمه بالولاية .

كما يطلق لفظ الولى على نصير المظلوم ، والغريب ، وصاحب الدعاء المستجاب ، ومعـالج الأمراض والعقم ، وميسر زواج العانس ، وصاحب المقـدرة على حل المشـاكل ، وحل المربوط ، وقاضى الحوائج ، ومكتشف السرقات ، وطارد المحبة أو مقـويها ، ومبطل السحر ، وميسر العسر ، وغير ذلك من الحاجات التى يمكن أن يحتاج اليها الناس ، ويلبيها لهم ولى المنطقة .

وفى رأى العامة أن كل ولى يختص بكرامة معينة ، يشتهر بها، حسب ظروف المنطقة ، وحاجة الناس ، ونوعية البيئة التى يمكن أن تفيد من وجوده بهـا (١) .

ولا تقف كرامة الولى فى حياته ، بل تمتـــد بعد مماته ، بل أن بعض الناس يزداد إيمانهم بكرامة الاولياء بعد موتهم ، عن إيمانهم بهم ، فى حياتهم .

---

(١) راجع علاقة البيئة بالولى ـ بالـكتاب .

ولقد أتضح من الملاحظة بالمشاركة أن كثيرا من المعمرين يدلون بقصص عن خوارق العـادات للأولياء الموتى الذين عاصروهم فى حياتهم وجميعها تبدو كالأساطير، وهذه الكرامات يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وترتبط بالولى صاحبها مما يزيد من إعتقادات الناس فى ولايته .

ومن ناحية أخرى فإن المريدين فى الطرق الصوفية بالمنطقة والذين قمنا بإستجلاء رأيهم فى موضوع الولاية قد أجمعوا على أن الولى الصادق يمتاز بإثنتى عشرة علامة هى : —

العلامة الأولى : «أن يكون عارفا بالله ، أى صاحب علوم كشفية ، وأسرار ربانية وفراسات وبصيرة صادقة ، وهو مايمتاز به صاحب العرفان الصوفى .

العلامة الثانية : «أن يكون مراعيا لأوامر الله، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ، ويحافظ على التكاليف والفرائض الشرعية .

العلامة الثالثة : «أن يكون متمسكا بسنة النبى، لان الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة وهو قطب الأقطاب .

العلامة الرابعة : «أن يكون دائم الطهارة، فلا يعقل أن يكون ولياً لله وهو غافل عن الحق تعالى ، غير مستعد لأنواره .

العلامة الخامسة : «أن يكون راضيا عنه الله تعالى ، أى يكون مراداً لله أى مقربا اليه تعالى وهى منزلة عظيمة .

العلامة السادسة : «أن يكون موافقا لما وعد الله به، أى مسقطا للتدبير مع الله ، متوكلا بالكلية عليه تعالى فى كل أمر وفعل .

العلامة السابعة : «أن ييأس بما فى أيدى الناس، وهـذا ما معناه الزهد فى الخليقة ، والقرب من الحقيقة، أى اقبال على الله وأدبار عن الناس .

العلامة الثامنة : «أن يتحمل أذى الناس» وذلك بالإحسان اليهم ، ونسيان ظلمهم ، والإستغفار لهم .

العلامة التاسعة : «أن يكون مبادرا لأوامر الله» فلا يتأخر فى طاعة الله ، ولا يتغافل عن واجب من الواجبات .

العلامة العاشرة : «أن يكون شفوقا على خلق الله» فيساعد المحتاج، وينتصر المظلوم ، ويدفع المكروه ، ويجرى فى مصالح الناس .

العلامة الحادية عشرة : «أن يكون متواضعا للناس» فلايتكبر ولا يغتر بعلمه، وتقربه من الله.

العلامة الثانية عشرة : «أن يكون عالماً بأن الشيطان عدو كما أخبره به الله» خوفا من الوقوع فى براثن الشيطان فيحذر من الخواطر الشيطانية ويخالف هوى النفس وحظوظها .

ولذلك فإن الشيخ المربى فى الطريق الصوفى يعتبر فى رأى المريدين من الأولياء حتى ولو ظهر منه بعض تصرفات أو سلوك شخصى يراه عامة الناس عيبا اخلاقيا ، أو نقصا فى شخصيته أما المريدون فينظرون لشيخهم المربى على العكس من ذلك ، فيرون أنه لا يصح إنتقاده ظاهرا أو باطنا لأن معنى ذلك الخروج عن الأدب ، وتقصير عن معرفة مكانة الشيخ ، وضعف فى أخلاق المريد .

وقد تم إجراء بحث على مائة من مريدى الطريق من الذكور والإناث لقياس المواقف بين الشيخ والمريد ، واتضح من نتائج البحث أن العلاقة التى تربط المريد بالشيخ (الولى) متعددة الجوانب فهى علاقة أبوية ، وروحية وشخصية .

ويعتقد المريدون أن الشيخ أو الولى قوة لا تقهر بل ان المريدين يشعرون انهم فى مدرسة استاذها الوحيد هـــذا الشيخ، ويؤمن المريدون إيمانا جازما ان شيخهم من رجال الغيب ، من الأقطاب أو الأبدال أو من أهـل البـاطن أو من الزاهدين وجميع هذه المسميات تدخل فى باب الولاية العامة .

الفصل الثالث

قطب المنطقة

اتضح من البحث الميدانى أن قطب المنطقة هو السيد/ أحمد البدوى ، وأن أولياء المنطقة جميعا وزرائه واتباعه وأنه منذ مجيئه الى هذه المنطقة أى إلى مدينة طنطا فى القرن السابع الهجرى خضع له جميع الأولياء الذين عاشوا قبله بالمنطقة وتتلمذ عليه من بقى بها ، وخرج مهاجرا الى منطقة أخرى من لم يجد له مكانا فيها.

لذلك فإننا سنحاول أن نرجع إلى تاريخ السيد/ أحمد البدوى وسبب إنتقاله إلى المنطقة ، ونتتبع صفاته ، وأخلاقه ، وكيانه وعاداته ، وما كتب عنه فى المصادر التاريخية القديمة والحديثة علاوة على ما يقوله أهل المنطقة وكبار السن والعامة وما نقلوه عن آبائهم وأجدادهم عن البدوى رضى الله عنه .

سيدى أحمد البدوى

أجمع الباحثون والصوفية أن سلسلة نسب السيد/ البدوى تمتد الى الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كما قرر بعض الكتاب أن أسرته من أصل قريش وأنها إنتقلت إلى مدينة فاس بالمغرب عام ٧٣ هـ وقد أحبهم أهلها واعتقدوا فيهم إعتقاداً زائداً(١).

---

(١) هو الشيخ المعتقد الصالح أبو الفتيان أحمد بن ابراهيم بن محمد بن بكر الفاسى الاصل المعروف بأبى الثامين ، السطوحى نسبة الى السطوح الذى اقام به ١٢ عاما ـ ولد سنة ٥٩٦ هـ وتوفى عام ٦٧٥ هـ عن ٨١ عاما ودفن بطنطا وضريحه مشهور ، ويزار من العام والخاص ويقام له مولد .

وقد ولد البدوى عام ٥٩٦ ﻫ وقيل أن أمه قد رأت فى المنام عند ولادته من قال لها : «ابشرى فقد ولدت غلاما ليس كالغلمان(١) .

وقد رحلت أسرة البدوى إلى مكة وهو مايزال صبيا لم يجاوز السابعة من عمره ولكن هذه الرحلة تركت أثراً كبيراً فى تكوين شخصية البدوى ، حيث أنهم قد مروا بمصر وسكنوا بها أكثر من خمس سنوات ، ويرى بعض الباحثين أن البدوى أحب مصر وأحب أهلها ، بدليل رجوعه إليها والاقامة بها بعدذلك.

وفى مكة أشتهر السيد / البدوى ، وسمى العطاب ، والغضبان ، ثم حدث له حال ، وتغيرت أحـــواله ، واعتزل الناس، ولزم الصمت ، وكان لا يتكلم إلا بالإشارة ، وقد أمر فى منامه ، أن يرحل الى طنطدتا أو طنطا كما تسمى فى الوقت الحاضر . وبشر بحال سيكون له فيها شأن عظيم.

ويقول بعض الباحثين أنه سار وأخـوه السيد/ حسن من مكة فى شهر ربيع الأول الى العراق ودخل بغداد ثم جالا فى البلاد ، ثم عاد حسن الى مكة وحده وتأخر السيد / أحمد البدوى فى الرجوع معه .

ويقال أن هناك أسبابا حدت بأحمد البدوى الا يرجع مع اخيه من العراق ويذكر الإمام الشعرانى هـذه الأسباب فيقول : وفى العراق تلقاه أشياخهـا منهم عبد القادر الجيلانى المتوفى ٥٦٠ ﻫ وأحمد الرفاعى المتوفى ٥٧٠ ﻫ — وبطبيعة الحال المقصود بالقاء عن طريق الإلهام أو بالتوجه اذ الزمن مختلفـــوعرضا عليه مفاتيح العراق والهند واليمن والروم والمشرق والمغرب ، ليختار أى مفتاح يشاء ، فقال لها : «أنا لا حاجة لى بمفاتيحكما . . ما أنا آخذ المفتاح إلا من الفتاح

---

(١) الشيخ جمال الدين الاتابكى — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٣/٢٥٢

وفى العراق ذهب السيد / أحمد البدوى إلى « فاطمة بنت برى » فى أم عبيده ، وكانت إمرأة ذات حال عظيم ، وجمال بديع ، تسلب الرجال أحوالهم ، فسلبا أحمد البدوى حالها وتابت على يديه (١) ويجوز أن يكون سبب تخلف السيد/البدوى عن أخيه قد جاء بأمر علوى وجه إليه ليؤدب هذه المرأة التى كانت تسلب الرجال الصالحين أحوالهم ، ثم يروى لنا بعض المؤرخين إنتقاله إلى طنطا فيقول: «ثم رأى الهاتف فى منامه يقول له: «ياأحمد سر إلى طندتا ، فانك تقيم بها، وتربى بها رجالا وأبطالا عبد العال ، وعبد الوهاب ، وعبد المجيد ، وعبد المحسن ، وعبد الرحمن، وهم تلامذة البدوى المدفونين حاليا بطنطا .

ومن العجيب أن البدوى دخل طنطا ولم يكن يعرف أحدا من أهلها ، ولم يشر أحد من الباحثين من أنه قد زارها فى حضوره إلى مصر مع أسرته قبل التوجه إلى مكة .

ويرى صاحب نور الأبصار أن البدوى نزل فى بيت إبن شحيط ولم يشر أحد انه سبق أن عرفه وأقام البدوى على السطح ، وذلك لعدم احراج أهل البيت ، وكان يمكث أربعين يوما فاكثر لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، ثم نزل مرة إلى قرية فيشا وتورمت عيناه ، فوجد صبيا وطلب منه بيضه ليضعها على عينيه ، فقال له الصبى : ـ وكان عبد العال (تلميذه) ـ أحضر لك البيضة وتعطينى الجريدة الخضراء التى معك، فقال له نعم... فلما طلب الصبى من أمه البيضة رفضت ، فرجع فقال له الشيخ : « أئتنى بواحدة من الصومعة ،فذهب الطفل وأحضرها له ، ومن يومها لم تنقطع الصلة بين البدوى وعبدالعال (٢) وهذا يدل على أن السيد/البدوى كان من أصحاب الفراسات .

---

(١) الشعرانى ـــ طبقات الصوفية ـ أحمد البدوى ص ١٥٨

(٢) هذه القصة توضح الاسباب الظاهرية لرحلة البدوى إلى طنطا وتعاونه مع تلميذه عبد العال ـ كما توضح أيضا ولايه البدوى وكراماته .

صفات البدوى :

كان رضى الله عنه (١) غليظ الساقين ، طويل الذراعين ، كبير الوجه اكحل العينين ، طويل القامة قمحى اللون ، وكان فى وجهه ثلاث نقط أثر جدرى قديم فى خده الايسر ، وعلى أنفه شامتان من كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة وكان بين عينيه جرح موسى وكان رضى الله عنه إذا لبس ثوبا لا ينزعه الا لغسل ، ولم يكن لديه إلا ثوبا واحداً ، يغسله ثم يلبسه مرة أخرى ، حتى يذوب ، وهذا كان من أخلاق سيدنا عمر بن الخطاب ، ولم يقل أحد أن سيدى أحمد البدوى كان قذرا فى ملبسه ومظهره ، إلا الحاقدين عليه والطاعنين فى الصوفية .

وكان يعلو وجه سيدى البدوى مسحة من الهيبة والجلال ، ولصوته غير الجهير نبرات حادة حاسمة ، وكان مرحا إذا شاء المرح ، لا يثنيه عن عزمه الا القضاء المبرم ، ولا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ضنينا فى اختياراته ، حريصا فى عباراته ، يعمل فى الخفاء وقل أن يعمل فى الظهور ، يغلب فى كلامه المزاح ولايقول إلا حقا ، ويتحدث باللغة العامية ، ويقول الشيخ أحمد حجاب وهو من المعاصرين ومن مريدى سيدى البدوى المشهود لهم بالزهد والصلاح .

« قلت لسيدى البدوى مرة : أن «فلانا» غاضب منى من أجل كذا وكذا فاجبنى بقوله : ينفلق (٢) .

---

(١) المعروف أن سيدى أحمد البدوى كان ملثما ولم يكن يظهر وجه لاحد ويجوز أن تكون صفاته هذه عن طريق التوجه أو الالهام أو عن طريق الرؤيا .

(٢) تعبير « ينفلق » هو فى تصورنا مافهمه عن طريق الرمز أو التوجه ويصح أن تكون العبارة بمعناها لابلفظها ، فمن غير المقبول أن يصدر عن سيدى البدوى لفظا جارحا وهو ولى من أولياء الله

أسماء البدوى :

سمى بالسيد ، وهو أجل القوم شهرة لانتمائه إلى النبى ﷺ ولزعامته ورياسته كما سمى بالقطب النبوى لان صفاته وحياته ومنزلته ومقامه تنبىء عن قطبانية بدون واسطة النبى ﷺ ، كما سمى بالزاهد لزهده إذا مات ولم يترك شيئا وأبو فراج لكشفه الغموم والازمات وهو عطاء من الله ، وأبو العباس يعنى الأسد ، والعطاب لانه يعطب من يؤذيه ، والقدوس أى — الطاهر ، والصامت لأن ذكره كان صامتا ، وله أسماء أخرى كثيرة .

صفات البدوى :

١) كان ملازما للصيام وكان يطوى أربعين يوما لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا .

٢) وكان يقول : ركعتان بالليل خير من ألف ركعة بالنهار » .

٣) كان يحب التوسل أى يسأله الناس وهذه سنة من سنن الله تعالى وكان متخلقا بأخلاق الله تعالى .

٤) كان يسعى لقضاء مصالح الناس وكان يسعى لخدمه غيره من الناس ، عن خلوص قلب وسلامة ضمير .

ومن الجدير بالذكر أن حبه لتأديه مصالح الناس ناتج من اخلاقه العربية ، حيث كان من عرب البادية الذين يعتزون بشخصيتهم ، ويرى الشيخ أحمد حجاب أن سبب ذلك يرجع إلى « لذة روحية » عند الذين اختارهم الله لاجراء الخير على أيديهم للعباد ، من قضاء خدمة إلى تيسير مصلحة للمسلمين أو خلاف ذلك .

كراماته :

يروى عن السيد / البدوى عديد من الكرامات ويتناقل جمهور الناس هذه

الكرامات إلى وقتنا الحاضر وسنقتصر فى سرد بعض منها عما له علاقة ببحثنا ، ومن هذه الكرامات : —

١) أراد عبد المجيد شقيق سيدى عبد العال خليفه البدوى الأول أن يرى وجه السيد/ البدوى ، فقال له سيدى البدوى: (وكان ملثما كما هو معروف عنه) « نظره برجل » . فقال عبد المجيد : « أرنى وجهك ولو أموت » فكشف سيدى أحمد البدوى وجهه ، فصعق ومات على الفور [١] .

٢) اراد الشيخ دقيق العيد وكان من العلماء فى عصر البدوى أن يفضح البدوى ويكشفه أمام الناس وكان ينكر طريقته ويعتبرها مخالفة للشرع ، فحضر مرة بمجلسه فقال له البدوى : — « اسكت وإلا أطير دقيقك » . ودفعه دفعة واحدة فوجد الشيخ دقيق نفسه على جزيرة مجهولة لا يعلم لها طـولا ، ولا عرضا ، وأخذ يستغيث ويبتهل إلى الله فوجد رجلا له هيبة وجلالا فسأله عن حاجته ، فأفضى الشيخ دقيق ما كان بينه وبين البدوى فأشار عليه أن يذهب إلى قبة فى الجزيرة حيث كان البدوى يصلى فيها العصر بجماعة من الرجال ، وقال له إذا صليت معهم ، فقبل يد البدوى ، واكشف رأسك وقل له أستغفر الله ، وأتوب إليه ولا أعود لما صدر منى ، فاذا رأى ذلك منك ، فانه يردك لموضعك ، وكانت الجزيرة كما يروى بعض الصوفية تبعد ٦٠ سنة ، كما قال بعضهم أن الذى قابله فيها هو سيدنا الخضر عليه السلام [٢] .

ولقد أطاع الشيخ دقيق العيد ما أشار له الرجـل ، وفعلا سامحه البدوى

---

(١) لأن الولى يرى بنـور الله ولا يمكن أن يراه على حاله النورانى إلا من كان قدمه عال فى الولاية الروحية أما العامة فأنهم فيذهلوا من هذه الانوار فأما ينجذبوا وأما ينطلوا

(٢) الشعرانى — الطبقات الصوفية — جـ١ من ١٥٨ — ١٦٤ .

ودفعه دفعة لطيفة وقال له اذهب فان عيالك فى إنتظارك ولم يشعر دقيق العبد إلا وهو واقف بدار بيته .

٣) يروى أن أحد علماء المحلة حضر لمصر، ووجد الناس مهتمين بأمر البدوى ومولده والنزول فى المركب فانكر ذلك وقال : « هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء الناس بزيارة نبيهم ﷺ مثل اهتمامهم بالبدوى » فقال شيخ واقف « سيدى أحمد البدوى ولى عظيم » فقال الرجل : « فى هذا المجلس من هو أعظم منه مقاما » ويقصد بذلك شخصه ثم دعاء أحدهم ، فأكل سمكا فدخلت فى حلقه شوكة ، ولم ينفع معه علاج ، وأصبح حلقه كخلية النحل » وفقد شهيته ، وأمسى لايلتذ بطعام أو شراب ، وبعد تسعة شهور تذكر سبب بلائه فقال لأسرته : أحملونى إلى قبة سيدى أحمد البدوى . . . . وهناك قرأ سورة يس وعطس عطسة . . . . فخرجت الشوكة مغمسة بالدم من حلقه ، وتاب بعدها عن الغيبة فى سيدى البدوى[١] .

٤) أنكر الشيخ خليفة وهو من مواطنى الغربية حضور أهل بلدته مولد البدوى، فوعظه الشيخ الشناوى وكان من أتباع البدوى ، فلم يرجع فشكاه[٢] للسيد/ أحمد البدوى فقال له : ستطلع له حية (أى مرض جلدى) ترعى فى فمه ولسانه ، فطلعت له من يومها وأتلفت وجهه ومات بها .

٥) « روى لنا الإمام السيوطى فى حسن المحاضرة ، أن من كرامات السيد أحمد البدوى المعروفة عنه » ما حدث مع المرأة التى لاذت به لاسترجاع ولدها ، الذى أسره الافرنج ، فأحضره السيد/ البدوى إليها مكبلا فى قيوده » .

وتدل هذه القصة على قدرة البدوى رضى الله عنه على طى المكان، وقلب الأعيان، وهى من كرامات الأبدال فى الحكومة الباطنية .

---

(١) وهذا مؤيد بالآية الكريمة « إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(٢) الشكوى هنا بطريق غير حسى أى بالالهام أو الرؤيا أو التوجه .

٦) قصة الرجل الذى مر به السيد/ البدوى ، وهو يحمل قربة لبن ، فأومأ إليه باصبعه فانكسرت القربة ، وانسكب اللبن منها ، وخرجت منهـــاحية، وقد انتفخت ، وهذا دلالة على أنه مكشوف عنه الحجاب . ومن أهل البصيرة النافـذة .

٧) قصة الحجر الأسود الذى شاع أن عليه قدم النبي ﷺ ، وأرسل أحد السلاطين الجند لإحضـــاره فلم يقدروا على ذلك ، وخافوا ورجعوا . وهذا الحجر مازال موجوداً بضريحه يشاهده الزوار ، وهذه القصـة تدل على أنه من الأولياء الكمل ، أصحاب التمكين ، والمقامات الرفيعة .

٨) يتجمع الناس فى مولد البدوى حول «صارى» خشبى طاله وذلك فى الليلة الختامية للمولد ويؤكد المجتمعون أن الصارى نفسه يهتز ويميل مع مئات المنشدين والذاكرين ، ولهذا تكتظ ساحة الصـــارى بما يزيد على ربع مليون شخص فى انتظار زيارة الرسول ﷺ ، والسيد / البدوى لهذا المكان ، وهـذا اعتقاد شائع عند طوائف الصوفية ، بل ولدى جمهرة الناس أيضا .

وهناك كرامات أخرى للسيد / أحمد البدوى لا تحصى ولا تعد ، موجودة بالمراجع ، وكتب الصوفية ، وأيضاً من أقوال المريدين ، الذين تمت مقابلتهم ، ويجتمع فى السيد / أحمد البدوى كثير من الاعتقادات ، والكرامات ، مثل شفاء المرضى ، وتفريج الكروب ، ونصرة المظلوم ، وقضـاء الحـاجات ، ولا ينقطع عن زيارة ضريحه سيل الزوار ، طوال اليوم ، منذ الفجر حتى صـــلاة العشاء ، ويصلى الجمعة بمسجده مايربو على ٢٠ ألف من المسلمين من مختلف أنحاء الجمهورية ومن البلاد الشقيقة والاسلامية .

وبعد الصلاة تقام حلقات الذكر من طوائف الصوفية المختلفة — وتسمع

من جمهور المصلين من يردد : « نظرة يا سيد » . . . « مدد يابو فراج » . . . « سايق عليك النبي » ياعم ياسيد . . . « ياجيب الأسارى من بلاد النصارى » . . . « يابدوى جاب اليسرى » (المقصود الأسرى) .

وينسب خلفاء السيد / البدوى له بعض الكرامات الغير موافقـــة للشرع ، كإحياء الموتى ، كما نسبوا إليه أيضاً ، أنه يدرى ماذا يكسب فلان ، ويدرى الأرض التى سيموت عليها فلان ، وهذه مبالغات تم استبعادها من البحث .

الفصل الرابع

الجامعة السطوحية

تعد الجامعة التى أنشأها السيد/ البدوى والتى يمكن أن ندعوها الجامعة السطوحية ، من أكبر أعماله على الإطلاق ، فقد خرجت وما زالت تخرج حتى الآن علماء الفقه والدين الكثيرين، والذين أناروا لنا طريق المعرفة والحق والدين وقد تتلمذ على السيد/ البدوى أساطين الفكر والعلم فى عصره ، وخرجت مدرسته مدارس جديدة افتتحت لها فروعا فى كثير من أنحاء المعمورة ، تهدى الناس الى الرسالة المحمدية وتدعو الى الدين الحنيف والفضيلة والحق والاخلاق .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود عن هـــذه الجامعة «لقد كان السطح جامعة المنابة ، وهى جامعة عالمية ، تقبل كل التلاميذ من جميع الأقطار وتصدرهم الى جميع الاقطار أيضا ، وقد تخرج منها الشيخ البعلبكى ، وقد حمل الدعوة الى الشام، وكذلك الشيخ عبد الله اليونينى ، والشيخ خليل الشامى ، والشيخ المتكرورى المدفون بالشام ، والشيخ نعمة الصفدى، والشيخ عز الدين الموصلى ، ومن اليمن الشيخ على الكبراوى ، والشيخ علوان وممن أرسلهم السيد / البدوى الى اليمن الشيخ عوسج المصرى ، والى مكة الشيخ بشر وغيرهم كثير[1] .

أما تلامذته من غير أصحاب السطح فكثير أيضا كالفرغل بأبى تيج ، والتعلبى وابراهيم المتبولى بالاسكندرية ، وعز الدين الشوفى ، ومحمــــد المنير بالقاهرة ، والصامت وعلى والمجذوب، وعلى شعيب ، وبجامع الواسطى سيدى الوراق، وعلى العريان ، وعلى المجذوب، وكذلك سيدنا على باب الله ، ومحمد التبار، ومحمد الغربل،

---

(1) د. عبد الحليم محمود ـــ السيد/ أحمد البدوى ص٦١ وما بعدها دار الشعب سنة ١٩٦٩

وسيدى غوث بنى عدى بالصعيد ، وبالشام الجيلانى ، والشيخ محمد الشناوى بضواحى طنطا.

ويرى كثير من الجمهور بمنطقة البحث أن الأولياء بالمنطقة هم أتباع السيد / البدوى الذى هو قطبهم ونصيرهم ورئيس حكومتهم وأنهم يستمدون منه تعاليمهم وعلمهم .

ومن البحث الميدانى اتضح أن عدد الأولياء بمدينة طنطا نفسها ثلاثة وثلاثون وليا ، بخلاف الضواحى والذين يزيد عددهم على سبعة وستين وليا يختص كل منهم بكرامة معروفة عنه ويمتاز بها عن غيره من الأولياء .

ومن الملاحظ أنه بالرغم من وجود ضريح السيد/البدوى بالمنطقة ، فإن هذا لا يمنع الناس من الاعتقاد فى إتباعه ووزرائه من الأولياء وعلى العكس من ذلك تماما ، فإن مريدى البدوى فى إعتقاد العامة أيسر فى إستجابة الطلبات ، وفى حل المشاكل ، ونصرة المظلوم ، وفك المربوط ، لأن البدوى فى إعتقادهم قطب عظيم (وان مدده عال) وانه للوصول اليه يتطلب شفاعة بعض انصاره واتباعه .

واشهر تلامذة السيد/ احمد البدوى سيدى عبد المتعال الأنصارى ، وهو خليفته وواسطته والشفيع لديه ، وذلك فإن الناس الذين يزورون ضريح البدوى لايفوتهم قراءة الفاتحة وزيارة ضريحه الموجود بجامع البدوى بل وطلب حاجتهم منه باعتباره خليفة البدوى وتلميذه ونائبه.

ويلجأ الناس الى اتباع البدوى من الأولياء حسب ما يشتهر عن كل منهم من كرامة ، ويهرع اليوم الناس لحل مشاكلهم الاجتماعية والصحية والاقتصادية وغير ذلك .

فمثلا نجد سيدى عز الرجال (١) مشهور عنه شفاء أمراض الأطفال ، أما سيدى مرزوق فإنه من أهل النجدة ، وأما سيدى محمد البهى فيقال أن مسجده الحالى مازال يصلى فيه سيدى البدوى حتى الآن ، وأن سيدى على الحامولى مشهور عنه زواج العانس وكذلك يردد الزوار قولهم : « سيدى ياحمولى ، جوزنى وأنا أجيب لك شمعة طولى » .

كما يشتهر عن سيدى أحمد البابلى الذى كان مقربا فى حضرة البدوى ، بنصرة المظلوم ويردد الزوار قولهم : « يابابلى كن باب ـ لى » ، كما يشتهر عن سيدى يونس ماضيها بقضاء الحوائج ، ويظهر ذلك فى التعبير الشائع بين الناس : « يا ماضيها امضيها » .

وهناك علاقة واضحة بين الحرف الغالية فى المنطقة موضوع البحث وبين كرامة الأولياء ، فالمجتمع المدروس يغلب عليه طابع المجتمع الزراعى التجارى ، والمعروف أن الحرفتين غير محدد دخول أصحابها فمثلا يقال أن دخل صاحب الأرض الذى يزرعها غير معلوم مستقبلا ، لأن ذلك يرجع إلى ـ(البركة)ـ فهناك أرض طيبة إذا جاء موسم الحصاد فإن صاحبها لايغل منها دخلا مناسبا بل على العكس ربما يجنى خسارة ، وذلك نتيجة آفة تصيب المحصول ، فى حين أن هناك أرضا متوسطة الخصوبة بجوار الأرض الطيبة يغل صاحبها منها محصولا وفيرا ويرجع صاحبها ذلك إلى الاعتقاد السائد فى بركة ولى المنطقة .

ومن ناحية أخرى فإن التجار يحاولون كسب رضاء أولياء المنطقة وذلك

---

(١) هذا ما يتناقله الجمهور فى منطقة البحث .

بتوزيع الصدقات ، وإقامة الزينات ، فى موالدهم ، والإحســـان إلى الفقراء والمساكين ، وذلك التقرب بشتى الوسائل اليهم ، اعتقاداً فى بركتهم ، مما يزيد فى الرزق ، وتحقيق الكسب الوفير فيما يعرضونه من سلع .

ومن ناحية أخرى فإن هذا الاعتقاد ، يخدم طبقة التجار فينتشرون فى الموالد الكبرى والصغرى ، حول ضرائح الأولياء يعرضون بضائعهم ، ويجنون من ذلك ربحا وفيراً ، وذلك نتيجة لاعتقاد جمهور المشترين أن هذه السلع قد حظيت ببركة أولياء المنطقة .

والمعروف عن المجتمع الزراعى أنه عندما يتحقق للفلاحين ، عائدا طيبا من من بيع محاصيلهم ، فإنهم يهرعون إلى ضراح الأولياء وخاصة البدوى للشكر على ما أفاض الله عليهم من نعم بواسطة شفاعته ،ثم يقبلون على شراء جميع احتياجاتهم من كساء وأدوات ومشروبات ، ولعب لأطفالهم ، وهم سعداء لانها كما يقولون «من عند البدوى» أو من «عند أتباعه» ويرددون ذلك عندما يرجعون إلى قراهم ونجوعهم قائلين (أنا جبت لك .. من البدوى كذا) . ولا يذكرون اسم التاجر أو الصانع .

ومن ناحية أخرى نجـــد أن التجار أنفسهم يتعاملون مع بعضهم البعض ، ليس بلغة البيع والشراء ، وإنما بعبارات كلهـــا مستقاة من بركة الأولياء .

فالتعامل التجارى إذن بركة من بركات السيد البدوى ، وليس لأن الاسعار رخيصة أو مناسبة ، فالتاجر يروج سلعته على أساس مخاطبته المشترى بأنه يتوجب عليه أن يحصل على بركة من البدوى ، ســـواء كان ذلك من الحمص أو الحلوى ،

أو الملابس ، وفى نفس الوقت يقوم المشترى بشراء احتياجاته على أساس أنها من بركات البدوى ، وليس لأن سعرها مناسب أو رخيص .

فلغة التعامل إذن قائمة على أساس البركة التى بواسطتها تروج السلع ، وليس على أساس أنها نوع ممتاز ذا أسعار مناسبة ، ومن هنا يتضح أن نظرية العرض والطلب ونظرية المنافسة ونظرية السوق وغير ذلك من النظريات الاقتصادية لاتنطبق على المجتمع الصوفى .

الفصل الخامس

الطرق الصوفية وتفرعاتها

بمنطقة البحث

تنتشر كثير من الطرق الصوفية بمنطقة البحث فى الموالد والأعياد الرسمية ، رافعة راياتها ، مرددة أناشيدها ، داعية بأورادها ، مرتلة أناشيدها ، ويبقى كل شيخ طريقة سرادقا يستقبل فيه المريدين والأصدقاء والأحباء . . . وتقدم الطعوم والمشروبات ، ويستمع الحـــاضرون إلى آيات القرآن الكريم ثم يشتركون فى الحضرات ومجالس الذكر .

وترجع أغلب هذه الطرق إلى الأقطاب الكبار الرفاعى، والجيلانى، والبدوى والدسوقى، والشاذلى رضى الله عنهم جميعا ... ولكن يجدر الإشارة إلى أن بعض المشايخ قد انفصل عن الأصل ، واستقل بطريقة اقترن اسمه بها ، كما أن بعضهم قرن اسمه بالطريقه الأصلية كما سنبين فى الجدول الموضح فيما بعد .

والذى يهمنا هنا أن هذه الطرق مع تباين راياتها ؟ واختـلاف مسمياتها ، لاتتنافس فى اظهار أفضليتها على الطرق الأخرى ، ولاتسخر طريقة من أصحاب طريقة أخرى كما يلاحظ لدى أصحاب الصناعة أو التجارة الواحدة ، وإنما يسود الوئام والود بين مريدى هذه الطرق ولا يطعن طريق فى طريق آخر ، وهذه هى الطرق الذى قام الباحث بملاحظتها بمنطقة البحث :

(١) الطريقة الأحمدية (لولى الله أحمد البدوى) ويتفرع عنها الطرق الآتية :

١) المحمودية
٢) المرازقة
٣) الكناسية
٤) المنايفة
٥) السلامية
٦) الحلبية
٧) التسقانية
٨) الشعبية
٩) الشناوية
١٠) السطوحية
١١) الامبابية
١٢) البيومية
١٣) الزاهدية

(٢) الطريقة الشاذلية (لولى الله أبى الحسن الشاذلى) ويتفرع عنها الطرق الآتية :

١) المرغنية
٢) القاسمية
٣) المدنية
٤) الهاندوسية
٥) السلامية
٦) الحامدية
٧) العزمية
٨) القاوجية
٩) الادريسية
١٠) العفيفية
١١) الجوهرية

(٣) الطريقة البرهامية (لولى الله ابراهيم الدسوقى) :

١) الدسوقية
٢) الشهاوية
٣) الشرنوبية

(٤) الطريقة الخلوتية (لولى الله محمد أبو خليل)

١) الحيفية
٢) المغازية

---

(١) المصدر الاتصال الشخصى (بمنطقة البحث) .

٣) الحبيبة — ٤) السلمية
٥) السمانية — ٦) المصلحية
٧) الغنيمية — ٨) الدمرداشية
٩) الخضرية

طرائق اخرى :

الرفاعية ـ الجيلانية ـ القادرية القاسمية ـ المراوية الحصافية ـ الشيبانية ـ التغلبية ـ القادرية الفرضية ـ العروسية ـ التيجانية الصالحية ، ويلاحظ التفرعات الآتية :

١) الأحمدية تتفرع بالمنطقة إلى ١٢ فرعا غير الأصل وتقترن جميع هذه الفروع بالأحمدية .

٢) الشاذلية تتفرع إلى ١١ فرعا غير الأصل وتظهر فرقها في المولد الأحمدى وتقرن فروعها بالشاذلية .

٣) الخلوتية تتفرع إلى ٩ فروع غير الأصل وتقرن بالأصل .

٤) طوائف أخرى : أكثرها يرجع إلى سيدى الجيلانى كالقادرية، والقاسمية وسيدى أحمد الرفاعى كالرفاعية .

ويتضح من هذا البيان أن غالبية الطرق الصوفية في منطقة البحث ترجع إلى الأقطاب الأربعة وهم : عبد القادر الجيلانى + ٥٦٠ هـ أحمد الرفاعى + ٥٩٠ هـ أحمد البدوى + ٦٧٥ هـ ابراهيم الدسوقى + ٦٧٦ هـ رضى الله عنهم ويمكن أن نضيف اليهم سيدى أبو الحسن الشاذلى + ٦٥٦ هـ .

ويلاحظ أن هؤلاء الأقطاب قد عاشوا في أواخر القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الهجرى ، أى بفارق زمنى من ٥٠ إلى ٧٠ عاما ، كما يلاحظ أنه لم يكن لأقطاب التصوف في الطرق الأخرى

شهرة واسعة وتلاميذ منتشرون فى بقاع الأرض كما لهؤلاء الأقطاب من الشهرة الواسعة التى انتشرت فى بلاد الإسلام وغيرها ، كذلك لم يظهر من أئمة وأقطاب التصوف من لهم تلاميذ وأتباع بعد القرن السابع الهجرى مثل ما لهؤلاء الائمة مدارس وأتباع وطرق حتى الوقت الحاضر ، إلا أنه مما يجدر الإشارة إليه أنه قد تعددت الفروع بعدهم بتعدد من أخذها عنهم مباشرة أو بطريق الرؤيا أوالتوجه أو بالواسطة ونسب بعضها إلى الآخذين عنهم متفرعة عن الأصل أى إلى أحد السادة الأقطاب الخمسة .

ونحن لا نريد أن نؤرخ تاريخ كل أحد منهم فى هذه الصفحات ، إلا أنه من الضرورى أن نشير إلى الطرق الصوفية هنا فى منطقة البحث .

وكما سبق الإشارة فإن قطب المنطقة هو بلا شك سيدى أحمد البدوى بدون المقابلة بينه وبين غيره من الأقطاب من حيث المقام ، والمعروف كما سبق الإشارة أن مريدى الطريقة الأحمدية يختلفون إلى أربعة عشر طريقة .

أما الطريقة البرهانية فتتفرع إلى ثلاثة طرق ، وتتفرع الشاذلية إحدى عشر طريقة وهناك طرائق أخرى كالرفاعية والقادرية والقاسمية لها فروع أخرى والملاحظ أن القادرية هى الطريقة الوحيدة التى ليست لها فروع أخرى .

وكثير من هذه الطرق يندمج بعضها فى بعض كالشاذلية القاسمية،والأحمدية البيومية ، والخلوتية التى ترجع إلى سيدى أحمد أبو خليل [٢] والتى تنقسم إلى تسعة طرق غير الأصل .

---

(١) على (باشا) مبارك — الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩–١٣٠

(٢) د . توفيق الطويل — التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ص ٧٢ طبعة مكتبة الجاميز .

وهذة الطرق رغم فروعها المتعدده فإنهـــا كما سبق الاشارة ترجع إلى أصل واحد ينحصر فى الأقطاب وهم الائمة الكبار ، وجميع هذه الطرق تظهر مراسمها — كما أظهر البحث — فى مولد السيد أحمد البدوى وتتميز كل طريقة منها بعلامات مميزة ، وأعلام ينقل عليها اسم صاحب الطريقة علاوة على عمامات المريدين الخضراء والحمراء والسوداء التى تشير إلى الطريقة التى ينتسبون إليها — كما توضح من البيان السابق بأسماء الطرائق الصوفية فى منطقة البحث وفروعهـا والتى بلغت حوالى ٤٨ طريقة وليس معنى ذلك أن هذه الطرق الموجودة بجمهورية مصر العربية جميعا وإنما هى الطرق التى تم ملاحظتها ميدانيا .

الفصل السادس

نبذة عن بعض أولياء المنطقة وما يشتهر عنهم

تكلمنا فى الفصول السابقة عن سيدى أحمد البدوى ، وعن كراماته وشهرته الواسعة بالمنطقة ونود فى هذه العجالة أن نذكر شيئا عن بعض أولياء المنطقة وما يشتهر عنهم ، إذ أنه قد اتضح من البحث أن أتباع السيد البدوى من الأولياء ليسوا جميعا يعاصرون فترة زمنية واحدة ، بل أننا نجد بعضهم قد توفى من قرون بعيدة فى حين أن بعضهم مازال حيا ، ومن أشياخ الطريقة الأحمدية ، وسنحاول هنا أن نعطى فكرة عامة عن بعض هؤلاء الأولياء وما اشتهر عنهم من كرامات .

سيدى عز الرجال :

المشهور عنه شفاء الأطفال ، ولذلك تأتى إليه النساء من كل حدب وصوب ، حاملات أطفالهن المرضى بغية الشفاء ، وهو معروف عنه شفاء الاطفال من المس الروحى ، وغيره من الأمراض العصبية وهو مغربى الأصل ، ويقـام له مولد ويزار ويزداد شهرته سنة بعد أخرى .

سيدى مرزوق :

يقال أنه كان موجوداً بطنطا قبل حلول سيدى البدوى كما يقال عنه أنه من أهل النجـدة ، ومن كراماته أنه لايقصده مظلوم إلا وينصره — وكثيرا من النساء يذهبن بعد صلاة الجمعة إلى مقامه ، ويقمن بكنس الضريح على الظالم ، وهذا يعنى كنسه من الدنيا .

سيدى محمد البهى :

مات من عهد قريب وإليه تنتسب عائلة البهى ، وكان عارفاً بعلم الحرف ، ودعوته مستجابة ، وفى مولد البدوى يبدأ ركب خليفة السيد / البدوى من مسجده فى الليلة الختامية . وقد جدد مسجده وكان يسمى قبلا مغنى باسم جامع البوصة الذى كان يتعبد فيه السيد البدوى أثناء حياته .

الشيخ محمد رمضان :

يقول الجمهور عنه أنه ولد فى أسرة غنية تملك أراضى واسعة ، وعقارات ، وخزائنة مملوءة ذهبا ، حتى أنه ورث — لقب (أبو الذهب) كناية عن كثرة المال، وقد واجه أسرته بشجاعة، واتهمها بأنها ورثت هذا المال عن طريق حرام، وطالب الأسرة بتوزيع الثروة على الفقراء والمساكين، فاتهم بالجنون وأرسلوا به إلى مستشفى المجاذيب، فلم يلبث غير قليل أن خرج منها هائماً على وجهه،زاهداً فى الدنيا ، واتخذ من طنطا مقراً له وأقام فيها حتى توفى سنة ١٩٤٧ .

والعجيب — كما روى بعض الجمهور — أن تاريخ وفاته مجموع أعداده ٧٨ إذ توفى فى ٧٤/٤/٢٧ م . كما أن تاريخ الوفاة مجموعه بالتقسيم الهجرى ٧٨ إذ توفى فى ٦/ ٦ / ٦٦ ومجموعها ٧٨ أيضاً ، لذلك اعتبر تاريخ وفاته كرامة من كراماته .

أما عن كراماته فى حياته والتى تروى عن عديد من الأفراد ، مما قام الباحث باستخبارهم فكثيرة، ومن هذه الكرامات أنه كان من الأبدال فيظهر فى أكثر من مكان فى وقت واحد ، وأنه كان يشفى الأمراض ، ومن كراماته إحضار الفاكهة فى غير أوانها ، وكشف الحجاب ، وتفريج الكرب عن المكروبين ، ويروى هذه الكرامات أيضاً كثير من المثقفين .

الشيخ محمد أبو شوشة :

مكث حياته فى العراء بدون مأوى حتى توفى عام ١٩٤٣ وكان لا يمسه برد الشتاء ، أو حرارة الصيف ، ويتلقى ذلك برضا ، وراحة مستغرقاً فى التأمل ، والتفكر ، ويقضى ليله عابداً متبعداً • أما نهاره فيقضيه ساكنا ، وقد يصبح فى بعض الأحيان منجذباً ، ويتحدث بإشارات يفهمها كل زائر له وصاحب مشكلة وكان يأتيه الطعام فيوزعه على الفقراء والمحتاجين .

وقد ولد فى قرية الرحمانية مركز دسوق وحضر إلى محلة مرحوم ١٩٢٨ ولقد قام الباحث بزيارة محلة مرحوم أكثر من مرة • واتضح له أن كثيرا من شيوخ أهل القرية عاصروا الشيخ شوشة وشهدوا له بالولاية ، وهم الآن يهرعون إلى ضريحه يتبركون به رغم وجود أكثر من عشرين ضريحاً لأولياء آخرين فى نفس القرية ليست لهم منزلته ، وهذا يعنى أن هناك درجات للولايات وفروق فى المقامات ، وذلك حسب قربة الولى من الله ، وحب الناس واعتقادهم فيه .

ومما روى عنه أنه كان مكشوفا عنه الحجاب وعنده القدرة على شفاء المرضى وإدخال الرضا والراحة النفسية فى قلوب المتصلين به ، وذلك عند مجالسته • أو ملازمته ، لهم وكذلك يشتهر عنه عطفه وبره على الفقراء والمحتاجين .

الشيخة صباح :

ينتهى نسبها إلى الحسين بن على رضى الله عنه ، وقد حضرت إلى طنطا بعد أن عاشت فترة متنقلة بين القاهرة ودسوق ؛ وتوفيت بطنطا فى ١١ مايو ١٩٠٩ ، وبيتها الموجود حاليا بطنطا فى شارع جانبي متفرع من شارع البحر وبجواره مسجدها الذى كان ومايزال ملجأ الفقراء والدراويش . والمعروف عنها أن كل من

يأتى إليها يعرف فضلها وكرمها وجودها ، لما توزعه على المشايخ والفقراء من عطايا وهبات كما أنها كانت تستضيف الغرباء .

أما كراماتها فكثيرة منها شفاء المرضى ، وخاصة النساء من العقم ؛ واحضار الفاكهة فى غير أوانها ، وتلقين المريدين الطريق إلى الله ، وإظهار خوارق العادات .

ويقول كثير من الجمهور أنها كانت ترى فى الحج فى مكة والمدينة وهى فى طنطا لم تبارحها ، ومعنى ذلك أنها كانت من الأبدال (١) ، ولها مولد يستمر أسبوعا فى كل عام وقد ماتت عن ٨٦ سنة .

الشيخ احمد حجاب :

من المشهود لهم بالصلاح والتقوى ، ويعتبره أهل طنطا من الزهاد الواصلين وله مكانة عالية عند أهل الطرق الصوفية وبين عامة الناس ، ولقد اتضح من البحث الميدانى أن كثيرا من الشخصيات المعروفة تزور السيد / أحمد البدوى ولا تنسى أن تذهب لتحية سيدى أحمد حجاب بجوار ضريح السيد/ البدوى وتقبيل يده والتبرك به .

وكان الشيخ أحمد حجاب من علماء الشريعة وهجر التدريس وإلقاء الدروس وفضل أن يجلس بجوار البدوى متعبدا زاهدا راضيا . وكان يمتلك إثنى عشر فدانا وهبهم لأخيه المدرس بالمعهد الدينى بطنطا مقابل مؤنة يومه ، وهو دائم الصوم ، وروى الشيخ على عطية إمام المسجد الأحدى للباحث أنه لا يكاد يراه يأكل شيئا ، وأنه زاهد فى الدنيا بمعنى الكلمة ، وهو خادم لمن استشاره ولم يسمع أحدا عنه أنه أغضب إنسانا أو ذم فى أحد . أو أكل شيئا مشبوها ويقول : أن

(١) راجع الأبدال فى الكتاب .

من أخلاقه أنه لا يدع أحدا يقدم له الماء أو الأكل ، فإذا أراد شراء شيء فانه يذهب بنفسه خوفا من الشبهة ، ذلك لأنه إذا أرسل أحدهم فى طلب فسيقول : « إن الشيخ حجاب يريد كذا وكذا » فيقدم له البائع ما يريد بلا مقابل أو يزيد فى حجم المطلوب أو يبيع له بالخسارة ، وهذا ما يرفضه حتى أنه إذا أراد أن يشرب فإنه يذهب بنفسه ويملأ زجاجته بالماء ويضعها إلى جواره .

والشيخ أحمد حجاب كتاب يسمى « العظة والاعتبار » وهو ترجمة عن السيد/ البدوى ، وقد قام المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بطبعه على نفقته أكثر من مرة ونفذ من السوق فورا ، ويقول إمام المسجد الاحمدي : أنه سمع من الشيخ أحمد حجاب أنه قد جاءه أمر علوى أن يوقف بيع الكتاب وفعلا لم أجد نسخة منه فى طنطا ، واضطررت للاستعانة بالشيخ على عطيه شيخ الجامع الأحمدى لإعارتى نسخة منه .

ولقد حاولت أن أجد مجالا للحديث مع الشيخ حجاب ولكن كانت أجوبته على أسئلتى محدودة ولا تعطى ماهو مأمول من ردود ، وعنـدما فشلت فى استدراجه فى الحديث قلت له : إنى أكتب رسالة عن البدوى ، وأريد أن أشيد بولاية سيدى البدوى الروحية .

فأجاب ... وهل السيد البدوى يحتاج إلى تعريف أو دراسة . . ولقد علمت من نائب الطريق الاحمدى أن الشيخ حجاب على اتصال روحى بالبدوى وأن من يحضر إلى ضريح البدوى بين صلاة المغرب والعشاء يسمع الشيخ احمد حجاب يتكلم ويسمع ويشير بيديه ويحرك رأسه بالموافقة أو الرفض .

والشيخ حجاب مثار للاحترام من القريب والبعيد ورأيه نافذ فى الاستشارة وهو متواضع جدا « وجميع الناس يلقبونه بشيخنا حتى إمام المسجد الاحمدى .

وقد روى أستاذى الدكتور محمد ثابت الفندى أنه رأى الشيخ حجاب فى رؤية فذهب لزيارته ... وأرسل أحدهم إلى سطح الجامع الأحمدى حيث يقيم الشيخ حجاب ليستأذنه فى مقابلته .. ورفض الشيخ حجاب فتح الباب له .

ثم صعد اليه الدكتور ثابت الفندى فاذا باب الشيخ يفتح وينـاديه برسمه ويقابله بالترحاب . ولما سألت الدكتور ثابت رأيه حقيقة فى هذا الشيخ أكد لى أن هذا الرجل من الأولياء الصالحين .

ولا يظهر الشيخ حجاب كراماته دائما وإنما يتمسك بأحكام الشريعة ويؤدى الفرائض وله من العمر ما يربو على المائة عام .

الفصل السابع

بعض أولياء ضواحى طنطا
قرية سبيرباى (كنموذج)

تبعد هذه القرية عن مدينة طنطا حوالى ثلاثة كيلومترات، ويوجد بها عديد من ضرائح الأولياء الذين ينتسبون بالنسبة الروحية للسيد/ البدوى رضى الله عنه .

وقد استخلص الباحث من أقوال أهل المنطقة ومن الملاحظة المباشرة وغير المباشرة أن أغلب أصحاب الضرائح الموجودة بالمنطقة قد عاصروا سيدى أحمد البدوى وهم من مريديه وأتباعه ، كما أنهم عاشوا فى هذه المنطقة التى ماتوا فيها بناء على أوامر البدوى رضى الله عنه بصفته قطب الأولياء[1] .

ويبلغ تعداد قرية سبيرباى حوالى ٩ آلاف نسمة [2] ، ومن المعروف أن هذه القرية لم يدخلها الكهرباء والمياه إلى من عهد قريب جداً ، وقد استخدمت الإنارة فى تشغيل بعض الصناعات البسيطة .

وتمتاز قرية سبيرباى بتعاون أهلها ومشاركتهم بعضهم بعض فى المناسبات المختلفة ، وقد تبين ذلك من البحث، إذا تصادف أن شب حريق بالقرية فى محصول القمح الذى كان مخزناً بالساحة العامة للقرية فقام جميع أهل هذه القرية من الشيوخ والنساء والأطفال والرجال فى المشاركة كل على قدر طاقته فى إطفاء

---

(١) راجع القطب بالكتاب

(٢) الاحصاء السكانى سنة ١٩٦٠ .

الحريق رغم خطورة الموقف وقوة إندلاع النار فى الهشيم ، إذ أحضر كل فرد من بيته إناء وساهم فى اطفاء الحريق ، وكان هذا الحادث دليلا ومثالا فى الأخوة والمحبة والتعاون الذى يستبعد أن نجده فى مجتمع آخر .

ويتعلق هذا التعاون بالاعتقاد السائد فى هذه المنطقة من أن الأولياء يحرسونها وأنه مهما كان الحريق كبيراً وخطيراً فإن الله سبحانه وتعالى سيحفظ أهل المنطقة من الضرر ، وذلك ببركة وجود ضرائح الأولياء بها .

ومن أشهر أولياء المنطقة سيدى محمد العمرى الملقب عند العامة بالحدرى ، وسيدى داوود العزب ، وسيدى محمد أبو الحجاج ويلقب بأبى حجاج ، وسيدى محمد مقلد ، والسعد عزبة ، وسيدى زين ، وسيدى العواض ، وسيدى ابراهيم ، ويشتهر كل من هؤلاء بكرامة معروفة يستفيد منها أهل هذه المنطقة والمناطق المجاورة وأحيانا يأتى بعض طالبى الحاجات من محافظات أخرى لزيارة بعض هؤلاء الأولياء والتبرك بهم ومساعدتهم فى تلبية حاجاتهم من شفاء وحل لمشاكلهم الاجتماعية والمادية .

وينظر أهل المنطقة لهؤلاء الأولياء نظرة اجلال واحترام ، كما أن وجود ضرائحهم بالقرية يشعر أهلها بالرخاء والسكينة والطمأنينة فهم فى اعتقادهم بمثابة الحراس على أموالهم وحياتهم وأولادهم .

والعجيب أن هؤلاء الأولياء ، رغم وجود مقام السيد/ البدوى كقطب للمنطقة . لهم شهرة عند مريديهم واعتقاد بالاستجابة السريعة لحاجاتهم ودعائهم ، أما السيد/ البدوى فيقال أن وباعه طويل ، وأن على الطالب أن ينتظر حتى يحقق له حاجته ، وأن يصبر حتى ينال بغيته .

أما صغار الأولياء فهم يتقبلون من أهل المنطقة سواء كانوا صغاراً أو كباراً

طلباتهم ويعملون على تحقيقها بطريق فورى ، وهذا الاعتقاد يشكل نوعا من الديمقراطية بين حكومة الأولياء ، ذلك لأنه مع وجود رئيس الحكومة وهو القطب الغوث فى المنطقة ، فلا يمنع ذلك من توزيع الاختصاصات إذ يشتهر بعضهم بعلاج الأمراض بل بتخصيص دقيق كعلاج أمراض الروماتزم أو عقم النساء أو شلل الأطفال ، كما يختص البعض الآخر بعلاج شلل الأطفال ، أو نصرة المظلوم ، أو كشف الجناة ، أو استجابة الدعاء .

وسنعرض فى السطور القادمة نبذة عن بعض أولياء منطقة سيهرباى كمثال لما نقول :

سيدى محمد العمرى :

يلقب العمرى أيضا بالحدرى نسبة إلى الانحدار وذلك للعلاقة بين كراماته وبين شفاء نوع من الامراض وهو الروماتزم ، ذلك لأن الذين يلجأون إليه يتدحرجون أمام باب ضريحه الذى هو عبارة عن منحدر واضح من الأرض .

والغريب أن هذا الولى له ضريح آخر داخل مدينة طنطا نفسها ومن هنا يتبين أن الولى يمكن أن يكون له أكثر من مقام وهذا يتمشى مع الدراسة النظرية ومع أقوال الصوفية من أن الأولياء من أهل التلوين يتقلبون ويتغيرون من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام أى أنهم من الأبدال أو البدلاء الذين يظهرون فى أكثر من مكان فى وقت واحد(١) .

ويعتقد أهل سيهرباى أن قطب القرية — مع وجود غيره كما سنبين — هو سيدى محمد العمرى «الحدرى» الذى يحضر إليه أصحاب الامراض من محافظات أخرى وذلك للعلاج خاصة من محافظتى الشرقية والمنوفية .

---

(١) راجع الابدال بالكتاب وكذلك ألفاظ الصوفية ومعانيها — المؤلف .

ويقول أهل المنطقة عن العمرى أن «سره باتع» وأنه من «الابدال»حيث يوجد له ضريح آخر بمنطقة طنطا (١).

سيدى ابو حجاج

أفاد أهل المنطقة أنه قد وجدت جثته سليمة تماما عند فتح مقبرته، وأن من كراماته وجود دبابير (جمع دبور) على قبته ويقال أنها وسيلته فى حرب أعداء الله.

ويروى أحد شيوخ القرية عنه أن أحد العسكر (خلال الاحتلال) نذر له نذرا عند خروجه من العسكرية، ولما خرج لم يف بوعده فوجد الدبابير على باب بيته ولم يستطع خروجا حتى وفى بنذره.

ويوجد بعض الأباريق القناوية داخل ضريحه والتى يوجد منهـا الكثير فى منطقة الاقصر، وهى مصنوعة من الفخار، ويقال أن أبو حجاج كان حليـا أى يحمل الماء من مكان إلى آخر، أى (سقا)، ويشتهر أبو حجاج بعلاج العقم عند النساء، فيحضرن إليه ويدورن حول قبته سبع دورات وهن يطلقن الزغاريد.

والغريب أن أبا الحجاج هذا يدترك فى القبو فى نفس الفترة الزمنية التى عاش فيها سيدى أبو الحجاج الاقصرى المدفون بالاقصر، وأن الأباريق القناوية تدل على صلة وثيقة بينهما مما يعتقد معه الباحث أن أبا الحجاج هذا هو سيدى أبا الحجاج الأقصرى المدفون فى مدينة الاقصر وأنه يجوز أن يكون له ضريحان كما نجد ذلك فى كثير من ضرائح الأولياء على أساس أنه من الابدال (٢).

---

(١) اتضح من البحث الميدانى أن لسيدي محمد العمرى ضريح آخر فى مدينة طنطا بشارع الصاغة.

(٢) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها المؤلف «الأبدال» وكذلك الابدال بالكتاب.

سيدى داود العزب

له ضريح بقرية سيدبأى وهو يتمتع بحب كبير من أهالى المنطقة نظراً لشهرته فى شفاء المرضى بصفة عامة، ويحكى أنه عند تجديد بناء قبته منذ ٥٠ سنة سقط أحد العمال ولم يصب بشىء. والمعـــروف أن سيدى داود له ضريح آخر بمنطقة (فطور) التى تبعد حوالى ١٥ كم من طنطا ولذلك فهو فى رأى أهـالى المنطقة من الابدال.

الست عزبة :

من المعروف عنها تمسكها بالشريعة والأخلاق ويحكى أن رجلا من أهل المنطقة كان دائم النظر فى النساء، وفى مرة ظهرت له سيدة جميلة فى أبهى حلة وأجمل وجه فتبعها، ثم إذا بهـا تدخل من باب ضريح الست «عزبة» وتختفى، فوقع على الأرض مغشيا عليه، وتاب بعد ذلك من النظر وتتبع عورات النساء.

سيدى زين :

يظهر لأهالى المنطقة فى الرؤيا ويجيب طلباتهم، وينفذ حاجاتهم، علاوة على الاعتقاد أنه يشفى الأمراض وقد أدلى بعض أهل المنطقة للباحث بكثير من هذه المرائى التى كانت تحقق لهم. . .

سيدى العواض :

وهذا الولى يشتهر - كما هو اعتقاد أهل المنطقة - بالقدرة - كـكرامة له - على اطفاء الحرائق فما من حريق يشب فى القرية إلا وينادى أهلهـا : ياسيدى ياعواض . . . فتنطفىء بإذن الله. والعواض من معنى أنه (يعوض) عن الخسائر

والملاحظ أن جميـــع البيوت فى القرية مصنوعة من الطين المغلف بقش القمح وتوضع فوقها القش ، وهذا يفسر لنا علاقة كرامة الولى بالبيئة واحتياج الناس إلى مساعدته وتعويضهم عن الخسائر التى فقدوها ، فهو يشكل الأمل والقدوة على التحمل وذلك ناتج من الاعتقاد فى التعويض عن الضرر ويجوز أن يكون «العواش» هو الاسم الذى اختاره له الناس ، حيث لم نجد بالمراجع شيئا عنه ولا فى طبقات الصوفية .

* سيدى ابراهيم :

وهو من الأولياء الصالحين ويقول أهل المنطقة أنه كان من أتباع سيدى أحمد البدوى ، ولقد أفاد أهل المنطقة الباحث ان سيدى أحمد البدوى هو مدد هؤلاء الأولياء وقطبهم الذى ينظر إلى زيارته عند العامه على أنها بمثابة حجة كاملة ، ويجوز أن يكون ذلك لعدم الاستطاعة للحج إلى بيت الله الحرام من انعقاد النية لذلك فتكون الزيارة البدوى باعتباره من نسل الرسول تقربا ورغبة ونيـــة صادقة ، وهذا مايجعل للولاية فى المنطقة مركزا مرموقا ومكانة عالية .

ولقد اشتهرت سيهرباى من قبل بكنيسة تسمى « الملاك » وذلك حتى القرن السابع الهجرى ثم حضر إليها كثير من أتباع البدوى لنشر الدعوة الإســـلامية وأقاموا بها بأمر علوى من البدوى وأفاد بعض أهـــالى القرية أنه لم يكن هناك أولياء بالمنطقة قبل حلول البدوى بطنطا والذى كان يعتبر زيتــا لمريديه ويذكر فعلا الإمام الشعرانى ذلك فى طبقاته إذ نقل عن البدوى رضى الله عنه قوله : «أنا زيت لمن لازيت له» وكان يوجه خطابه إلى مريديه .

وكان يوجد بهذه المنطقة قس يسمى عبد الملاك وكان على علم بالقرآن ويرتله وكان دائم الدعاء ليل نهار : يارب .. يارب .. يارب الكل .. ويعتقد أهل المنطقة

أن دينه الحقيق كان الإسلام ، إذ دخل عليه أحدهم فوجده يصلى الظهر ويركع ويسجد فلما انتهى من صلاته أوصاه أن يكتم سره عن الناس ، حتى يمكنه أن يواصل رسالته فى خدمة الفقراء والدين ، ويجوز أن يكون هذا الرأى اجتهاد من أهل المنطقة نظراً لصلاح هذا القس وعدم تعصبه أو لأنه كان على خلق كريم ، كما أنه يجوز أن يكون على دين الإسلام لانه كان دائم السعى فى خدمة المسلمين والعمل على مساعدتهم .

الفصل الثامن

دراسة لمدينة دسوق «كنموذج»

- من الطرق الصوفية التى تعتبر بحق من مراكز الإشعاع الروحى بمنطقة البحث «الطريقة البرهامية» ومركزها مدينة دسوق إذ يوجد بها ضريح سيدى ابراهيم الدسوقى(١) ، شيخ الطريقة البرهامية ، ولقد عاش حياة غريبة فى نوعها ، فلم يكن ممن يؤثرون الاحتراف والعمل فحسب بل كان ذا ميل شديد إلى المعرفة، وقد حفظ القرآن وتفقه فيه وتعمق فى الفقه ، وحفظ أحاديث الرسول ﷺ ، ولم يكن قد تجاوز الثانية عشر من عمره .

ويقول عن نفسه : قد وليت القطبانية فرأيت المشرقين والمغربين وما تحت النجوم ، وصافحت جبريل عليه السلام (٢) .

ولقد أكد كثير من الباحثين ومشايخ الطرق أن البدوى والدسوقى كانا على اتصال دائم ، وأن كلاهما كان يقتضى بالسلف الصالح ، ويتعمق فى دراسة المجتمع الذى يعيش فيه ويحل ما يقابله من مشاكل الطالبين .

لذلك كان لابد من أن تتم لقاءات بينهما وقد أخبر الباحث الشيخ محمد محمود

---

(١) هو ابراهيم الدسوقى القرشى الهاشمى توفى عام ٦٧٦ هـ . عن ٤٣ سنة وهو شيخ الطريقة البرهامية وصاحب المحاضرات القدسية والعلوم الدينية وهو أحد الأئمة الذين أظهر الله لهم المغيبات وخرق العادات والولاية الراسخة وانتهت إليه الرياسة للكلام على خواطر الآنام (المرجع : سيدى الشبلنجى : نور الأبصار ص ٢٤٢) ويصح أن يكون قد ورث القطبانية عن سيدى البدوى أى من عام ٦٧٥ / ٦٧٦ هـ .

(٢) الامام الشعرانى ـ الطبقات الكبرى ـ جـ ١ ص ١٤٣ وما بعدها .

السطوحى شيخ الطرق الصوفية (١) أن التاريخ يؤكد هذا اللقاء والضرورة تحتمه لأن كلاهما كانت له نفس الدعوة ونفس الاتجاه ، وعاشا فى نفس الوقت تقريباً ، وروى هذا الحوار الذى دار بينهما تدعيما للعلاقة المتبادلة والأخوة الصادقة :

البدوى : أما تعلم أن الله يحرم من يفرق بيننا فى الدعوة فى الدنيا والآخرة ؟ .

الدسوقى : نعم .

البدوى : أما تعلم أن الله تعالى لعن من يقول هذا مجلس ذكر ، وهذا مجلس ذكر .

الدسوقى : نعم .

وهذا معناه أن الدعوة الإسلامية واحدة وأن الطريق الصوفى واحد ، وأن أسلوب العمل واحد وأنهما كانا يدعوان إلى توحيد صفوف المسلمين وأنهما سارا على نهج واحد ، ويدلل الشيخ السطوحى على ذلك بأن مولدى البدوى والدسوقى يتلازمان عبر التاريخ رغم اختلاف تاريخ الوفاتين وميلاد كل منهما .

ومما تناقله الجمهور عن وجود اتصال بين البدوى والدسوقى كما نجده فى هذه القصة : —

« أرسل السيد البدوى أحد مريديه بهدية إلى الدسوقى ، وفى الطريق أراد المريد حباً فى الاستطلاع أن يعرف ماذا يمكن أن تكون هذه الهدية ، ففتح الغلاف الذى فيه الهدية فوجد بها حذاء بالياً ، ولما وصل إلى الدسوقى بالهدية رده بهدية أخرى ،

(١) الشيخ محمد السطوحى شيخ مشايخ الطرق الصوفية وقد قابله الباحث عام ١٩٦٩ .

وبدافع من حب استطلاع المريد أيضا فتحها فوجد فيها « عامة » بالية .

ويعلق أحد مشايخ الطرق على هذه الرواية بأن البدوى أراد أن يقول الدسوقى نحن حذاءك ، فرد عليه الدسوقى بأن حذاءه فوق رأسه ، وهذه شهادة بأن القطبانية كانت للبدوى فى هذا العصر . (إن حذاء البدوى فوق رأس « عامة » الدسوقى) ، ويدل ذلك أيضاً على الإيثار والتواضع الذى هو من خلق الأولياء. كما يدل ذلك على المصطلحات والألفاظ والتعبيرات التى يستخدمها الأولياء فيما بينهم والتى ينفردون بها دون الناس جميعاً .

كرامات الدسوقى :

يروى أهل المنطقة كثيراً من كرامات الدسوقى — رضى الله عنه — نورد بعضاً منها : —

١) من كراماته أن بعض المنكرين له حضروا فى مركب ليمتحنونه ، فأرسل إليهم نقيبه فدفعهم فوجدوا أنفسهم فى جبل (قاف) وأقاموا هناك سنة يأكلون من حشيش الأرض حتى تنهرت أجسامهم ، وتذكروا ما وقعوا فيه فتابوا فأرسل لهم الدسوقى نقيبه فدفعهم دفعة فوجدوا أنفسهم على ساحل ثم أصبحوا بعد ذلك من مريدى الدسوقى وتلامذته .

٢) بلع تمساح صبياً ، فحضرت أمه مذعورة للدسوقى ، فأرسل نقيبه إلى التماسيح يسألهم من ابتلع الصبى ؟ ليمشى به إلى الشيخ ، فتبعه أحد التماسيح ، ولما وصل للشيخ أمره بأن يلفظ الصبى فلفظه ، ثم قال للتمساح (مت فمات بإذن الله) .

والمعروف أن دسوق كانت تشهر فيما مضى بوجود تماسيح النيل بها ،

وتدل هـذه القصة على اعتقاد الناس فى كرامات الدسوقى وأنه قطب هذه المنطقة .

ومن الروايات التى تروى عن كرامات الدسوقى أنه أرسل ذات يوم أحد مريديه إلى الاسكندرية لشراء بعض الاحتياجات فتشاجر هناك مع أحد الباعة وحضر الشرطى وقاده إلى القاضى، وكان القاضى جباراً يكره الصوفية لخبثه، ولما علم الدسوقى أرسل للقاضى أبياتاً من الشعر، فجمع القاضى أصحابه وسب الدسوقى، وقال لأصحابه انظروا ما كتب لى مدعى الولاية ، وقرأ عليهم القصيدة وهو يسخر ويضحك حتى تلى تلك الأبيات :

سهام الليل صائبة مرامى ... إذا وترت بأوتار الخشوع
يقومها إلى المرمى رجال ... يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم فى دعاء ... بأجفان تفيض من الدموع
إذا وترن ثم رمين سهما ... فما يغنى التحصن بالدروع

وعندما وصل فى القراءة إلى « إذا وترن ورمين سهما » خرجت من الورقة سهما إلى قلب القاضى الذى مات فى الحال . ولقد ازداد اعتقاد الناس فى سيدك الدسوقى بعد ذلك .

وهذه الواقعة تؤيدها الدراسة النظرية ، ذلك لأن ذلك مذكور فى الحديث القدسى : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ، وقوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1] » ، وقوله تعالى أيضا : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا والآخرة[2] » ، وكذلك ورد فى الحديث القدسى : « من

---

(١) سورة يونس ٦٢   (٢) سورة يونس ٦٤

تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا .... .

والواقع أن شهرة الدسوقي — رضي الله عنه — تزداد مع الزمن انتشاراً ، وأنه يهرع إليه في الوقت الحاضر ، كثير من طالبي الحاجات ، ومن المتوسلين بشفاعته ، في سيل لا ينقطع ، صباحاً ومساءاً ، وتجد مسجده الذى يتوسطه ضريحه ، يزداد مع الزمن اتساعاً وعمارة .

وهذا في رأينا يدعم هذه الاعتقادات والتي ما زالت سائدة عند الجمهور من المثقفين والأميين على السواء وإن اختلفت درجة الاعتقاد عندهم .

الفصل التاسع

دراسة لمدينة دمنهور « كنموذج »

أجمع كثير من أهل المنطقة أن سبب تقدم مدينة دمنهور يرجع إلى التمسك بالعقيدة - الدينية - وأن الذي حمل لواء الدعوة في أوائل هـذا القرن هو شيخ الطريقة الحصافية ، وقد تغير شكل هذه المنطقة بفضل حلول الشيخ حسنين الحصافي الكبير بها ، والذي كان - كما هو اعتقاد أهل المنطقة - من الأوليـــاء المكشوف عنهم الحجاب علاوة على تلقينه الدروس في المجالس العامة والخاصة التي كان يعقدها لتطبيق - أحكام الكتاب الكريم ، والسنة المحمدية بالاضافة إلى جلسات الذكر الأسبوعية .

ولقد طاف الحصافي الكبير بجميع محافظات الجمهورية واستقر مقامه - بمنطقة الجبانة - بدمنهور والتي كانت مكانا لدفن الموتى ومأوى لقطاع الطرق والمجرمين والذئاب ليلا ، وأصبحت بفضله الآن سوقا صناعية كبيرة بها مصـانع الثلج ، والمكرونة ، وورش السيارات ومخازن الشركات الكبرى ومصانع للأخشاب علاوة على وجود عديد من المحلات التجارية والعمارات السكنية بها . ولم تكن هذه المنطقة من قبل إلا جبانة مهجورة كما سبق الإشارة وأصبحت بفضل نفحاته

(*) هو العارف بالله الشيخ حسنين الحصافي المتوفى عام ١٩١٠ م كان من علماء الشريعة وكان يعقد مجالس للعلم والتدريس وقد تخرج على يديه كثير من العلماء وقد تغيرت على يديه أساليب الحياة في منطقة دمنهور وأصبحت مدينة تجارية ممتازة بعد أن كانت مأوى لقطاع الطرق وتجار الربا وأصحاب المواخير ، وقد تقلد مركز الخلافة بعده ابنه محمد عبد الوهاب الحصافي المتوفى سنة ١٩٤٩ والذي ازدهرت الطريقة الحصافية - الشاذلية على يديه .

كما يقول أهل المنطقة مركزاً صناعيا وتجارياً ممتازاً .

ومن أقوال كبار السن من تجار المنطقة وما جمع من حصيلة المسح الجيـــد انى يتضح الآتى :

١) ان منطقة دمنهور كانت تشتهر قبل حلول الحصافى بها كمركز للتعـامل بالربا وكانت عائلات الكلاف ونجاتى وغيرهم أصحاب شهرة فى هذه المعاملات غير المشروعة كما كانت توجد بالمنطقة عديد من المواخير تبيع و تتجرفى المشروبات الروحية والمواد المخدرة .

ولقد حاول الباحث أن يجد بعض هذه المواخير والحانات فلم يهتد إلى أى منها بل أن الملاحظ على المنطقة موضوع البحث أنها مليئة بضرائح الأوليـــاء والمساجد و بتجار يتمسكون بأحكام الشريعة فى معاملاتهم وأن التقاليد التجارية الأخلاقية محافظ عليها فى معاملاتهم بشكل واضح وبين اسرهم ، علاوة على أن نسبة الأمية فى دمنهور بالذات قليلة بالمقارنة بالمحافظات الأخرى (١) .

وأنه لمن الجدير بالذكر أن الشيخ أحمد الكلاف وهو زعيم عائلة الكلاف والتى كانت تشتهر بالتعامل بالربا قد أخذ العهد على الشيخ الحصافى الكبير وأصبح من مريديه المقربين وأنه كان من الذين تعقد فى بيوتهم دروس الشريعة التى يلقيها الحصافى ، كما أن الشيخ على نجاتى أصبح للحصافى صديقا وترك اسباب الدنيا وزهد فى المال ، وكان دائم الالتصاق بالحصافى ويروى أهل المنطقة نوادر وكرامات كثيرة حدثت بينهما .

---

(١) أفاد السيد المحافظ أثناء زيارة الباحث له أن نسبة الأمية فى دمنهور لاتتعدى ٢٠٪ ويمكن أن يكون ذلك فيه شىء من المبالغة الا أنه من الملاحظ أن جميع من قابلهم الباحث على دراية بالقراءة والكتابة ، أما القرى المجاورة المدهنة فترتفع نسبة الأمية فيها .

ويبدو صدق هذه الروايات من وجود ضريحى الشيخ الكلاف والشيخ تماتى مع ضريح الشيخ الحصافى وذلك بجامعه الكبير بمنطقة الجبانة التى تسمى الآن بالحصافية .

ويؤكد أحد كبار التجار بالمنطقة أن آخر ماخورة كانت بالمنطقة منذ ٥٠ سنة وكانت ملكا للخواجه – كاليانتى – الذى وجد فى صباح أحد الأيام مقتولا فى ماخورته ولم يعرف لذلك سبباً سوى دعاء الشيخ الحصافى وقد زاد هذا الحادث فى الاعتقاد فى ولاية الحصافى الكبير .

اثر الطريق على الناحية الاقتصادية والاجتماعية :

من المعروف عن تجار دمنهور أنهم من التجار الاذكياء وقلما تجد بينهم تاجراً منحرفا أو غير أمين . ومن الملاحظ أن أكثرهم من مريدى الطريقة الحصافية وقد روى أحدهم للباحث أنه لم يكن من أرباب الطريق الحصافى وأنه كان فى عسر وضيق شديدين نتيجة لعدم اقبال الناس لشراء سلعه وقد روى هذه القصة : حضر لى أحد الزبائن لشراء أقة زيت وكان ثمنها ١٦ قرشا وهو نفس السعر الذى يبيع التجار الحصافيون به، وأنقدنى المبلغ وذهب وبعد فترة رجع لى وأخبرنى أن الزيت طعمه ماسخ (وهو غير الزيت الطيب الذى يبيعه الشيخ على الحصافى وزعم أنى قلت له أنه من نفس النوع فقد صمم على ارجاعه ورددت له الثمن .

ولقد أفاد التاجر بأن الزيت الذى يبيع منه قد اشتراه من التاجر الحصافى ليبيعه بالتجزئة ولكن العميل حضر إليه لأنه لم يجد محل التاجر الحصافى مفتوحا .

واستطرد التاجر قائلا : ثم دخلت الطريق وأخذت العهد على الشيخ الحصافى الابن ثم فراجت تجارتى، وفتح الله على فتحا مبينا كما ترى ، ويعتبر هذ

التاجر حالياً من كبار تجار دمنهور وهذا يفسر لنا إلى حد تؤثر (البركة) كقوة روحية فى التعامل التجارى وفى اعتقاد الجمهور فى النجاح .

وروى الباحث السيد/ لطفى العبد وهو من كبار تجار المنطقة أن سعر بعض الأصناف عند مريدى الحصافية أعلى منه عند غيره . ومع ذلك فإن الجمهور لايقبل على شراء احتياجاتهم إلا من عند التجار الحصافيين نظراً للثقة الغالية فيهم وفى سلعهم ومن ناحية أخرى فإن السلع البطيئة ترسل إلى التجار الحصافيين لتسويقها فتباع على الفور .

كرامات الشيخ الحصافى الكبير :

يتناقل الجمهور كثيراً من كرامات الحصافى الكبير والتى تروى بكثير من الفخر والاعزاز والرضا لوجود هذا الولى بمدينتهم وأنه البركة العامرة التى أفاض الله بها عليهم ومن هذه الكرامات التى يتناولها الجمهور فى منطقة البحث :

١) روى أحدهم أنه وجد الشيخ الحصافى يتوضأ فقــال له : زمزم يا سيدنا الشيخ ، فرد الشيخ عليه قائلا : « عوضك الله عنها خيرا » فلما رجع بيته وجــد زوجته قد توفيت ، وهذا معناه أنه كان ملهما ، ومكشوف عنه الحجاب ، وصاحب بصيرة ، وهذا يؤكد ما أشرنا إليه فى الدراسة النظرية .

٢) دخلت جماعة على الشيخ الحصافى وكان أحدهم مصابا بمغص كلوى فوضع الشيخ يده على بطنه فشفى بإذن الله على الفور ، وهذا يدل على أنه مستجاب الدعوة ، أى مرادا لله تعالى .

٣) كان أحد الصالحين يتضايق عندما يقول له الحصافى : «ياشيخ فلان» ويرد عليه قائلا فى حزن : أنا لست شيخا ولا حاجة ، فقال له الحصافى مرة : «من أخذ منك الوردة ، وهذه إشارة وتذكرة حيث تقابلا روحيا فى مكة فى صلاة الجمعة

وكان مع الزاهد ورده خطفها منه الحصافى ، فقال الزاهـــد : « والله أنت التى أخذتها » وهذه إشارة إلى أنهما كانا من الأبدال(١) .

٤) روى أحدهم أن ضيفا سرق عباءة صاحب البيت فذهب صاحب البيت إلى السيد/ أحمد البدوى وشكى له مافعله ضيفه به وكانت هذه الشكوى فى رؤيا رآها ، وفيها أشار عليه البدوى رضى الله عنه بالذهاب إلى الشيخ الحصافى فسافر إلى دمنهور ، وهناك وجد على باب الشيخ الحصافى السارق واقفا لايتحرك لابسا عباءته المسروقة وعند ذلك أخذها وانصرف . وهذا يفسر لنا العلاقة بين البدوى والحصافى وأن الأخير كان على اتصال دائم عن طريق التوجه أو الإلهام بالبدوى وأن الأولياء الأحياء والأموات يتصل بعضهم ببعض.

٥) روى الباحث أن أحد المريدين هذه القصة فقال : كنت قد اقترضت كتابا من الشيخ الحصافى ولما أردت ارجاعه اليه ، ذهبت مع صديق وقلت له انتظرنى بشارع جانبى ، وذهبت للشيخ لرد ذلك الكتاب فقابلنى الشيخ وقال لى : اللى معاه ضيف ... مش يجيبه معاه !! وهذا يدل على فراسة الشيخ الحصـــافى التى يمتاز بها أولياء الله .

٦) كان الشيخ يلقى درسا عن السرقة ، ثم انتقل إلى الحديث فى موضوع آخر ؛ وكان بالمجلس الشيخ «بسيونى» وهو أحد مريدى الشيخ ، وكان فى نفسه سؤالا عن رد المسروق وبفراسة الولى عرف الشيخ الحصـــافى ماوقر فى قلب الشيخ بسيونى لذلك فقد رجع مرة أخرى لموضوع السرقة وقال : أما إذا مات السارق وليس له ورثة فيجوز لأحد أصحابه التصدق بالمال الذى سرقه صاحبه على الفقراء ، ثم نظر إلى الشيخ بسيونى ، وقال له : « أهذا كاف ياشيخ بسيونى»

(١) راجع الحكومة الباطنية ـ الفصل الثانى ـ القسم الأول بالكتاب.

وهذه علامة من علامات الولاية الروحية كما سبق الإشارة، إذ المعروف أن الولى الصوفى جاسوس القلوب يعرف ويكشف الأسرار بما أودعه الله عنده من العلوم اللدنية .

٧) يحكى عن الحصافى الابن أنه كان يسهر مع السيد/ محمد العبد ـ الذى يروى هذه القصة ـ وكان فى ذلك الوقت لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره وكان فى خدمة الشيخ وكان هذا العمل بالنسبة له كريها لأنه كان يفضل اللعب مع الصبية بكرة القدم ... فقال له الشيخ فى يوم : تعرف تجيب لى ورق صفصاف !! ... فقال له : نعم أعرف ... ولم يكن قد سبق له معرفة ما هو شجر الصفصاف ولا لونه .. ولكن قال الشيخ أعرفه .. لأنه أراد الذهاب للعب الكرة ، وأن مطلب الشيخ قد وافق هوى فى نفسه ... لكن بفراسة المؤمن .. عرف الشيخ ما يدور بخلده .. فغير رأيه ... وقال له : نذهب سويا إن شاء الله .. وفى الطريق أقبل رجل مسن وهو ينادى : ياشيخ حصافى ... ياشيخ حصافى .. فلم يرد عليه وقال الراوى : الزم «آداب الطريق حتى تصل إلى الزاوية » ـ (وهى جامعه الآن) ـ وعندما وصل توضأ وصلى ولم يعر الرجل انتباها حتى انتهى من قراءة الورد، ثم قال له: ادخل ... فدخل الرجل وقال للشيخ متوسلا به « ياسيدنا الشيخ .. عندى بنت عروسة ... » كلما يجىء لها عريس يخطبها .. تقطع عدومها » فقال له الشيخ «بإذن الله تخدمك .. وتخدم أنت غيرك .. ثم أشار إليه بأن يحضر ورق الصفصاف .. ودورق ماء .. فانصرف وبعد برهة حضر ومعه المطلوب .. وهو يرفع يديه بالدعاء .. ويقول : الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. وأراد بالحاح أن يحادث الشيخ فقال له : اسكت .. اسكت .. والرجل يقول : أصل ياسيدنا الموضوع .. والشيخ يسكته .. ثم أشار عليه .. أن يأخذ الدورق لتستحم به ابنته ..

واستطرد الراوى قائلا : لقد تملكنى حينذاك الغيظ من تصرف الشيخ ..

إذ لم يعط للرجل فرصة الكلام .. كما أنه حبس فضولى عن معرفة ماحدث له . . الأمر الذى دفعنى إلى أن ألحق بالرجل واستفسر منه عما حدث .. وما سبب ترديده : « الله أكبر » فقال : ذهبت لاقطع ورق الصفصاف كما أمرنى الشيخ . . فإذا بفرع من الشجرة يجرح يدى فتركته وصعدت أعلى الشجرة وتمكنت من فرع آخر فوجدت فى آخره جرابا بداخله علبة صغيرة . . فأخذته ورجعت به للشيخ . . فلم يسمع لى كلام كما علمت . . وإنما أشار أن تستحم ابنتى بماء الورق وسأفعل إن شاء الله ما أمرنى . .

وقال الراوى : ومرت سنوات على هذه الحادثة . . وبالصدفة قابلت الرجل فى السوق . . وتذكرت قصته فسألته : كيف حال ابنتك الآن ؟ فـــرد قائلا : الحمد لله . . وبركة الشيخ عندها الآن ثلاثة أولاد . .

والشيخ الحصافى كرامات أخرى كثيرة ، لذلك فله وابنه الشيخ عبد الوهاب مكانة عظيمة حتى الآن عند جمهور الناس .. وتروى مآثرهما العديدة بلســان المريدين والمحبين والعارفين بفضلهما .

ويقام للحصافى الكبير مولداً عظيما فى مدينة دمنهور فى نهاية شهر مارس من كل عام ويتخلل هذا المولد قراءة الأوراد ، ومجالس الذكر ، وألعـــاب التسلية (وهذه الألعاب كان يمنعها الشيخ أثناء حياته) وينحر فى مولده أربعين ذبيحة توزع على الفقراء والمحتاجين .

الباب السادس

الوصول إلى نتائج محددة عن التنظيم الروحى لحكومة الأولياء

بعد ما تم جمع حصيلة الدراسة الميدانية ، وفحص هذه المعلومات ، ومقارنتها بالمصادر التاريخية ، واستبعاد البيانات ، والآراء ، والاتجاهات التى لا تتمشى مع طبيعة البحث ، والتى يمكن أن تسيره مساراً يبعدنا عن الغاية المنشودة منه .

لذلك فإن غايتنا فى هذا الباب ، الوصول إلى نتائج محددة ، تبين إلى أى حد تطابق الدراسة الميدانية مع آراء أئمة الصوفية ، من وجود نوع من التنظيم بين حكومة الأولياء ، وأن هناك نوعاً من الاتصالات يتم بين أصحاب الولاية بعضهم ببعض ، بدون استخدام قوانين الحس الظاهرة .

لذلك فإننا وضعنا فرضاً مناسباً التحقق تجريبيا من وجود نوع من التنظيم الروحى بين الأولياء ، وقد صغنا هذا الفرض من آراء وأقوال أهل المنطقة من ناحية ، ومن التساؤلات التى تحتاج إلى أجوبة عن طريق البحث من ناحية أخرى .

وقد توصل البحث إلى وجود نوع فريد من القرابة بين الأولياء ، وهى

غير القرابة الطبيعية والدموية ، واتضح أن هذه القرابة لها علاقة قوية بالتنظيم الروحى لحكومة الأولياء ، وهى تقوم على الرابطة بين الأولياء ، بطريق غير الطريق الحسى ، بما يعزز الاتصالات بينهم ، والتى تتم عن طريق الإشارات والأوامر الباطنية ، ووسيلتها الإلهامات والرؤى والتوجهات ، مما يؤكد صدق الفرض الذى سقناه ، من وجود علاقة ترابطية ، بين القطب الغوث ، وأولياء المنطقة .

وفى ختام البحث حددنا النتائج العامة التى توصلت إليها الدراسة ، وانتهينا إلى صدق الفرض الذى وضعناه .

الفصل الأول

صياغة فرض مناسب للتنظيم الروحى للأولياء

كان لا بد من تطبيق ما تم تحصيله فى الدراسة النظرية ومحاولة الكشف عن وجود نوع من التنظيم للولاية الروحيـــة ، وهيكل هذا التنظيم — كما تشهد الدراسة النظرية — انما يقوم على شكل هرمى ممتليا قمته (القطب الغوث) ، ثم يليه الامامان ثم الأوتاد والأبدال والرجباء والنجبـــاء والنقباء وغيرهم من أعضاء الحكومة الباطنية .

وقد سبق الاشارة بصدد عرضنا الدراسة النظرية الى أن القطب الغوث انما يقع فى مركز دائرة يحيط بها الأولياء بشكل منظم حسب درجة كل منهم .

لذلك قام الباحث بمحاولة لتطبيق ما أجمع عليـه أئمـــة الصوفية من توكيد لوجود هذا التنظيم الروحى فاختار منطقة (طنطا) كمجتمع يصلح للتطبيق العملى حيث يتوافر بها عديد من ضرائح الأولياء فضلا عما يشاع من أن السيد / أحمد البـــدوى هو القطب الغوث فى زمانه ، كما أن إختيار هذه المنطقة بالذات انما يرجع الى انها بمثـابة مركز اشعـاع روحى ، ولا يقتصر هذا الاشعاع الروحى على محافظة الغربية وحدها ، وإنما يمتد الى المحافظات الأخرى .

وقد وجدنا خلال دراسة المجتمع موضوع البحث ، أن هنـــاك اتفاقا بين أقوال المشايخ والمريدين — مع الاعتقـاد السائد لدى الجمهور وخاصة كبار السن منهم — على أن دولة الباطن انما هى لمملكة موجودة بكامل هيئتها وممثلة فى قطبها السيد / أحمد البدوى .

وقد أضاف بعض المريدين الى هذا التنظيم الروحي الاولياء من أهل الغيب

وأهل النجدة باعتبارهم أعضاء فى الحكومة الباطنية ، ولا شك أن هؤلاء الأولياء لم تستظهرهم الدراسة النظرية .

واقتصر الأئمة الكبار على ذكر القطب والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء والرجباء ، ولكن بعض الصوفيـة قد ذكر أن الأوليـاء بما فتح الله على أيديهم من الكشوفات والفتوحات يعتبرون من أهل الغيب ، كما أنهم - فى نفس الوقت - من أهل النجدة ، لما تتصف نفوسهم بالنورانية والصفاء والاخلاص والايثار ، وبسعيهم لشاطرة المكلوم ومناصرة المظلوم ، ومساعدة الضعيف ، وتلبية حاجات الفقراء والمساكين والعمل على إدخال الفرحة والسرور فى قلوبهم بما يقدمونه من أعمال البر والخير .

١ - حصيلة الآراء والاتجاهات :

يمكن إيجاز ما اتفق عليـه أهل المنطقـة موضوع البحث ، من آراء وأقوال متواترة ، تتردد على ألسنتهم وذلك فيما يلى : —

اتفقت الأقوال هناك على أن الإمامين — هما نائبا القطب — ويحكم كل منهما نصف المعمورة ، وأن الأوتاد أربعة ، وكل وتد يحكم ربع المعمورة .

كما يرى أهل هذه المنطقة أن الأبدال لا يتقيدون بالمكان ، وانهم ينقلبون من حال الى حال ،ويتواجدون فى أكثر من مكان فى وقت واحد .

ويقولون أن سيدى محمد المصرى (الحدرى) مثلا من الأبدال ، إذ أن له أكثر من ضريح فى ذلك المجتمع موضوع البحث (ضريح فى منطقة « سيدى بشر » وضريح آخر فى مدينة طنطا بشارع الصاغة) - (١) كما أن سيدى أبا الحجـاج الأقصرى والموجود ضريحه بالأقصر له ضريح آخر فى منطقة سيدى بشر .

---

(١) راجع دراسة عن منطقة سيدى بشر (كنموذج) بالكتاب .

وتتفق أقوال جمهور أهل هذه المنطقة على أن هناك أكثر من ضريح لسيدى أبى الدرداء بالاسكندرية ، والشافعى والحسين بالقاهرة ، ويجمعون الرأى على ان القرب والبعد المكانيين من مركز القطبانية لها علاقة وثيقة بدرجات الولاية الروحية . وذلك يعنى انه كلما كان ضريح الولى قريبا من مركز القطبانية كانت درجته عالية ومقامه رفيعا فى التنظيم الهرمى للولاية الروحية .

ونمثل لذلك بالشعاع الصادر ، فالرؤيا تكون أكثر وضوحا كلما قربنا من مصدره الأصلى . ومعنى ذلك ، أن سيدى عبد المتعال (عبد العال الانصارى) خليفة السيد البدوى ونائبه فى حيـــاته ، هو فى الدرجة التالية للقطب الربانى أحمد البدوى ، إذ يقع ضريحه عند باب السر بالجامع الأحمدى . وكذلك سيدى نور الدين ، وهو الخليفة الثانى للقطب البدوى . كما يقع ضريح سيدى مجاهـــد بالجامع الأحمدى أيضا .

وتتفق الأقوال أيضا على أن قطب هذه المنطقة — كما سبق الاشارة — هو سيدى / أحمد البدوى السطوحى(١) ، وعلى أنه هو مصدر الاشعاع الروحى الذى لم ينته بوفاته ، بل يزداد شهرة عند مريديه والعارفين قدره على الزمن ، كما قد أصبحت المنطقة التى يوجد بها ضريحه بفضل تواجده بها عاصمة لمحافظات الوجه البحرى .

ولم يصادف الباحث ثمة تباين بين أقوال المشايخ والمريدين بالمنطقة حول اقامة الولى فى حياته واختيار مكان وفاته . فقد أجمعت أقوالهم على أن ذلك إنما يتم بأمر علوى وحسب ما يؤذن به للولى ، ويدللون على ذلك بأن الولى الموجود ضريحه بالمنطقـــة ، ليس من المحتم أن يكون من أهلها ، فقد يستقر فى منطقة أخرى غير التى ولد بها . والأمثلة على ذلك فى واقع الأمر كثيرة مثل

(١) راجع أحمد البدوى بـ بالكتاب .

سيدى قمر الدولة ، وسيدى حسن الصائغ ، بل ان سيدى احمد البدوى نفسه ليس من أهل المنطقة ، ولكنه هاجر صبيا من مدينة (فاس) بالمغرب العربى الى (مكة) المكرمة ثم انتقل بأمر علوى الى (طنطا).

وقد اتضح من البحث أن وزراء ومريدى البدوى يلتفون حول محيطات دوائر عديدة تتسع تدريجيا حسب منازلهم ومقاماتهم ودرجاتهم ، وأن القطب السيد احمد البدوى هو مركز هذه الدوائر جميعا — كما اتضح أيضا أن أولياء الدرجة الواحدة أو المنزلة المشتركة تقع اضرحتهم على محيط دائرة واحدة.

لذلك قد أولينا جل اهتمامنا بهذه النقطة الأخيرة حتى يمكن الوصول تجريبيا الى نتائج محددة ، لكى تثبت صحة أقوال أئمة الصوفية من عدمها . وفعلا قد تم فى البحث محاولة لاثبات أن اضرحة الأولياء انما تقع على محيط دوائر مركزها السيد / احمد البدوى ، كما قد أثبت البحث باستخدام خرائط المساحة وتعيين مراكز اضرحة أولياء المنطقة عليها أن المسافة واحدة بين مركز كل ولى على محيط الدائرة ومركز الدائرة التى يقع عليها مركز موقع القطبانية.

وقد تم تنفيذ التجربة ، وذلك حتى يمكن تطبيق ذلك عمليا على أولياء ضواحى مدينة طنطا ، وهم الأولياء اتباع السيد البدوى الموجودين بها وعن طريق الاستعانة بخرائط المساحة ، وباستبعاد النظر لطرق المواصلات المؤدية الى الضرائح . ثم انتهينا الى استخلاص نتيجة عامة هى : إن المسافة بين مركز القطبانية وضريح ولى المنطقة من أتباع البدوى واحده بالنسبة لجميع الأولياء فى القرى والنجوع المختلفة : « كتفيا ، وصيجر ، واخناواى ، والجوهرية ، وكفر عصام ، وغيرها » .

وعندما اتضح ذلك من البحث ، طرح الفرض الآتى لمحاولة اثبات صحته

تجريبيا وهو « إن قطب المنطقة يقع فى مركز دائرة ينتشر على محيطها وزراؤه وأتباعه من الأولياء فى الحكومة الباطنية » . وقد صادف الباحث بعض الصعوبات سنعرض لها بعد أن نطرح بعض التساؤلات التى لا غنى عنها فى هذا المجال .

٢ ــ تساؤلات على طريق البحث :

كان لا بد من طرح بعض التساؤلات (١) كمحاولة للتوصل عمليا الى إجابات عليها ، وذلك بغية الكشف عن وقائع جديدة لاستجلاء غوامض البحث .

١ ــ هل الولى الموجود بالمنطقة من المعاصرين للسيد أحمد البدوى ؟

٢ ــ هل هناك روابط من نوع ما بين الولى وبين البدوى ؟

٣ ــ ما هو مركز هذا الولى بين أقرانه من الأولياء . ومنزلته الروحية فى حياة البدوى ؟

: (أ ـ أكان صاحبه . ب ـ أكان من مريديه . حـ ـ أكان مساعدا له ؟) .

٤ ــ اذا كانت وفاة ولى المنطقة بعد وفاة البدوى ، فكيف استمد نفوذه الروحى ؟

: (أ ـ هل بطريق التوجه ؟ ب ـ أم بطريق الالهام حـ ـ أم بطريق الرؤيا ؟) .

٥ ــ إذا لم يكن ولى المنطقة قد عاصر السيد البدوى ، ولم يأخذ عليه العهد فى حياته ، فما هو نوع الرابطة الروحية بينهما ؟

: (أ ـ هل كان أساس الرابطة ، هو التبعية للطريق الأحمدى ؟)

(ب ـ هل كانت الرابطة بأمر من البدوى عن طريق التوجه أو الرؤيا أو الالهام ؟ والى أى حد يلعب التوجه والالهام والرؤيا فى توجيهه الى مقامه ومكانه ؟)

---

(١) قام الباحث فى الدراسة الميدانية بتصميم استمارة للرد على هذه التساؤلات ، وتم تطبيقها على خمسمائة حالة من المريدين .

(حـ ـ هل يستقر الولى فى منطقة ما بناء على أمر من البدوى فى حياته أو بعد انتقاله ؟) .

٦ ـــ هل يمحى الاعتقاد أو يضعف فى ولى من الأوليـــاء ، مما يكون سببا فى خروجه من الولاية ؟

: (أ ـــ هل يمكن أن يقوى الاعتقاد أو يضعف فى ولى مع الزمن ؟) .
(ب ـــ وما هى الأسباب التى تبعث على الاعتقاد فى ولى من الأولياء؟) .
(حـ ـ ما أسباب فتور وضعف هذا الاعتقاد ؟) .

٧ ـــ هل القرب أو البعد المكانين ، من مركز القطبـــانية له علاقة بدرجة الولاية ؟

: (أ ـــ هل القرب المكانى له تأثير على ذيوع شهرة الولى أو ضعفها ؟) .
(ب ـــ هل شهرة الأولياء الواقعة ضرائحهم على محيط دائرة واحدة على درجة واحدة من الشهرة ؟) .

٨ ـــ هل تختلف استمدادات بركة الأولياء المدفونين بالقرب من السيد البدوى عن استمدادات بركة الأولياء المدفونين بعيداً عنه ؟

٩ ـــ هل يوجد من ينازع البدوى نفسه ـ فى زمانه القطبانية ؟

١٠ ـــ إذا صح أنه القطب الغوث فى زمانه ، فهل تتسع دوائر قطبانيته بإعتبـارها مركزاً للإشعاع الروحى لتشمل العـالم كله ؟ وهل له مريدين وأتباع فى أنحاء المعمورة ؟ ومن هم ؟ وهل يمكن تطبيق نظام الدوائر باعتبارها أكمل الأشكال عليا لامتحان صحة هذا الفرض ؟

---

(١) يحتاج الرد على هذا التساؤل الى توفير إمكانيات مادية وتكنولوجية ، والى الكثير من الباحثين والى وقت طويل . ونرجو أن يتيسر ذلك مستقبلا .

ب — الصعوبات فى البحث :

من الصعوبات التى صادفت الباحث أن كثيراً من أولياء منطقة البحث غير مدونة بضرائحهم تواريخ وفاتهم ، وغير معروف العصر الذى عاشوا فيه ، وبالرجوع إلى المراجع لم يتيسر معرفة ترجمة عن حياة أصحاب هذه الولايات فكان لابد من الاسترشاد والاستهداء بأهل تلك المنطقة وخاصة كبار السن منهم لمعرفة تواريخ الوفاة التى يمكن أن توضح الروابط بين الولايات الصغير وبين القطب ، إلا أن النتائج التى توصل إليها الباحث من الحصيلة التى جمعت تبين أن انتقال بعض هؤلاء الأولياء إلى الحياة الأخرى ، تم منذ ٣٠٠ — ٥٠٠ عاماً .

وهذا معناه أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الأقوال لتباينها الواضح وافتقارها إلى الدقة فيما يختص بهذه المسألة ، فقد اتضح من البحث أن تحديدات كبار السن وجمهور المنطقة لتواريخ وفاة هؤلاء الأولياء غير دقيقة ، وقد تبين لنا أن أكثر هذه التواريخ قد دونت على ضرائح الأولياء فى الأربعينات من هذا القرن تدوينا تقديرياً .

كما لوحظ أيضا أن أسماء الأولياء المدونة على ضرائحهم أو التى اشتهروا بها ليس لها أساس تاريخى صحيح ، إذ أن أغلبها أسماء شهرة أو أسماء غير كاملة .

وبالبحث لم يتعرف على سلاسل النسب الخاصة بهؤلاء الأولياء ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن أهل منطقة البحث وخاصة كبار السن منهم ، الذين رجع الباحث إليهم ، لا يعرفون الكثيرون من الأولياء أصحاب

الضرائح : (سيدى ســـالم ، وابن حكام ، وعضداوى ، والحريرى ، وشعبان ، وخلف ، واسماعيل ، وسلطان ، وابراهيم ، وزين ، وداود ، ومقلد ، والسعد عزبة ، ومهنا) . بل لا يعرف أهل المنطقة عنهم سوى أنهم من الصالحين ، ولا يعرفون عنهم إلا ما تناقل عن أهليهم من كرامات وخوارق عادات .

ولقد ذكر لنا الشعرانى والمناوى أسماء بعض هؤلاء الأولياء ، وأماكن إقامتهم ووفاتهم فى طبقاته (١) ، ومن ذلك ماورواه عن أتباع السيد / البدوى من أن أسماءهم تبدأ بـ (عبد) ، ومثال ذلك : (عبد الرحمن ، وعبد الرحيم ، وعبـــد الوهاب ، وعبد المتعال وغيرهم) ، إلا أنه لم يحدد لنا عدد هؤلاء الأولياء ، وإنمـــا ذكر فقط المعروفين منهم ، والذين اشتهروا فى عصره . والمعروف أن الإمام الشعرانى عاش بعد عصر السيد / البدوى بـ ٣٠٠ سنة تقريباً .

وقد ذكر لنا الشعرانى أيضا أن بعض هؤلاء الأولياء من أتباع البدوى وتلامذته وحدد فى طبقاته (٢) هؤلاء الأوليـاء أمثال : (اسماعيل الامبابى ، وسيدى يوسف الامبابى ، وسيدى الجيزى ، ومحمد المنير) ، وكما هو معروف أن ضرائح هؤلاء الأوليـاء موجودة فى امبابة بالقاهرة والجيزة ، وليست فى منطقة البحث كما أشارت إلى ذلك المراجع .

من كل ذلك اتضح من البحث الميدانى - على الوجه الذى أشرنا إليه — وجود عديد من الصعوبات مما استوجب الحصول على معلومات وفيرة عن طريق الملاحظة المباشرة ، وغير المباشرة ، وذلك لكى تتوافر للباحث المعلومات

(١) الامام الشعرانى ـ الطبقات الكبرى من ص ١٥٨ إلى ص ١٦٤ ج ١ .

(٢) المرجع السابق

الواقعية غير المتناقضة ، للمجتمع المدروس، ولذلك اضطر الباحث إلى الاستعانة بأهل المنطقة ، وكبار السن فيها — كما ذكرنا آنفاً — من السكان الأصليين ، حتى يمكن الاهتداء إلى تواريخ حياة ووفاة أصحاب تلك الأضرحة ، ما أمكن ذلك .

وفعلا تبين أن لبعض هؤلاء الأولياء ذرية موجودة بالمنطقة أو خارجها مثل عائلة البيى ، والشناوى ، والعصاى ، والبابلى ، والجوهرى ، مما يسر الباحث الاتصال بهم ، والاطلاع لديهم على سلاسل النسب ، التى عاونته فى البحث إلى حد ما ، واعتبرت من المراجع الهامة لأصحاب الولايات الذين لا يعرف عنهم الكثير .

الفصل الثاني

بعض الأدلة على وجود قرابة ما بين الاوليـــاء

تبين من البحث أن العلاقة التي تربط بين البدوى رضى الله عنه وبين أتبـاعه ومريديه من الأولياء هى علاقة من نوع فريد ، لايمكن أن نجدها فى الجماعات والزمر الاجتماعية المختلفة ، إذ أنها علاقة بنوة روحية تسمو على العلاقةالدموية . واتضح أيضا أن بعض هؤلاء الأولياء ليسوا معاصرين زمنيا للسيد البـدوى ، وإنما هناك علاقة تبعية ، وهذه التبعية بالطريق الأحمدى غـــير شخصية . إذ يتم الاتصال بين القطب وأتباعه ومريديه وتلامذته ووزرائه عن طريق الإلهامات والرؤى والتوجهات ، حتى أنه يمكن القول أن تعيين الخليفة أو أخذ العهد أو خلع المشيخة ، إنما يتم بهذا الطريق ، والأمثلة على ذلك كثيرة فمثلاسيدى الشناوى ـ وهو من أشياخ الطريق الأحمدى والذى بينه وبين البدوى أكثر من ثلاثمائة سنة ـ قد أخذ العهد على البدوى بل وتقلد المشيخة بأمر علوى فى شكل إلهام أوعن طريق الرؤيا ، وعندما جاءه الأمر قال : «الله أكبر فتحت سيجر» . وهذامعناه أنه جاءه الأمر لتقلد المشيخة بالطريق الأحمدى فى منطقة (سيجر) بناء على اتصال قد تم بينه وبين السيد /أحمد البدوى ، وكذلك سيدى العصامى الذى توفى فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ونؤكد إستبعادنا هنا لعنصر التزامن أو شرط التواجدفى فترة زمنيةواحدة . وعنصر الزمن الذى سنتبعده هنا لايؤثر فى الرابطة الروحية بين القطب وأولياء المنطقة ، إذ أن العلاقة إنما هى نوع فريد لاتتأثر بالزمان والمكان ، فهى علاقة (فوق الزمانيـة) ، لأنها تقوم أساساً على التوجه والرؤيا والإلهام ، وهذه جميعا

وسائل للاتصال بنهج الطريق الحسي (١) . ومن ثم فقد استدعى ذلك تنحية عنصر المعاصرة أو التزامن جانبا ، إذ أن الولى إما يلهم بالحقائق إلهاما ، ويتلقى كشفا ، وتلقى فى روعة الأسرار إلقاء ، فلا يكون جسم الولى وسيلة من وسائل المعرفة ، بل على العكس من ذلك يضعف من حال الشفافية والصفاء ، ويعوقه عن عن الكشف والرؤيا ، ويحجبه أحيانا عن استجلاء الحقائق والأسرار خاصة إذا كانت النفس صاحبة هذا الجسم مشغولة بحظوظها .

ويجزم عديد من المريدين والمشايخ أن السيد/ أحمد البدوى يتصل حتى الآن بالأولياء ـ سواء الأحياء منهم أو الأموات ـ عن طريق التوجه والإلهام والرؤى ، وأنه يوجه أصحابه من الأولياء والصالحين بصورة منتظمة بطريق غير الطريق الحسى .

ويؤيد الشيخ الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود مايذهب إليه الجمهور فى القول بوجود نوع من الاتصال بين الأولياء ، الأحياء منهم والأموات (٢) .

الاوامر والاشارات الباطنية :

واستبعادنا لعنصر المعاصرة هذا قد يسر لنا السير فى الدراسة الميدانية بخطى ثابتة والوصول إلى نتائج محددة بافتراض وجود صلة روحية بين الأولياء ، وبتسليمنا بأن الاتصال إنما يتم بالإلهام والرؤية والتوجه . وهذا معناه أن الاتصال دائم ومستمر حتى وقتنا هذا بين البدوى ومريديه وأتباعه ، وما تزال تصلهم إلى الآن إشاراته من البدوى عن طريق هذا الاتصال الروحى .

وكما يروى أحد المريدين المعاصرين وهو من أتباع الطريق الأحمدى والمشهود

(١) راجع مجالس الاولياء بالكتاب .

(٢) دكتور عبد الحليم محمود ـ أبو الحسن الشاذلى ـ أعلام العرب .

له بالصلاح والتقوى ، أن البدوى على اتصال دائم به لأنه يحادثه ويأمره بفعل شيء وينهاه عن غيره ، وهو يحافظ على تلبية أوامره الباطنية ، مثل الإشارة التى وردت له من البدوى بوقف طبع كتابه (العظة والاعتبـــار) (١) ، فأوقف طبعه فى الحال .

وقد تبين من البحث الميدانى أن الاتصال الروحى بين الأحياء والأموات هو الطريق المعتاد الذى يحظى به أهل الحق .

والمريدون فى الطريق الصوفى يعتقدون أن هذه الاتصالات أمر طبيعى ، فيرون الكثير من هذه الاتصالات الروحية تتم فى مجالسهم وحضراتهم الصوفية ، ويربطون بينها وبين الأحداث الجارية ، فيقولون مثلا : أن الشيخ (فلانا) انتقل ودفن فى المنطقة (الفلانية) بأمر باطنى تلقاه هو أو غيره أثناء حياته أو بعـــد وفاته . كما أن (التاجر الفلانى) قد أتته إشارة من القطب البدوى لمباشرة أعماله فى منطقة كذا .

ومعنى ذلك أن الأحداث اليومية العادية إنما تتم عندهم عن طريق الأوامر الباطنية سواء كان ذلك تجارة أو نسبا أو عملا أو غير ذلك من شئون الحيـاة العادية ، فكل فعل من الأفعـــال الظاهرة له مايقابله من الأوامر والإشارات الباطنية بل مايبرره من التعليمات والنواهى فى كل حال وإرادة وفعل وعمل .

ويؤيد الصوفية ذلك بالحديث النبوى الشريف : « الأرواح جنود مجنـدة ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

إذا سلمنا بالقول بوجود نوع من الاتصال فيما بين الأولياء بنهج الطريق

---

(١) كتاب (العظة والاعتبار) الشيخ أحمد حجاب — وتم بطبعه المجلس الاعلى للشئون الاسلامية — وهو ترجمة لحياة البدوى الدنيوية والبرزخية .

الحسى، وبوجود نوع من التنظيم بين الأولياء الأحياء والأموات، فإن ذلك يفسر لنا سبب وجود الاولياء أتباع البدوى على محيط دائرة أو أكثر ، يكون مركزها القطب البدوى . ومعنى ذلك هو التسليم بأن الولى الذى يقع ضريحه على محيط الدائرة هو من اتباع البدوى أو من تلامذته الاولياء ، وأن هناك أمراً باطنياً قد صدر من البدوى بتواجده واستقراره فى هذه البقعة بالذات . ولكننا لاحظنا من البحث وجود أكثر من دائرة يقع على محيطها أولياء من أتباع البدوى تختلف ضيقا واتساعا ، الأمر الذى يجعلنا نتساءل عن كنه هذه العلاقة .

ب — العلاقة الترابطية بين القطب والولى :

وهنا يجب أن نتساءل عن مدى الاختلاف الذى يميز بين ولى وآخر ، وإذا كانت المسافات هى الاساس كما سبق الإشارة فى الحكم على قرب الولى لمركز القطبانية وبعده عنها ، فكيف نفسر وقوع بعض ضرائح أصحاب الولايات فى أماكن متناثرة لاتربطهم بأى الدوائر المفترضة أى صلة ؟

ولكن تمشيا مع الفرض الذى وضعناه ، فإن جميع الأولياء الذين يقعون على محيط الدائرة التى مركزها القطب، سيكونون موضوع الدراسة وعلى ذلك فاننا إستبعدنا كل ضريح ولى غير واقع على محيط الدائرة المفترضة حتى يسير البحث مطابقا مع الفرض الذى وضعناه ، وحتى لا نبتعد كثيراً عن هدفنا من البحث .

لذلك فقد طبقنا ماسبق الإشارة إليه وركونا على جميع أصحاب الأضرحة من مريدى السيد البدوى المعاصرين له وغير المعاصرين ، مادامو يقعون على محيط الدائرة المفترحة ، كما أننا استبعدنا أصحاب الأضرحة الأخرى الذين لاتظهر أضرحتهم على محيط الدائرة باعتبار أنهم من أصحاب البدوى ، اذ أن البدوى كما هو معروف عنه كان عطايا ، أى أنه إذا غضب على ولى من الأولياء

الاولياء فانه يمحو حبه من قلوب الناس فينتكس وتضيع شهرته ويحجب وينزل في المقام كأن لم يكن ولياً من قبل، وهذا ما أيده لنا جمهور المنطقة وهو مايتفق مع ماذكر الشعراني في طبقاته ، والمشهور عن البدوى حتى الآن أنه لايعترض عليه أحد إلا ويصيبه الضر والغم .

وقد اتضح من البحث أن بعض الأولياء كانت لهم شهرة واسعة أثناء حياتهم، ثم طمست ولايتهم، ولم يعرف عنهم بعد وفاتهم أي فلاح أو صلاح، وهذامايؤيده بعض أئمة الصوفية الذين يقولون بأن الولى قد يبتلى بانتكاسه في ولايته الروحية عقابا لإفشائه الاسرار التي أمر بكتمانها أو جزاء لاغتراره ، إذ ينتكس الولى في المقام ، ويسقط في الحجب بعد الكشف ، كما قد دل البحث على أن بعض أولياء المنطقة كانت لهم منزلة متواضعة في حياتهم ثم زادت درجة ولايتهم بعد انتقالهم إلى الحياة الأبدية ، بل طبقت شهرتهم الآفاق .

وتستدعينا هذه النتيجة إلى إجمال النتائج التجريبية الاخرى التي توصل اليها البحث .

الفصل الثالث

النتائج العامة

قد أوردنا فى سياق عرضنا فى الصفحات السابقة بعض النتائج التى توصل إليها بحثنا الميدانى . وفيما يلى نجمل بعض النتائج الأخرى بعد أن ألمحنا إلى الصعوبات التى واجهتنا . وطرحنا قبلها بعض تساؤلاتنا الضرورية ، كما أننا قد حاولنا بما جمعنا من ملاحظات وأقوال وآراء وإحصائيات واستبيانات ، وما قمنا به من لقاءات ، وما قد تم تحصيله من معلومات وما تم تجريبه عمليا وتطبيقه من واقع الدراسات النظرية ، وما رجعنا إليه من مصادر تاريخية، حاولنا من هذه الحصيلة المتواضعة الاجابة على التساؤلات التى أوردناها فى الفصل السابق وإثبات صحتها من عدمها . فالملاحظ من البحث أن المنطقة المدروسة تمتاز بوجود عدد كبير من أضرحة الأولياء ، وهو أمر غير متوافر فى منطقة أخرى بجمهورية مصر العربية - فمثلا فى قرية (الجوهرية) - وهى من ضواحى طنطا - يوجد بها أكثر من أربعين ضريحا للأولياء ، كما لا يخلو نجع من نجوعها إلا ويوجد به أحد أضرحة الأولياء .

وقد اتضح من الدراسة الميدانية عدم وجود ضرائح لأولياء بالمنطقة لا يخضعون للبدوى باعتباره قطب المنطقة ، وفى رأينا أن ذلك راجع إلى ضعف شهرتهم التى كانت من قبل معروفة ، وذلك للأسباب التى فصلناها من قبل .

ونمثل لذلك بقرية - الجوهرية - التى يوجد بها ضريح سيدى عبد الوهاب الجوهرى ، ومعروف لجمهور الخاصة والعامة أنه وزير البدوى ومساعده ، وأنه من معاصريه مما زاد من شهرته، وتوجد بجواره ضرائح لـ - ٢٥ - ولى* وليس لهم

شهرة الجوهرى ، ولو أنهم يقعون على نفس محيط الدائرة المفترضة التى مركزها البدوى باعتبار أن الشهرة هى السمة الأساسية والفيصل فى الحكم على الولى، وتبعيته للطريق الاحمدى، أم أن هؤلاء الأولياء المغمورين يمثلون دائرة أخرى يكون مركزها سيدى الجوهرى باعتباره قطب قرية الجوهرية ؟

فى الواقع أن احتمال وجود صلة بينهما وبين السيد البدوى ، إنما هو احتمال قائم وذلك تمشيا مع الفرض الذى وضعناه إذ أنهم يقعون على نفس محيط الدائرة مركزها البدوى وإن لم يكونوا قد حظوا بالشهرة التى يحظى بها الجوهرى . ومن ناحية أخرى يمكن القول أن سيدى الجوهرى كان يختار المريدين الصالحين للطريق الاحمدى ، إذ أنه كان وزيراً للبدوى . ومن المأثور عنه أنه كان يمتحن المريد قبل انخراطه فى سلك الصوفية . وذلك بأن يطلب منه أن يدق مسماراً فى الحائط ، فإذا تمكن من ذلك قبله ، وإذا تعثر رفضه ، وما زال هذا الحائط قائماً إلى يومنا هذا .

وهذه الاجازة هى إشارة صوفية لصلاح المريد فى الطريق الصوفى وهو تعبير مجازى عن استعداد المريد وقدراته على المثابرة والمكابدة والمعاناة ، والتى يجب أن تتوفر فى المريد المبتدىء .

ومعنى أن الجوهرى هو الذى يقبل ويرفض المريد فى الطريق الصوفى أن البدوى قد فوضه لهذا الأمر وأن رضاء الجوهرى هو رضاء — فى نفس الوقت — البدوى، إذ أن المدد بين البدوى والجوهرى متصل، وأن هناك اتصالا غير حسى بينهما كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وهذا الاتصال بمثابة مشاركة فى الرأى والأمر والنهى ، وبه تعبير عن الاختيار الصالح للمريدين ، فالمسمار يعبر عن وعورة الطريق ، والنجاح معناه الصلاحية على التحقيق .

القرابة الروحية والقرابة الطبيعية :

صفوة القول هنا أن القرابة الروحية عند أهل الطريق أقـــوى من القرابة الطبيعية ، وهذا مايؤكده المريدون ، وتشير إليه المراجع الصوفية ـ ومثال ذلك أن سيدى عبد المتعال الانصارى ، وهو الابن الروحى وتلميذه وخليفته الاول ، لايمت للبدوى بصلة دموية ، وإنما تولاه البدوى منذ كان صبيا ورباه وعلمه كما علم غيره حتى أصبح نائبا له فى الشئون الروحية، ولما انتقل دفن إلى جوار القطب البدوى ، فى جامعه عند باب السر .

ويمكن أن تقودنا هذه الملاحظة إلى التسليم بصدق الفرض القائل بأن درجة القرابة الروحية لها علاقة ما بالبعد والقرب المكانيين .

ومن ناحية أخرى فإن خليفتى البدوى الثانى والثالث ، مدفونان فى جامعه ، مما يدعم هذا الرأى ، كما أنه قد لوحظ من البحث الميدانى ، وما تم جمعه من معلومات عن المنطقة المدروسة ، أنه كان يوجد ولى يطلق عليه اسم (وجه القمر) ، وهو صاحب الايوان العظيم الذى ورد ذكره فى طبقات الشعرانى ، على أنه ولى من الأولياء الكبار ، وأنه قد انتكس بسبب الحسد لاخوانه من الاولياء ، فغضب عليه البدوى ، وأصبح مكان ضريحه ـ كما يقول الشعرانى ـ مأوى للكلاب[1] .

وقد قام الباحث بمحاولة للإهتداء إلى صاحب هذا الضريح فلم يكشف مكانه أو يتعرف على شىء عنه ، رغم اعتماده على عدد كبير من جمهور المنطقة وكبار السن فيها .

وهناك مصادر أخرى تؤيد الفرض القائل بالقرب والبعد المكانيين كأساس للحكم على قوة العلاقة الروحيـــة وضعفها بين القطب ومريديه وهو مايقناقله

---

(١) الشعرانى الطبقات الكبرى ١٥٨ — ١٦٤ ج ١

الجمهور عن سيدى حسن الصائغ قال : « لقد حضر صاحب البلدة إلا أننا حسب ماجمعناه من حصيلة المسح الاجتماعى ، ومن الدراسة النظرية قد اتضح أن سبب ذلك يرجع فى تصورنا إلى أمر باطنى قد صدر من البدوى إلى حسن الصائغ، أى أن سيدى البدوى ، عندما حضر إلى طنطا عرف الناس مقامه ، فعرف الصائغ مقامه ودرجته من مركز القطبانية ، فانتقل إلى القرية المذكورة ، وهى المكان الذى يجب أن ينتقل إليه حسب منزلته فى السلم الروحى .

وهناك رواية أخرى يتناقلها الجمهور عن سيدى سالم المغربى المدفون حاليا بمدينة (طنطا) بجوار ضريح البدوى ، قريبا من باب السر إذ المعروف أنه كان موجودا أيضا بالمنطقة قبل حلول البدوى ، إلا أنه بقى مكانه ـ وهذا يقودنا إلى القول أن البدوى يأمر مريديه ويقربهم ويبعدهم حسب الصلة الروحية التى تربطهم به .

ويذكر جمهور المنطقة أن السيد البدوى كان يوزع أتباعه ورجاله ويأمرهم بالاستقرار فى المناطق يحددها لهم ، فمن المتواتر عنهم قوله : « اذهب يا فلان فى منطقة كذا ، فيوجد لك فيها فضل ورزق . . . إن شاء الله » . ويقول بعض شيوخ المنطقة أن اختيار الأمكنة والاتباع للطريق الأحمدى إنما كان بواسطة الإلهامات والرؤى ، أى ليس بالطريق الحسى . بدليل أن البدوى كان يشد من عضد مريديه ويقويهم على المجاهدة ، وذلك عن طريق الهجرة إلى أمكنة يختارها لهم ، وما يروى عنه قوله : « إن شاء الله سيكون لك فى هذا المكان ذرية صالحة وأتباع وكرامات عديدة وشهرة واسعة » .

والواقع أن ذلك كان يتحقق دائما بمشيئة الله فالمعروف أن أتباع البدوى فى المنطقة لهم شهرة واسعة رغم وجود قطبهم البدوى فيها ، إذ يحظى كل منهم ببعض الكرامات التى لها علاقة بالبيئة بما يقرب إليهم أصحاب الحاجات .

ومن ناحية أخرى فإنهم يقولون أن البدوى صاحب باع طويل ، ومن ثم يجب على صاحب الحاجة أن ينتظر حتى تتحقق حاجته ، أما صغار الأولياء فمن اليسر لهم تنفيذ حاجات الطالبين البسيطة حسب اختصاصهم فى التنظيم الروحى .

والغريب أن كثيراً من أولياء المنطقة المدفونين فيها غرباء عنها ، وليسوا من أهلها ومن هنا يمكن استنتاج أن الولاية الروحية لاتتعلق بالوراثة الدموية ولا بجنسية وموطن الولى ، وإنما اختيار الولى المناسب فى المكان المناسب ، أى النظر لصلاحية الولى فى تحمل الرسالة الدينوية والأخروية .

ويمكن القول أن ذلك مطبق كقاعدة على جميع الأولياء بصفة عامة ، ونمثل لذلك بسيدى أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وهما من مدينة (فاس) بالمغرب ، ويزار ضريح أولهما فى منطقة ساحل البحر الأحمر ، وضريح الثانى فى حى (الأنفوشى) بالاسكندرية .

وينطبق ذلك أيضا على سيدى عبد الرحيم القنائى ، وسيدى أبى الحجاج الأقصرى المدفونين بقنا والأقصر ، وهما من المغرب أيضا ، فضلا عن أن سيدى البدوى نفسه — كما سبق الإشارة فى ترجمة حياته — من المغرب العربى .

ولنستنتج من ذلك كله أن أولياء المنطقة يقفون على محيط دائرة أو أكثر ، يكون مركزها القطب البدوى — وأنه كان يحدد لأصحابه وأتباعه ومريديه أماكن الإقامة حسب درجتهم فى الولاية الروحية ، وأن القرب والبعد المكانيين يؤسسان التنظيم الداخلى للحكومة الباطنية حسب ما اتضح من البحث كما أنه قد وضح صدق ما أشار به أئمة الصوفية من أن أكمل الأشكال عندهم : الدائرة .

ومن ناحية أخرى ، فقد تبين أن القطب يستطيع توجيه أتباعه بطريقة أكمل وأتم من مركز الدائرة ، وأن المريدين يكونون تحت اشرافه وخاضعين لمدده ،

وعندما تكون اقامتهم على محيط دائرة أو أكثر حسب درجتهـــم فى الولاية الروحية .

والمعروف أن السيد البدوى ، كان وما يزال على صلة من نوع ما واتصال روحى بمريديه — وكان يقول دائماً : (أنا زيت من لازيت له) . وهذامعناه أن المدد الحقيقى لهم ، إلا أنه كان يردد القول بأنه لايعدم بحوله ولا بقوته ، وإنما ببركة النبى ﷺ .

ومن المسح الميدانى ، اتضح إذن صدق الفرض الذى وضعناه، وهوأن أولياء ضواحى طنطا يلتفون حول محيط دائرة مركزها السيد البدوى المتوفى عام٦٧٥هـ وأن هناك علاقة ترابطية فريدة بينهم باعتبارهم من شيوخ الطريق الأحمدى وقد تم ، بعد الحصول على خرائط من مصلحة المساحة — كما سبق الإشارة — الوصول إلى النتائج الآتية :

اخترنا مبدئيا خريطة من (١ — ١٠٫٠٠٠) توضح القرى المحيطة بمنطقة طنطا . موضوع الدراسة وهى بالتحديد :

١ — قحافة ٢ — خرسيت ٣ — كفر عصام ٤ — كفر الحا
٥ — الجوهرية ٦ — سيجر ٧ — فيشا ٨ — نفيا
٩ — ميت حبيش ١٠ — اخناواى .

أما (سبربای) ، فلم تظهر — كما ذكرنا آنفا — على خريطة المساحة ، ولو أن المسافة كما اتضح من البحث واحدة ، وذلك عن طريق مقارنة الخرائط المساحية بعضها ببعض ، وقد أعطت المؤشرات الأولية ، أن استخدام المواصلات العادية ، يظهر أن الأبعاد بين ضرائح الأولياء وبين مركز المطبانية ليست واحدة، إذ تتفاوت المسافة باستخدام طرق المنطقة (بين ٣ : ٥ كيلو مترات) . ولــكن

بمطابقة خريطة المساحة اتضح أن المسافات الحقيقية بين كل ولى من هؤلاء الأولياء وبين مركز القطبانية واحدة ، إذ أن المساحة على وجه التحديد هى (٢كيلو متر وتسعمائة مترا) .

وقد تبين من البحث الميدانى أن المسافة هى عبارة عن نصف قطر الدائرة المفترضة ، أى أن القطـــر هو (٥ كيلو مترات وثمانمائة مترا)، وذلك بعد أن حددنا الأمكنة ، وربطنا ذلك كله بدائرة واحدة تمشيا مع الفرض الذى سبق لنا وضعه .

كما اتضح من البحث أيضا أن هناك علاقة روحية فريدة بين ولى المنطقة وبين القطب ، تجعل من الفرض الذى طرحناه صادقا .

الباب السابع

الصوفية وثمرات التصوف

نعرض فى هذا الباب الفرق بين الصوفية والباطنية إذ يختلط على كثير من الناس مايقوله أهل الحق ، وبين مايدعيه أصحاب الباطنية ، خاصة وأن هناك التباساً فى الألفاظ الذى يستخدمها كل منهم .

كما نعرض فى هذا الباب أيضا الدعاوى والاتهامات التى وجهت إلى أهل الحق الصوفية من بعض الطاعنين والمدعين وردودنا عليها .

ولقد كان تفسيرنا للمعانى الصوفية ، وردودنا على الطاعنين ؛ نستهدف منه وجه الله تعالى ، وكلمة الحق ، غير عابئين بمصالح مادية ، أو أهداف منفعية ، إنما وضع الحق فى نصابه ، فى غير تحيز أوتعصب أو كراهية ، الأمر الذى سيلمسه القارىء بين ثنايا هذا الباب . ونختتم هذا الباب بذكر ثمرات التصوف التى تعود على المريد فضلا وخلقاً وعلماً ومصلحة .

وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول : —

الفصل الأول : الصوفية والباطنية .

الفصل الثانى : رد الهجوم على الصوفية .

الفصل الثالث : ثمرات التصوف .

ونقسم هذا الفصل إلى الموضوعات الآتية : —

١ — العمـل والصوفية .

٢ — الصوفية والحكام .

٣ — تعاليم الطريق وآدابه .

٤ — تأثير الطريق على شخصية المريد .

٥ — السلوك الأخلاق فى الطريق الصوفى .

٦ — منافع الطريق الصوفى .

٧ — البـاعث على الدخول فى الطريق .

الفصل الأول

الصوفية والباطنية

يخلط كثير من العامة بين الصوفية والباطنية ، بل ويختلط الأمر على بعض المثقفين فى التفرقة بين أصحاب الولايات وبين الفرق الباطنية ،وهذا راجع فى تصورنا إلى تأويل المعانى الصوفية إلى غير ماهدفت إليه وتفسير ألفاظ الصوفية وتعبيراتهم وإشاراتهم تفسيرا حرفيا قاصراً يبتعد عن حقيقة المعنى المقصود .

وكان من نتائج هذا الخلط والاختلاط زعمهم بأن التصوف يعنى الانعزالية والسلبية ، ويدعو إلى رفع التكاليف الشرعية ، ولقد سببت هذه الآراء الفجة هذه إلى اعتبار الصوفية إحدى الفرق الباطنية ، والتصوف عنها براء . إذ أنها جميعا فرق ضالة انحرفت عن طريق الله ، وهدى القرآن ، وسنة رسول الله ﷺ ، وهذه الفرق الباطنية تفاعلت فيها عناصر شتى ، واستمدت تعاليمها من آراء المجوس والصابئة واليهود ، ولا يمكن أن ندخل هذه الفرق تحت مسمى واحد ، إذ هى فرق مختلفة غير محددة المعالم ، إلا أنه من جملة اعتقاداتها الفاسدة أن الله تعالى علة ومعلول ، قلم ولوح ، كما زعم بعضها أن هناك إلهين أعلى وأدنى ، وأن للدين ظاهراً وباطناً .

وظهرت دعوى الباطنية كتيار واضح فى رسائل اخوان الصفا بخاصة ،وفى تعاليم فرقة الاسماعيلية بعامة حيث أن الأخيرة قد اتخذت من الدولة الفاطمية واجهة سياسية لمعتقداتها الضالة .

وقد تحدد الاختلاف بين طريق أهل السنة والسلف الصالح، وبين أهل الشيعة فيما يتعلق بالخلفاء الثلاثة سيدنا أبو بكر الصديق، والفاروق عمر، وسيدنا عثمان، بينما أنكر الشيعة خلافتهم بل واعتبروهم غاصبين قد انتهبوا الخلافة قسراً وخداعا من الإمام

على كرم الله وجهه وهو فى رأيهم الوصى الذى عينه النص الإلهى فى مواضع متعددة (١) .

ومن هذا الانحراف عن طريق الإسلام ، وعن جادة الصواب ، قام التشيع وأصبح ملجأ عهداً لاحتواء عناصر الدعاوى الباطنية التى استخدمت الرمز والتأويل الباطنى فى منهجها بقصد تأييد مزاعمها الفاسدة ، فانطلقوا من مقدمات فاسدة جعلوها أساساً لدعوامم ألا وهى أن لظواهر القرآن الكريم بواطن تجرى مجرى اللب من القشر ، وأن العامة لجهلهم وقلة فهمهم تظهر لهم ظواهر القرآن على هيئة صور واضحة جلية ، ولذلك فهم يقولون : « أما العقلاء والأذكياء من الناس ، فيفهمون أن ظواهر القرآن إنما هى تنبيهات ورموز وإشارات إلى حقائق معينة » لذلك يقول قائلهم «من عرف الإمام فليصنع مايشاء» .

كما يدعى أصحاب هذه المذاهب الباطنية الضالة أن الذى يقف عند ظاهر النص ويقنع به ، إنما هو كالذى كبل نفسه بالأغلال ، وحبس نفسه داخل أسوار التكاليف الشرعية ، والفرائض الظاهرة ، أما الذى ارتفع عن هذه الظواهر ، وارتقى فى سلم المعانى الباطنة . فإنه يستريح من تعب الأوامر والنواهى والعبادات الظاهرة ، لأنه ملك اللب فلا يطالب بالقشر ، وهذا معناه فى آخر الأمر ابطال الشرائع ورفع التكاليف عن عمد لهدم الألفاظ الصريحة فى القرآن الكريم ومن ثم لهدم السنة المحمدية حتى لا يبقى للشريعة الإسلامية عصام .

ومن هذه الفرق الباطنية — التى سنعرض لها — فى إيجاز — فرقة تسمى الكيسانية وقد قاد دعوتها المختار * إلا أنه لم يحاول قط أن يدخل فى نطاق العقائد ، ولكن أتباعه من بعده من الكيسانية تكلموا فى جميع المسائل العقائدية .

---

(١) د . سامى النشار — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ١٥٣-١٧٢ .

* وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وكان يلقب بكيسان الذى دعا الى قتل كل من اشترك =

ومن الفرق الباطنية الزيدية * التى تميزت بالمذهب العقلى ، وجعلت الإمام إنسانا كالناس يتعلم ويسمع ويناقش (١) ، وتدعو الزيدية إلى أن كل إمام علوى ما دام قد خرج مجاهداً فى وجه الغاصبين فهو الإمام المطاع ، وهو الذى بيده أسرار العلم الخفى ؛ وينقلها من إمام إلى إمام .

وأهم ما تميزت به الزيدية أنها لم توافق إطلاقا على ذم سيدنا أبى بكر وعمر، ولا تتبرأ منهما ، ولذلك تخلى عنها الشيعة ، وسموا من تخلى عن الزيدية بالروافض، أى الذين رفضوا زيداً ومذهبه الذى يمثل الشيعة المعتدلة (٢) .

ومن هذه المذاهب القرمطية أو « القرامطة» الذين يعتنقون المذهب الشيوعى فيما يختص بالملكية ، ونجـــد أفكارهم وآراءهم واضحة فى كتاب اخوان الصفا (٣) .

ويرى القرامطة * أن العالم مجموعة من الظواهر المتعاقبة ، وتشرق العقول على هذه الظواهر ، ويختفى الحجاب المادى تبعاً لإشراقها تدريجياً ، وهم يرون أن هـذا الحجـاب هو الحس المـادى ، أما العقول فإنها تستمد إشراقها من الواحد .

= فى قتل سيدنا الحسين ، وقد تمكن حين تم له الامر فى الكوفة ، وادعى نزول الوحى عليه ؛ وتضاربت الاقوال فى صحة عقيدته .

* الزيدية — هى حركة ثورية دموية تزعمها زيد بن على « قتل ١٢١ هـ / ٧٣٩ م فى الكوفة وصلب بعد قتله خمسون يوماً ثم قتل ابنه يحيى ١٢٥هـ / ٧٤٢ م

(١) د. كمال مصطفى الشيبى « الصلة بين التصوف والتشيع » ص ١٦٨ ‎ ١٧٠ .

(٢) د. سامى النشار « نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام » ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) د. محمد على أبو ريان « أصول الفلسفة الاشراقية » ص ٩٩ .

* القرامطة — رئيس فرقتهم عبد الله من ميمون أسس الفرقة فى النصف الثانى من القرن التاسع « الثالث الهجرى» كان فارسى الاصل يشتغل بطب العيون استطاع أن يؤلف بين أهل الايمان والزنادقة لتسقيط الدولة العباسية .

وغاية الطريق عندهم أن يصل المريد إلى الله بعد أن يعرف مراتب الوجود الذى أبدعها الفيض الإلهى ، ثم يفنى هذه المراتب فى النهاية (١) .

ولقد تأثر القرامطة فى ذلك بالمانوية والصابئة واليونان القدماء ، كما أنهم أثروا فى نظام الرهبنة عند المسيحيين وفى كثير من الجماعات والهيئات الخاصة فى أوربا فى القرون الوسطى .

والاسماعيلية كذلك إحدى الفرق الباطنية وتقوم دعواها على وجود سبعة من مظاهر تجلى العقل الكلى فى سبعة من الروحانيين ، وقد ختم سيدنا محمد ﷺ دور الأنبياء ، فاختتمه دورة من درات تجلى العقل الكلى فى الروحانيين من البشر ، وبدأت الدورة الثانية مبتدئة بسيدنا محمد رسول الله .

وتنتسب الاسماعيلية إلى اسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق ، وقد مات فى حياة أبيه ، لكن الاسماعيلية توقفت فى موته ، وذكرت أن أباه أخفاه عن الناس لكى يعود فيملأ الأرض عدلا ، ويتولى الخلافة والإمامة فى وقت ما لم يحدده الشيعة ، وذهب آخرون إلى أن اسماعيل نفسه شرب الخمر ، فأسقطت عنه الإمامة إلى ابنه ، وليس ثمة فرق بين الاسماعيلية وبين الإمامية فى جملة العقائد العامة (٢) .

والإمامية الاسماعيلية تزعم أن الإمامة انتهت أدوارها إلى زعيمهم وأن البنوة فى أولاده .

وقد تطورت نظريتهم عن الإمامة فيما يتعلق بالتسلسل التاريخى إلى القول

---

(١) د. محمد على أبوريان « أصول الفلسفة الاشراقية » ص ٩٩

(٢) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ١٧٩

أن الامام هو أرق الواصلين فى عصره ، وهو أكثر الناس استعداداً لتلقى أشراق الأنوار العليا ، وهو مأمور من هذه القوة العليا ومفوض منها بتولى الامامة .

والاسماعيلية شيعية تؤمن بالعصمة اللامتناهية للامام ، وتعتقد أن الإمامة لطف من الله وأنها واجبة لحفظ الشريعة ، كما تعتقد بغيبة الإمام وبرجعته ، وبوجود هذا النور الأول الأزلى الذى انتقل من نبى إلى نبى(١) .

والاختلاف الواضح بين الشيعة والاسماعيلية ينحصر فى عدد الأئمة ، فالإمامية تتوقف عند الإمام الثانى عشر بينما الاسماعيلية تقف عند الإمام السابع .

ولقد تطورت الاسماعيلية بعد ذلك واستغلت ستر الإمام واختفاءه وأدعت متأثرة بفكرة الفيض الافلوطينى ـ بأنه يتحكم فى الكون سبعة من الناطقين هم : آدم ، نوح ، موسى ، عيسى ، محمد ، على ، محمد ابن اسماعيل ، وهم الذين تجلى منهم العقل .

ولقد كانت هذه المذاهب ترمى فى حقيقة الأمر إلى الوصول إلى السلطة السياسية ، ولم تجد حرجا من التذرع بجميع الوسائل وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا ، بل لقد كانوا يرددون الحكمة السرية ـ مثل اخوان الصفا * إلى أنبياء وردت أسماؤهم فى التوراة أو فى القرآن .

---

(١) د . على سامى النشار . نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص١٧٩

(*) اخوان الصفا ـ يسمون أنفسهم خلان الوفاء وأهل العدل وأبناء الحمد وقد زعموا أن الشيعة دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، وأرادوا تطهيرها بالفلسفة ، فمزجوا بين الدين والفلسفة مزجا غير سائغ لكن لرسائلهم أهميتها فى الفكر العالمى .

ولكن كان فى الحقيقة وراءهم أشخاص من الفلاسفة الوثنيين الذين أصبحت الفلسفة عندهم أحلاما سياسية، بل أن بعض المفكرين كانوا ينظرون إلى الكواكب والنجوم على أنها ذوات ـ نفوس وعقول عليا تتجسد فى آدميين لتدبير السياسة العملية الدنيوية (١) .

وأنه لجدير بالملاحظة أن هناك فرقا بين الاسماعيلية والإمامية ينحصر فى أن الإمامية تحافظ على توازن الظاهر والباطن ، بينما يرى العرفان الاسماعيلى فى مقابل ذلك أن كل ظهور خارجى ، وكل مظهر له معنى مستور ، حتى يخلصوا فى نهاية الأمر إلى أن الحقيقة الباطنية أسمى من الحقيقة الظاهرية التى لابد من كسرها نهائيا ، وأنه بالحقيقة الباطنية يتقرر التقدم الروحى للمستجيب (٢) .

ومن الفرق الباطنية «السبعية» التى انتسب اسمها إلى الكواكب السبعة ـ والتى ترى أن النور يشتق من هذه الكواكب ، ونجد فرقة الحمرة ' وهى إحدى فرقهم يصبغ أصحابها ملابسهم باللون الأحمر تمييزا لهم عن غيرهم كما نجد فرقة « التعليمية » هى إحدى فرقهم أيضا ، تنادى بإبطال الرأى ، وذلك لعجز العقول عن التصرف ولذا يجب على الناس التعلم عندهم من الإمام المعصوم الذى يرون أنه بمثابة الرسول ﷺ (٣) .

ويرى أحد الباحثين أن « التعليمية » الباطنية هى إحدى فرق القرامطة ، ويدلل على ذلك بأنها تتبع تعاليمهم من جهة السلوك الذى هو منهج عندهم

---

(١) ت . ج . دى بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٢ ترجمة محمد أبو ريدة .

(٢) هنرى كوربان ــ تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٦١ ترجمة نصير مروة .

(٣) الامام الغزالى ــ فضائح الباطنية ص ١١.

لا مناقشة فيه إذ أن له سلطة معصومة (١) .

وتتفق ولا شك هذه الفرق أيضا مع طائفة الحشاشين التى تنتهى دعواهم إلى نفس الدعاوى الباطنية ، وبخاصة فيما يتعلق بحاجة المريدين إلى معلم صادق يقودهم لمعرفة الله، يجب تعيينه وتشخيصه أولا، ثم التعلم منه ثانيا، ويؤيد ذلك قول أحد زعمائهم « أنه بالاحتياج عرفنا الإمام ، وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج ، كما أنه بالجواز عرفنا مقادير الجواز فى الجائزات (٢) .

وأما الخرمية ، وهى إحدى الفرق الباطنية ، فاسمها مشتق من « خرم » وهو الشىء المستلذ ، المستطاب الذى يرتاح إليه الإنسان عند مشاهدته، ويهتز لرؤيته وقد كان هذا لقبا كالمزدكية ـ وهم أهل الاباحة من المجوس (٣) .

وينتهى مذهب «الخرمية» إلى رفع التكاليف والبعد عن التعبد ، وتحريض الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات ، والعشق بالمحرمات ، وهـــذا نفس مايذهب إليه المزدكية الذين أباحوا النساء وإن كن من المحارم ، ويتفق هـــذا أيضا مع إحدى فرقهم وهى البابكية ، والتى كان يجتمع المستجيبون لها فى بعض الليالى ويطفئون الأنوار ويثب كل رجل إلى إمرأة ليظفر بها ، ويقال عن ذلك عندهم «الاصطياد» وهو فى دعواهم أطيب المباحات .

وخلاصة ماتهدف إليه هذه الفرق ، الخروج عن الدين الإسلامى الحنيف ، وهدم دعوته عن طريق استجلاب الجهلة من الناس الذين يسهل اغراؤهم وتصديقهم لدعواهم الفاسدة .

---

(١) د . محمد على أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية ص ١٠٢

(٢) د. سامى النشار ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ١٩٦

(٣) الامام أبو حامد الغزالى ـ فضائح الباطنية ص ١٣ .

لقد استخدمت تلك الفرق منهجا وضعيا لتأييد دعاويها كالتفرس والتأنيس، والتشكيك ، والتعليق ، والربط ، والتجليس ، والخلع، والسلخ(١) .

والتفرس معناه عندهم أن يكون صاحب دعواهم فطناً يعرف من يمكن استدراجه إلى دعوته ، وأن يكون ذكيا مشتمل الحدس ، أى لديه القدرة على التعبير عن الظواهر وردها إلى البواطن .

أما التأنيس فهو القدرة على موافقة أصحاب الدعوة فيما يذهبون إليه فى دعواهم من أفكار ، فيجتمع الأصحاب إلى بعضهم . ويميلون إلى موافقة بعضهم بعضا فى معتقداتهم وآرائهم بدون جدل أو اعتراض .

أما التشكيك ، فهو تشكيك المستجيب لدعوتهم ـ فى دينه ومعتقداته القديمة، وعند ذلك يبدأون بسؤاله عن الحكمة من الدين ، وعن أوائل السور فى القرآن الكريم ، وعندما يعجز المستجيب عن الاجابة ، يدعون أن معانى تلك البدايات القرآنية باطنة ، لا يعرفها أحد ، وأن الدين كله على هذه الوتيرة .

وأما التعليق فهو الوقوف عند بعض الأحكام والآيات القرآنية موقفا سلبيا، أى يتركونها دون تفسير أو تأويل ، ويهولون المستجيب الأمر ويعظمونه ويبينون له أن الدين لا يكشف لغير أهله (٢) .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نوضح الفروق الجوهرية بين ما تدعيه هذه الفرق والمذاهب الباطنية، وما تؤكده التجربة الذوقية عند الصوفية والتى تستهدى بنور القرآن الكريم ، والسنة المحمدية، فى سلوكها وأخلاقها وآدابها .

---

(١) د . محمد على أبو ريان الفلسفة الاشراقية ص١٠٢ ـ بيروت ـ ١٩٦٩

(٢) الأمام أبو حامد الغزالى ـ فضائح الباطنيه ـ ص ١١ ، ١٢

اعتمد الصوفية إذن على الباطن، إلا أنهم لم ينكروا الظاهر بل العكس من ذلك تماما ، أكدت الطرق الصوفية أن الإسلام ظاهر وباطن ، شريعة وحقيقة، وأن الظاهر والباطن، والشريعة والحقيقة سواء، فليس هناك خلاف بينهم ،فلا حقيقة بلا شريعة ، ولا باطن بلا ظاهر ، وكل من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، وكل من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق .

أما مذاهب الباطنية ، فقد فرقت بين الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة ، وادعت أن المعانى الظاهرية فى القرآن ليست المستهدفة ، وإنما المعانى الباطنية هى التى يختص بها الأذكياء ، وذوو العلم من الخاصة .

فإذا قارنا بين الباطنية والصوفية فإننا نلحظ تميزا جوهريا بينهما، ويتجلى ذلك فى فرقة «الملامتية» التى لها طابعها الخاص المميز، وحياتها الروحية الفريدة، والتى لا ترى فى اظهار الباطن ضرورة ، خوفا من الاغترار والتعثر فى الطريق ، لذلك فإن الملامتى يحفظ أسرار الله، ويكتم فى نفسه ما بينه وبين ربه ، ولا يظهر كراماته خوفا من أن تكون الكرامة ابتلاء من الله ، يمتحن بها غرور نفسه .

فإذا أخفى الصوفى الملامتى حقيقته أو باطنه عن الخلق ، فإنه يقصــــد بذلك التقرب إلى الله، والزهد فى الناس ، فسلكه مسلك عمل من أوله إلى آخره ، بل هو مجموعة من الآداب يقصد بها مجاهدة النفس ورياضتها لتؤدى به إلى الايثار وإنكار الذات ، ومحو علائم الغرور الإنسانى ، وإطفاء جذوة الرياء فى القلب .

---

* الملامتية ــ زعيمها أبو صالح حمدون بن عمارة ــ الشهير بحمدون القصار المتوفى ٢٧١هـ وكان من علماء الفقــه ، على مذهب الثورى وله شهرة خاصة بين مشــايخ نيسابور باعتبـاره المؤسس الحقيقى لمذهب الملامتية باجماع أئمة الصوفية *

والملامتى لايهتم كثيراً بالوصول إلى المقامات والأحوال فى الجذب، والمحو، والفناء، والاتصال، وما السكر ، وما شاكل ذلك من الأحوال التى تكلم فيها غيرهم من الصوفية ورسموا الطريق لتحقيقها .

وإنما ينصب اهتمام الصوفى الملامتى إلى صدق العلاقة بينه وبين الله، والاخلاص فى النية مع الله ، دون الاهتمام بالدرجات أو حتى بمجرد ذكرها .

لذلك فإن الملامتية لايمكن أن تكون أحد المذاهب الباطنية التى سبق الإشارة عن معتقداتها ، ذلك لأن الباطنية ينكرون الحياة الظاهرية ويدعون أنهما فقط خاصة بالعامة والأغبياء ، وهذا غير مايراه الملامتية فهم يحرصون على تأدية الفرائض الشرعية ، بلا تكلف ولا يظهرون تضررا ، ولا يضمرون لأحد شرا ، وإنما يسلبون ما فى النفس من رياء ، ويجدون غايتهم فى الاخلاص ، ويذكرون عيوبهم . ويفضلون ذكرها عن الافاضة فى ذكر محاسن النفس وكمالاتها .

فالملامة إذن محاربة واعية للنفس من الانحراف عن الشريعة ، وذلك بالقضاء على الرياء والنفاق، من الداخل، وذلك بتخريب الظاهر، فيظهر الملامتى حاله للخلق وقد كشف قبائح الأعمال مخفيا محاسنها ، وهو موقف يستر به الملامتى حاله، ويقف موقف العوام متطلعا إلى مزيد من التقرب إلى الله، ويقول عنهم بن عربى «هم قوم قطعوا العلائق بالخلق ، حتى لايشغلوا بغير الله .

أما الباطنية على وجه العموم فقد أنكروا الظاهر واعتبروه وسيلة الأغبياء . أما الباطن فهو دعامة الأذكياء ، كما سبق القول وهذا طريق يختلف تمام الاختلاف عن الملامة التى ترتبط كلية بالشريعة .

ويبدو لنا أن تشابه الألفاظ لايدل على تشابه المعانى، عند كل من الصوفية

والمذاهب الباطنية ، فالواضح أن الطريق مختلف ، وليس هناك من اتصال بشكل أو بآخر إلا من حيث النشأة الأولى عند السلف .

ولقد غالت الباطنية فى دعواها، ونادت برفع التكاليف الشرعية التى هى فى رأيهم القشر من اللب ، واتخذوا طريق المانوية، والصابئة، والعرفانية، واليونان القدماء شريعتهم، وانحرفوا عن الشريعة الإسلامية بل حاولوا تدمير الدين الإسلامى بما اختلقوه من مراتب الوجود والفيض ، واستخدموا لذلك تعبيرات وألفاظا ليس لها أصل فى القرآن والسنة المباركة .

أما الصوفية فقد حافظوا على الشريعة الإسلامية ، وراقبوا الوسيلة إلى الله ، وهى النفس ، وكشفوا عيوبها قاصدين تربيتها ، خالفوا حظوظ النفس وهواها ، واسترسلوا مع الله ، فألهموا بالحق إلهاما ، وأصبحوا من عباد الله الصالحين .

فهدفهم هو الاخلاص بكل معانى الاخلاص ، والتواضع ، والايثار ، حتى لايشعر بهم أحد ، فظن بعض الحاقدين أنهم قد خرجوا عن الشريعة ، والواقع أن آداب الصوفية لها أثرها الواضح بلا شك فى تطور الحياة الروحية فى بعض نواحى الحياة فى العالم الإسلامى، وهو أثر قد لعب دوراً هاما فى الأقطار الإسلامية الشرقية على وجه الخصوص [1] فى انتشار الدعوة الإسلامية وازدهارها .

ولكن على العكس من ذلك لم يكن للدعاوى الباطنية ، وخاصة المذاهب الباطنية الغنوسية وجود ظاهر فى الإسلام ، بل كانت هذه الفرق الضالة ذات طبيعة غامضة ، وقدرة على التخفى ، فإذا ماهدأت الفتوح قام الغنوس بل

---

(١) د. أبو العلا عفيفى « الملامتية والصوفية وأهل الفتوة » ص ١ — ٧ .

قامت على حركات متعددة لتقويض عقائد الإسلام وكانت تسمى نفسها بأسماء مختلفة مثل غلاة الشيعة ، أو البابكية ، أو البهائيه ، وأحيانا الباطنية أو القرامطة ، (١) .

والعكس تماما بالنسبة للملامتية ، الذين هم من أكابر الصوفية، لما اتصفوا به محافظة على الفرائض والتكاليف ، والعمل بأخلاق القرآن وآداب الدين ولما كانوا عليه من زهد ، وتقشف ، وعبادة ، ومساعدة للأرامل واليتامى .

---

(١) د . على سامى النشار — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ٤٥ .

الفصل الثانى

رد الهجوم على الصوفية

إن كل نفس إنسانية تميل بطبيعتها إلى الإثرة ولا تقبل أن تكون غيرها أفضل منها فى الكمالات الأخلاقية ؛ لذلك وجب مخالفتها وتربيتها حتى تتخلص من هذه الآفات ، وتنصاع لحكم الحق ، وتقبل على الفضيلة ، وتعمل على طريق الإخلاص ، وذلك بكثرة الطاعات ، والصدق فى القول والعمل ، ونكران الذات الذى هو عين الإيثار.

والقضية التى نحن بصددها الآن يتركز موضوعها بين الإثرة والإيثار ، ذلك لأن الطاعنين فى التصوف والصوفية ، يمسكون بمعاول الهدم فى اتجاهين معروفين قديمين .

الاتجاه الأول : —

الرفض بالكلية للوساطة الروحية بين إنسان ورب الناس ، ويقولون كيف نستعين بشخص مهما كان صلاحه فى التقرب إلى الله تعالى . . . . والرد على هؤلاء إنما ينحصر فى النقاط الاتية :

١ — إن الطفل الصغير لايتمكن من معرفة الصواب والخطأ إلا إذا وجه توجيها سليما من الابوين، فتستقيم عنده الحقائق وبذلك يستطيع أن يفرق بين ماهو خير وبين ما هو شر ، وتستمر التربية بمعاونة المدرسة أو المربى حتى يبلغ أشده ، أما إذا ترك بدون رعاية ، وأهمل تلقينه وتعليمه فانه سيكبر على معايير مذبذبة ، وافكار منحرفة ، أو يقع فى كبوة الضياع ، فيلفظه المجتمع ويصبح منبوذا ،

مثله كمثل الطفل الذى يقال له هذا هو البحر ... وعليك أن تسبح وحدك ... فإنه فى هذه الحالة يكون معرضاً للغرق ، أو أنه يتخبط مع الأمواج ، ولا يعرف الطريق الصحيح الذى يعرف به فن السباحة ليقوده إلى شاطىء الأمان .

وكذلك الحال بالنسبة لمعرفة الله ، فالمريد فيه يحتاج فى أول الطريق ، إلى من يرشده ويعلمه ما هو حق ، وما هو باطل ، وما هو خاطر شيطـــانى ، وما هو خاطر ملائكى ، لأن الحق من الله والباطل من الشيطان ، فيجوز أن يتعلم ماهو باطل ، فذلك لأنه لم يخبر الأحداث ، ولم يميز بين الخير والشر تميزاً واضحـــاً لالبس فيه وهذا الأمر عند أكثر الناس .

فالشيخ المربى وهو الذى مر بالتجربة ، وخالف النفس والشيطان جميعا ، وانتصر على الهوى والحظوظ والشهوات وذلك بعد صراع مرير ، هذا المربى الصادق يستطيع أن يلقن مريده سبل الرشاد ويبصره بالطريق المستقيم ، وينجيه من العثرات والعوائق ، حتى يستقيم حاله ، ويتعرف على الطريق الحق للاتجاه إلى الله ، ولا شك أنه بلا أستاذ مربى سيقع فى المتناقضات ، وينقاد إلى المهلكات دون أن يدرى ، لأنه لم يتعرف بعد على طريق الله ، ولم يميز بعد بين طريق الله وطريق الشيطان ، كما أن الركون إلى هوى الشيطان والنفس سهل يسير ، أما العمل فى مرضـاة الله فصعب عسـير ، ومن هنا يلزم التربيـة ، بل ضرورة وجود الشيخ المربى ...

والمريد لايعبد الشيخ ولا يجعله إلهاً كما يفهم بعض السطحيين ومدعى العلم ، إنما هو وسيلة صادقة للتقرب إلى الله ، وسبيل خالص لمخالفة حظوظ النفس ، وذلك بتلقينها الحق والصدق وتسليكها من براثن الشيطان ، وهى عملية جد شاقة لا يقدر عليها المريد وحده ، ذلك لأنه كما سبق الإشارة يميل الى الأسهل والأيسر ، وهو مايمثل

دعاوى النفس وحظوظها ، وجانب الأنانية والأثرة فيها ، وهو لا شك طريق الشهوة والغضب والشيطان جميعا .

إذن وظيفة الشيخ المربى هامة وضرورية ، والصوفية يهتمون بالأخـــلاق وبالسلوك والتربية العملية ، فكم من صاحب علم لا يعمل بعلمه ، وكم من صاحب عقل يقمع ويتزلق الى أسفل سافلين ، لذلك يقول الأئمة : التصوف أخـــلاق والسلوك العملى أساسى وضرورى إذ بدونه لا طاعة ولا إخلاص .

٢ — اما دعوى الطاعنين فى التصوف والصوفية والتى تقول : إن كثيرا من الصوفية يقومون بأعمال لا تطابق الشريعة ويسلكون مسالك أهل الشيطان... فهى دعوى عقيمة لا تستند الى حقيقة ، فالذين يدخلون الى الطريق الصوفى إنما لهم أوصاف معينة،وأخلاق معروفة ، وسمات واضحة ، وآداب مقررة، وتعاليم عددة ، وكل من ادعى أنه متصوف وليس متصفا بهذه الأخلاق،فهوخارج عن الطريق ليس له فيه شىء .

فأصحاب الخرق ، والألوان والمتظاهرون بالتقوى والمتدثرون بالمسوح ، وغيرهم من المدعين ... لا ينتمون الى طريق الله ولا ينتسبون إليه .

ونحن نرى أن سبب المغالاة فى اتهام بعض السطحيين للصوفية، راجع الى أن الصوفية لايدفعون عنهم هذه التهم، ولا يردون على هؤلاء لأن ذلك معناه عندهم إقبالهم على الدنيا ومظاهرها ... وهذه آفة تصيب الصوفى إذ تشغله الدنيا عن الله، وتقربه من الخليقة، وتبعده عن الحقيقة ، لذلك يترك الصوفية الطاعن والحاقد والمدعى والكاذب والمنافق يهاجم أهل الحقيقة، ويفترى على الصالحين، ويسب عباد الرحمن ولايؤذونه، وإنما يقابلون السيئة بالحسنة، والخلق الذميم، بالخلق الكريم،فإذا وقع فى مصيبة خففوا عنه وأحسنوا اليه ، وإذا تعسر اعانوه وإذا فضح ستروا

عليه، وهـــذا السلوك الكريم نابع من آدابهم الحميدة، وأخلاقهم الرشيدة . فهم يعاملون الله، ولا يهتمون إلا برضاه ، ولا يحتسبون عنده إلا ما اقتضته مشيئته تعـالى .

وليس هذا تواكلا ولا ضعفا ولا وهنا ، وإنما يفعلونه عن قصد ، ويتجهون اليه عن نية صادقة فهو خضوع مع القدرة ،وتسامح مع القدرة على القصاص ، وإحسان مع استطاعة البطش والعدوان .

فالتصوف أخلاق ، بل كله أخلاق ، وليس ما يفعله الصوفية بدعة وإنما هو إقتداء بأخلاق الله تعالى ، وتمشى مع خلق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذى كانت أخلاقه القرآن الكريم .

ويبقى الطاعنين أن يتفهموا بين الأخلاق والآداب الجليلة وبين ما يدعون اليه من أخلاق ظاهرة تستظهر منطق الكلمة البراقة وتخفى وراءها الكذب والاغترار والتعجب والرياء . . .

يمتدح الطاعنون أنفسهم ، وينعقون فى الليل الأسود ، كخفافيش لا تستطيع أن ترى النور ، فيختفون وراء أبواب صدئة لا تسمع منهم إلا أصوات خافته مبتورة ، صادرة عن قلوب مرائية ، ليس فيها رائحة لصلاح ولا تقوى . . . .

فليرجع المنافقون الى أنفسهم ، ويتقوا الله فيما يقولون ويفعلون ، ويخالفون حظوظهم وأهواءهم ، فلا يطلبون الدنيا لعرض زائل ، ولا ينشدون الشهرة على أكتاف أصحاب الحق والصدق . . . لأن ذلك من باب الغيبة والنميمة، وأكل لحم الموتى ، وهو من الكبائر التى لا تغتفر . . .

فالصوفية لا يقـولون ببدعة ولا رفعت أصواتهم بضلالة ، وإنمـا هم قـوم يسترسلون مع الله ، همهم التقرب اليه بالعبـادات والمجاهدات ، أملهم الوصول

إلى رضوانه ، والتحلى بأخلاق الله تعالى ، والتخلى عن أخلاق الشيطان ، عليهم العمل بإخلاص ، والعلم فى طاعة ، لا يأملون إلا فى الله ولا يتوسلون بغير الله ، والشكر لله تعالى دستورهم ، والرضا فى جميع الأحوال منهجهم ، والصبر فى الإبتلاء خلقهم ، والزهد عن الامتلاك معدنهم ، والفقر مع الله مبدأهم ، والتوكل على الله شعورهم ، والمحبة فى الله طبعهم ، والبقاء فى الله أملهم ومقصدهم .

فهل أخلاق كهذه الأخلاق وصفات كهذه الصفات ، يمكن أن تكون محل طعن ، ومجال تشكك ، وطريق مساومة فى الدين .... نحن نرى أن أى هجوم على الصوفية ... إنما هو هجوم على الدين الإسلامى الحنيف ... لأن الصوفية إنما يحملون لواء القرآن منهجا وسلوكا وعقيدة ...

الاتجاه الثانى :

يحاول الطاعنون مع اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم ، إلصاق دعوى الحلول والإتحاد والوحدة بالصوفية ، وهذا الإتجاه يعززه ما نقل عن المستشرقين الذين سبقوا الأمة العربية فى العصر الحديث فى عرض كثير من تراثنا العربى ، وترجموا هذا التراث إلى لغاتهم .. وانكبوا عليه دارسين ومحللين وناقدين ....

وإننا لا ننكر ما قاموا به من جهــد مشكور ، كان من الأولى أن يقوم به الورثة الشرعيون من علماء الأمة العربية والإسلامية ، ولكننا لا يمكن أن نتغافل عن حساب الأضرار التى نجمت عن دراساتهم ، وخاصة فيما يتعلق بالطعن فى الدين الإسلامى الحنيف بعامة ، وفى شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بخاصة — فلقد تم على يد هؤلاء المستشرقين محاولة بل محاولات لهدم صرح الدين الشامخ ، وذلك بطريق عرض آراء فجة أو التركيز على المعانى المتشابهة فى القرآن ، أو نقل أقوال الفرق الضالة والخارجة عن الإسلام ، أو تأويل الأفكار والعقائد

بما يتمشى مع أهوائهم ، أو الفهم القاصر والترجمات المشوهة عن كلام الأئمـــة والفقهاء والعلماء فى الإسلام .

واخطر ماترتب على إجتهادات المستشرقين، من تشويه لحقيقة الدين الإسلامى .. تخريج دفعات من العلماء المسلمين تتلمذوا على هؤلاء المستشرقين ونقـــلوا عنهم أقوالهم المبتورة ، وآرائهم الفجة ، دون فحص أو تمحيص، كأنها معارف لا يرقى إليها الشك، وعلوم هى عين اليقين، والعجيب أنهم تلقنوا علومهم هذه بلغة أساتذتهم المستشرقين مع ما فيها من احتمالات التقصير عن الفهم، وتأويل للمعنى، نتيجة للترجمة غير الدقيقة ، أو لحرفيتها .

وهذا يمكن أن ينطبق مثلا على كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى، والذى حير كثير من المستشرقين فى فهم شخصية صاحبه ، فادعى بعضهم أن لا عقيدة له ، فهو متكلم وصوفى وباطنى وظاهرى وفقيه أشعرى وأحيانا معتزلى .. وخلطوا بين أفكاره قبل الانخراط فى سلك الطريق الصوفى .. وبين علومه الكسبية التى هى عن طريق النظر وبين علومه عن طريق الذوق والكشف .. وهذا الطريق الأخير يقود إلى نتائج مختلفـــة تماما عن استمدادات النقل والنظر . فشتان بين علوم الكسب، وعلوم الوهب ، وبين العالم والعارف . فالغزالى مدرسة يتخرج منها الطالب بعد أن يتدرج فى فصولها .. ويصل إلى النهاية بعد تحصيل علومها .. فلا تناقض بين الآراء ، ولا تخاصم بين المعارف ، ولكن لكل طالب حسب استمداده وقدراته تحصيل قدر منها ، فإذا ما نقل عن المستشرقين القول بأن حجة الإسلام الإمام الغزالى بلا عقيدة محددة ، وروجت هذه الآراء بطريق العلماء العرب ، فإن هذا الطعن لاشك يصيب مقتلا . وهنا تكمن خطورة هذه الآراء ، وتأثيرها الضار على تراثنا العربى العظيم .

وإننا نحمد الله تعالى على أنه انبرى من العلماء الإسلاميين من أفحم خصـــوم

الإسلام ، وأسقط دعاويهم ، بأدلة لاتقبل المكابرة أو المنازعة ، وبحجج دامغة بترت هذه الآراء الفجة ، وأرجعت معظمها إلى الجهل المطبق بالشريعة الإسلامية أو إلى التحيز ضد الإسلام نتيجة التعصب الأعمى .

والدعوى التى نحن بصددها الآن وهى إلصاق تهمة المناداة بالحلول والاتحاد والوحدة للأئمة الصوفية . . بخاصة الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى الذى اتهم بأنه صاحب نظرية فى وحدة الوجود ، ونحن لانريد فى هذا المقام أن نعرض لما قصده الشيخ الأكبر ، لأن مكان ذالك كتاب آخر . . وإنما نود فى عجالة أن نبين أن هناك فرق بين منطق العقل ، وبين المعرفة الذوقية ، أو بمعنى آخر إذا استخدمنا العلوم الكسبية لفهم العلوم الكشفية والوهبية والإلهامية . . . لخرجت المعانى عن المقصود ، وابتعدت عن الحقيقة إلى الظن الذى فيه إثم كبير .

لم يقل ابن عربى بوحدة الوجود ، ولم يدع أنه والله شىء واحد . بل قال أنا أعرف مقامى كعبد ، ومقامه تعالى كرب ، وإنى أشهد قولا وفعلا أن لا إله إلا الله ، واحد لاشريك له ، صمد لا نظير له كامل لايحتاج إلى أحد والكل يحتاج إليه .

فإذا قال الصوفى :

وفى كل شـــىء له آية . . تدل على أنه الواحـــد

فلا يقصد من ذلك إلا شهود قدرة الله تعالى وآثاره وعظمته فى العالم بأسره وهذا معناه أن هذا العالم الظاهرى لاوجود له على الحقيقة ، إذ أن الوجود الحق لله تعالى .

هذه معارف لايتذوقها إلا عبد كابد فى مجاهداته ، وحار فى ميدان حبـــه الإلهى ، فطاش وســكر من كأس محبوبه فلما طلب المزيد أوقفه تعالى عند مقام لايتعداه ، وأعلمه أنه العبد الفقير لمولاه ، وأنه مهما وصله واتصـــل بالنوافل

والعبادات، فلن يصل إلا لكمال العبودية وهى مشاهدة آثاره تعالى فى خليقته ، وأن المريد الصادق ليس بمقدوره الانسلاخ عن نطاق بشريته .

وفى هذا المقام الرفيع يقف ابن عربى خائفا فزعا ، ومن هيبته تعالى نادما جزعا .. حتى يذوب ويطمس فى الحق فانيا .. من جلال المشاهدة ، وجمال المحادثة ، ونورانية القربة العظمى .

أين وحدة الوجود هنا . . أنها العبودية الحقة ، التى لايرى فيها حظا لنفسه ولا هوى . . وإنما يرى الكمال مثلا فى الله تعالى فيقول الصوفى : أشهد أن لا إله إلا الله ... وأشهد ... هو ... غير أرى ... وغير أسمع ... هى مشاهدة ربانية ، ومعاينة كشفية ، عن طريق الصدق والاخلاص والطاعة ، فألهم بالحق إلهاما ، وكوشف بالحقائق والأسرار، ومن الله عليه بالتجليات ، والفتوحات ، والفيوضات ، والمنن ، والعطايا ، والهبات مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وخاتمة القول أن المستشرقين ومن يتبعهم فى آرائهم قد جانبوا الحقيقة عندما خلطوا بين وحدة الوجود ، ووحدة الشهود ، فوقعوا فى الخطأ عندما أعلنوا أن الصوفية من المنادين بالحلول والاتحاد والوحدة .

وفى تصورنا أن ذلك راجع إلى أن النظر والبحث العقلى يصلح فحسب بالبحث فيما يتعلق بالعلوم الجزئية والتجريبية، أما مايتعلق بالعلوم الكلية والمعرفة الصوفية وهى قمة هذه العلوم فإن أصحاب الفكر مهما أوتوا من العلم النظرى لن يتكشفوا حقائقها ولن يتعرفوا على بواطنها ولن يقدروا على أن يدلوا برأى فيها .

وكل مايقولونه عن هذه العلوم الذوقية، إنما هو مكابرة لثقتهم البالغة فى استنباطات العقل واعتزاز بعلوم النقل والكسب والنظر ، فلو تمهلوا لعلموا أن علومهم قاصرة عن إدراك ماهيات العلوم الوهبية والكشفية والإلهامية لأنها

علوم تقذف فى قلب الصوفى فيلهم بالحقائق إلهاما مادام القلب مستعداً والنفس مسقطة للتدبير .

وهذا لايمكن أن يحظى به إلا من كابد وعانى فكوشف بالأسرار كثمرة لجهاده ومنة إلهية حظى بها كنتيجة لمجاهدته .

وهذا هو سبب تقصير العلماء فى التعرف على علوم الصوفيـــة ، بل وسبب أحكامهم المفتراة على أصحاب الحق من الأولياء الصالحين .

الفصل الثالث

ثمرات التصوف

١ ـ العمل والصوفية

تأكد من الدراسة الحقلية أن التصوف ليس كما يشاع عند غالبية الناس من أنه عزوف عن الحياة بل هو مشاركة إيجابية في مختلف الأنشطة والحرف والوظائف العامة مع المحافظة في نفس الوقت على آداب الشريعة الإسلامية وكمالاتها .

وينظر الصوفية إلى أهل التبطل على أنهم قوم جهالة حتى ولو كانوا يدعون التزهد والتقشف . فالمشاهد أن الصوفية يعتقدون أن المتصوف الذى لا يتكسب بالعمل ليس جديراً بالانتساب إلى الطريق الصوفى .

لذلك فهم يسارعون فى معاونة المتعطلين منهم وإيجاد أعمال مناسبة لهم ، فالبطالة ليست من أخلاق الصوفية ولو كان صاحبها زاهداً عابداً متنسكا، لذلك فإنهم ينظرون إلى العمل على أنه عبادة يجب على الفرد أن يؤديهـا كما تؤدى الفرائض والتكاليف الشرعية .

فالعامل العابد خير عندهم من العابد الزاهد لأنه يقوم بدور إيجابى فى تنمية المجتمع ، لا أن يصبح عالة عليه .

ولقد تسنى للباحث معايشة بعض الطرق الصوفية وملاحظة التطبيق العملى لمراسم الطريق الصوفى . فوجد أن جميع مريدى الطريق من أصحاب الأعمال والوظائف العامة كما أن منهم التجار وأصحاب الحرف . وأنه قل أن وجد منهم عاطلا .

إلا أنه من ناحية أخرى نجد الصوفية يرون أن العمل وسيلة ، وليست غاية

فى حد ذاتها لأن أخشى مايخشاه الصوفية هو أن يصبح العمل غاية، فتقوى علاقة الإنسان بالدنيا وتغلب عليه شهوة الحياة ، وروح الامتلاك المال والرغبة فى المركز والحياة .

فالعمل لايكره عندهم لذاته لأنه شرف، ولأنهم لايترفعون عن الاشتغال بأقل الأعمال . بل إننا نجد بعض مريدى الطرق من يقوم بتنظيف المراحيض فى الزوايا والمساجد، وخدمة المرضى والمساكين ، كما أن التاريخ يحكي لنا روايات كثيرة عن أن بعض الأقطاب من الصوفية كانوا يمتهنون حرفا بسيطة مثل (غزال وخباز وحداد وغير ذلك من الأعمال والحرف) .

وفى نفس الوقت يقوم بعض الصوفيــة بتدريس علوم الفقه والشريعة ولا يتقاضون عن ذلك أجرا . فالصوفية ينظرون إلى العمل باعتباره طاقة هادفة تؤدى نتيجة، أو حاجة ماسة أو ضرورية للفرد، بالاضافة إلى أن العمل عبادة قررها التشريع الإسلامى .

كما أن العمل يتطلب فى نفس الوقت قدرات إنسانية وارادة ووعى وعاطفة وجهد لتحقيق هذا الغرض السامى، لذلك فهو يتطلب صحة العقل أكثر مما يتطلب صحة الجسم ، لأنه من الممكن أن نعطى عملا مناسبا لبعض ذوى العاهات كالصم والبكم والمكفوفين ، ولكننا لا نستطيع أن نعطى عمــلا إلى مرضى العقول والمجانين إذ أن العمل بطبيعته يحتاج إلى جهد نفسى وعقلى وعضلى .

ومن ناحية أخرى فإن الصوفية ينظرون إلى احتراف المهن والحرف كالطب والهندسة والصيدلة والكيمياء وغيرها، نظرة نابعة من معتقداتهم الدينية ، ذلك أنهم يرون أن التصوف هو علم التوحيد الذى يعالج الكل الأخروى والذى موضوعه المعرفة الكاملة بالله ومن ثم فإنه لايندرج تحته علم من العلوم وإنما كل العلوم

تتدرج تحته ، لذلك فهم يرون أنه عن طريق هذا العلم وحده يثاب الإنسان ويجازى وينعم ويحقق فى الآخرة .

ففى الحياة الآخرة لاتوجد مهنة الطبيب لأنه ليس هناك مرضى ولا مهنة المهندس ، لأن البناء على أكمل وجه ، وأجمل صورة ، ولا مهنة الكيمائى لأنه ليس هناك حاجة إلى معرفة جديدة لخواص المواد وتراكيبها واستخداماتها — وبذلك لايبقى إلا علم التوحيد .

ومن هذه الزاوية الدينية ينظر الصوفية إلى الأعمال والمهن المختلفة ، ويعتبرونها وسائل دنيوية فقط للتكسب ، لاغاية يقصدونها لذاتها ، وليس معنى ذلك أنه ليس بين المتصوفة أطباء أو صناع أو عمال وإنما يتركز جل اهتمامهم - بالإضافة إلى المهن الدينوية التى يمتهنونها - إلى النظر إلى علم التوحيد باعتباره العلم الحقيقى الموصل إلى المعرفة الكاملة والذى هو أشرف العلوم وأسماها شأنا ، لذلك فامتهان مهنة التدريس لهذا العلم أو دراسته تعتبر عندهم أفضل الأعمال وأجلها فى الدنيا والآخرة .

٢ — الصوفية والحكام

ينقل لنا التاريخ عبر القرون المتعاقبة مواقف الصوفية واتجاهاتهم ونظرتهم إلى الحكام ونصائحهم ومشاركتهم لهم فى الرأى والمشـــورة والعمل على إزالة مايقابلهم من عقبات ونكسات ومشاكل ، فالصوفية يعتبرون أنفسهم فى مسئولية دائمة اتجاه مايقابل الأمة الاسلامية من ظلم وعدوان وتعسف، ولهم مواقف رائعة تبين إلى أى حد ترتبط الحكومة الباطنية مع الحكومة الظاهرية فى تطبيق تعاليم الاسلام، ورفع لوائه .

فالمعروف أن القواعد والآداب السلوكية فى الطريق الصوفى ، تحتم على المريد أن يتبع أولى الأمر فى الحكومة الظاهرة، لأن الطاعة لهم واجبة، والاخــــلاص مطلوب ، مالم يخالف ذلك نص صريح ، أو سنة مباركة أو حديث شريف .

ومن ناحية أخرى فإن مشايخ الطرق الصوفية يتخذون من أقوال وأعمال الرسول ﷺ هاديا لهم ونبراسا ، لذلك فهم يشلون مريديهم ألا يكونوا أمعات وأن لايستذلوا وأن يكونوا من أصحاب الرأى والحق .

فالرجال عندهم هم الذين يستحقون الانتماء الى دين الاسلام، ولذلك حرم على الاتباع أن يسايروا ركب أى سلطان ظالم، أو أن يجالسوا والياً لايعمل بالكتاب والسنة ، ولقد أوضح ذلك سيدى أحمد الرفاعى + ٥٦٠ هـ فى عبارات رائعة عندما قال :

« لا تتواضع للأغنياء ولأبناء الدنيا ، و تنهض لهم ، ولا تقرب أبوابهم ، وإن دعوك فإن أبناء الدنيا إن أكرمتهم أهانوك ، وإن أحببتهم أبغضوك ، وفى

كل الأحوال يصيبوك . . فأعز نفسك عن صحبتهم وخدمتهم ، فإذا خدمت الغنى زدته تكبرا وتجبرا ، ونقصت من الله تعالى ، ولا تخالط أهل الكبر ، ولا تكرم السلطان الجائر ودعاة الباطل وأهله » .

وينصح الرفاعى الخليفة المستنجد فيقول له(١) :

« إن أنت نفذت أحكام الله تعالى فى نفسك ، نفذت أحكام كتبه فى ملكك ، وإن عظمت أمر الله عظم الناس أعمالك ، وولاة الأمور من قبلك ، ثم زن يا أمير المؤمنين كل ما يصل إلى خويصة نفسك فى هذه الدنيا من طعام تأكله وشراب تشربه ، ورداء ترتديه ، واجعل الحرص على الدنيا بقدر ذلك ، فإن رداءك ما سترك ، وطعامك ما أشبعك ، وما لك منه شيئا ، وعليك بالعقل والدين ، وإياك وأرباب القسوة والغدر والضلالة فهم أعداؤك ، وإذا أحببت حكم الانصاف فى عملك ، وإذا كرهته فاذكر الله .. والخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة ، وساو الناس فى باب عفوك » .

ومن هنا يتضح أن مكارم الأخلاق عند أئمة الصوفية هى معيار الحكم على الشخص فى المجتمع ، وليس لمركزه الاجتماعى أو المادى أى تأثير عند أهل الحق الصادقين ، مادام لا يسير العبد فى الله .

ومن ناحية أخرى فإن الصوفية يركزون فى القول والعمل على السلوك الأخلاقى فى المجتمع المؤسس على الأخلاق الاسلامية ، فنجد سيدى عبد الرحيم القنائى (٢) يعتبر الأخلاق هى مفتاح كل الأعمال الطيبة والهداية والطريق الموصل إلى معرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فالأخلاق عنده تنبع من مزيج من العلم الظاهر والباطن ،

(١) أقطاب التصوف الثلاثة — تقديم د. عبد الحليم محمود ص ٩٤ ، ٩٦
(٢) الطبقات الكبرى — ترجمة حياة سيدى عبد الرحمن القنائى .

والعمل الجتنع المستنهر تطويه الروح فترسله إلى النفس الأمارة لتفسلها عن أهوائها .

أما حجة الاسلام الغزالى فإنه يكتب إلى «تاشفين» ملك المغرب رسالة طويلة ينصحه فيها بقوله «أما أن تحمل سيفك فى سبيل الله وتجدة اخوانك فى الأندلس، وإما أن تتنزل إمارة المسلمين حتى ينهض بحقهم سواك (١)» .

ويتابع التاريخ سرد مواقف الصوفية فى نصح وارشاد الحكام فى العصور المختلفة فى البلدان الاسلامية فنجد الإمام محى الدين بن عربى يقول للملك الكامل حين تهاون فى قتال الصليبيين : «أنك دنىء الهمة ، والاسلام لن يعترف بأمثالك فانهض بالقتال أو نقاتلك كما نقاتلهم» .

وحين تكاسل المماليك عن قتال الصليبيين يثور الصوفى الكبير العز بن عبد السلام ويأمر بالقبض على زعمائهم ، ويعلن أنه قد اعتزم بيعهم فى سوق الرقيق لأنهم خانوا أمانة المسلمين .

فلم يقتصر عمل الصوفية على التعليم الدينى بل تعدى ذلك إلى مواقع العمل وخدمة البيئة الإسلامية ومقاومة الأعداء والخونة والظالمين بالاضافة إلى الجهاد فى اعلاء كلمة الدين .

نرى أحد الصوفية الكبار يضحك فى أحد المواقع الحربية فيسأل عن سبب ضحكه فيقول : «ألا أضحك وأنا فى أحب المواقف إلى الله تعالى ، فإن أسعد أوقاتى وأرجاها عندى أن يرانى ربى محاربا بسيفى فى سبيله ، وأنا بعد أحرص على الموت منى على الحياة» .

---

(١) الشيخ محمد محمود السطوحى التصوف وأقطابه ص ٢٠ .

ويحكى لنا التاريخ الكثير عن مواقف البـدوى رضى الله عنه فى حرب الصليبيين ويطلق على السيد البدوى « الله ... الله ... يابدوى جاب الأسرى » وذلك للدور العظيم الذى قام به من حشد الحشود وتربية الرجال المقاتلين الذين فكوا أسارى المسلمين وحققوا النصر لبلاد الإسلام (١).

ومن ذلك يتضح أن اشتراك الطرق الصوفية ومشايخها فى الحياة المدنية أمر يؤيده التاريخ، وما زالت هذه المشاركة قائمة حتى الآن فنجـد أصحاب الطرق ومريديهم يدلون بآرائهم فى الحكم، ويوضحون الطريق الذى يجب أن تسير عليه الأمة فى معالجة شئونها، وذلك لنصرة الإسـلام والمسلمين. كما أنهم يجهرون بالرأى فى محاربة ومعارضة ما يخل بآداب وتعاليم الإسلام الحنيف.

وإذا كان الصوفية لا يدخلون فى شئون الحكم بشكل ظاهر فإنهم فى نفس الوقت لا يوافقون الظلمة والمتعسفين من الحكام، بل يحاربونهم سرا وعلانية، ومواقفهم معروفة عبر التاريخ.

---

(١) التصوف وأقطابه ص ٢٠ وما بعدها.

٣ — تعاليم الطريق وآدابه

تبين من البحث أن التعاليم الواجب اتباعها لدخول المريد فى الطريق أن يزهد فى أشياء أربعة : المال، والشهرة ، والتقليد؟ والمعصية، وعلى المريد أن يتخذ لنفسه شيخا يرشده ويبصره بواجبات الطريق وآدابه .

كما يجب على الشيخ أن يعطى من جانبه لمريده أربعة أسلحة يدافع بها عن نفسه، ويدفع بها الشيطان عنه ، وهى الخلوة ،والصمت، والصوم، والأرق [1] .

ومن هنا يبدأ النزاع الداخلى الطويل بين النفس من جهة والهوى والشهوة من جهة أخرى، حتى إذا انتهى هذا الصراع النفسى،وتخلص المريد من سلطان هذه النزعات، وطلب الحظوظ ، أمره الشيخ المربى بالخلوة، وأداء الفروض مع دوام الذكر كأن يذكر . . . الله وسبحان الله ... أو لا اله الا الله [1] . .

وأن أول الطريق بالنسبة للمريد هو نهاية طريق الفقيه لأن أعلى درجات الفقيه، أن يخلص لعمله، وعلمه مع الله ، فيحظى، ويرقى، إلى أحوال ومقامات حسب ما يسر له، إلى أن يغيب عن ملاحظة حظ نفسه، كما أن الله سبحانه وتعالى يعطى العبد حسب ما يصلح له فلو أعطى غير ما أعطى لفسدت حاله [2]

ويجب على المريد الا يدخل الطريق الا بعد أن يتبحر فى العلوم الشرعية، خوفا عليه من الزندقة ، وعليه أيضا أن يصوم ثلاثة أو سبعة أيام ، ملازما للصمت وقلة الأكل ، والشرب والنوم ، وإذا انقضت الأيام يصلى ركعتين لله

---

(١) الغزالى ــ أحياء علوم الدين .. الجزء الرابع .

(٢) الشعرانى ــ الطبقات الكبرى (بالهامش كتاب الانوار القدسية فى آداب العبودية ٢٢ وما بعده) .

تعالى ، كما أنه من تعاليم الصوفية وجوب تكرار قراءة القرآن الكريم ، والأوراد وعلوم الشريعة ، والصبر على الجوع ، اختيارا أو اضطرارا ، فى أيام البلاء والقحط (١)

والواقع أن أهل الطريق لم يبتدعوا جديداً ، وإنمـا مشوا على منوال الرسول صلى الله عليه وسلم فى المأكل والملبس والمشرب ، وأن جميع أقوالهم وأفعالهم مؤيدة بالاحاديث ، وسنة الرسول الكريم التى استنها والصحابة فى أمور المعاش والدين ، فى المأكل والملبس والمشرب والصيام والطهارة والصلاة والحج وخدمة المشايخ ، وفى السلم والحرب (٢) ، وسنوضح هنا نبذة قصيرة عن أخلاقهم وآدابهم .

المأكل والمشرب :

كانوا لا يردون الهدية من مأكل ومشرب ، من أصحابهم ومن السلاطين ، وعدم قبولها من الذى يطلب العوض ، وكانوا يستعملون السنة فى الدعاء فى الأكل ، والتسمية (باسم الله) ويأكلون باليمين ، وكانوا يمسكون عن الأكل حتى يبدأ الشيخ ، وكانوا يستخدمون الملح فى الأكل وبعده ، ويمصون أصابعهم بعد الأكل لحلول البركة فى الطعام ، ومسح القصعة ، كما كانوا يداومون على أكل الثريد فى الطعام مع اللحم وغيره ، وذلك اكراما الخبز وكانوا يكرهون النفخ فى الطعام خوفا من ذهاب البركة ، ويخلعون أحذيتهم عند الأكل ، ويطعمون خادمهم من طعامهم وإذا انتهوا اقاموا دفعة واحدة ، وكانوا يغسلون أيديهم

(١) الشعرانى ـ الكوكب الشاهق فى الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق مخطوط بمكتبة محافظة الاسكندرية .

(٢) ابن طاهر بن على المقدسى ـ صفوة التصوف ـ مراجعة الدكتور أحمد الشرباصى ص ١١ .

بعد الأكل ، وكانوا يتخذون الطعام عند موت أحدهم ، ويقدمون الطعام الذى يصنعونه بأيديهم إلى إخوانهم ، وكانوا يكرهون السؤال ، ويفضلون العمل ، ويبيحون السؤال للخادم إذا كثر دينه .

اقتداؤهم بالصحابة فى لبس الخرقة وغيرها :

كانوا يلبسون أثواباً من مرقعات شتى فى حالة العوز ، وذلك أفضل من أخذها من غيرهم إحساناً ، وكانوا يلبسون النعال ، ويبتدئون بلبسها باليمين فى اللبس ، وباليسار فى الخلع ، وكانوا يلبسون الجورب ويتوضأون به .

الطهارة والنظافة :

كان إذا بال أحدهم استنثر ، وكانوا يغتسلون يوم الجمعة ويتسوكون ، وكانوا ينامون على طهارة ، ويهتمون بنظافة الثياب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، وقص الشارب ، وحلق العانة .

الصـــلاة :

كانوا يتخذون الميزان أو الساعة لمعرفة أوقات الصلاة ، ويصلون الركعتين عند دخول المسجد ، وعند السفر والرجوع منه ، ويكثرون من قراءة : « قل هو الله أحد » فى الصلاة .

الصـــيام :

كانوا يصومون يومى الاثنين والخميس ، وكان منهم من يصوم الدهر ، وكانوا يصومون يوم عرفة ، فهو كفارة سنتين عندهم ، وكذلك أيام عاشوراء ، ومنهم من يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، أو يصوم صيام داود فيصوم يوما ويفطر يوما ، وكانوا يأمرون الشباب بالصوم عملا بقول الرسول ﷺ : « من

استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء) ، وكانوا يفطرون على التمر فان لم يجدوا فطروا على الماء .

الحـــج :

كانوا يكثرون من الحج وخاصة مشاة على الأقدام .

خدمة المشايخ والاصحاب :

كانوا يعتقدون أن خـدمة مشايخهم وأصحابهم أفضـل من الصوم ، وكانوا يرفقون بخدامهم ، ويتركون الاعتراض عليهم ، ويطلبون التوسعة عليهم .

الانشاد والطرب :

كانوا يغنون ويلهون لهواً بريئاً أيام الأعيـاد ، وكانوا يلقون بالثياب إلى المنشد ، ويستمعون إلى الغزل من الشعر لتردع القلب لتمى الذكر[1] .

٤ — تأثير الطريق على شخصية المريد

اتضح من البحث أن تقسيمات الاجتماعيين للمواقف الاجتماعية والتي تخضع الشخص إلى أحد المواقف تجاه شيء ما تبدو عند تطبيقها على المريدين في الطرق الصوفية غير عملية بل تعسفية، ولا تمثل الأبعاد الواقعية المأمولة منها، فقد قام الباحث باختيار عينات من المريدين بالطرق الصوفية لامتحان مدى صحة تقسيم المواقف عند ماكيفر (1) في أقسام ثلاثة هي :

١ — مواقف تنطوى على إحساس فعلى بالضعة بالنسبة لموقف شخص من شخص آخر .

٢ — مواقف تنطوى على إحساس فعلى بالسمو .

٣ — مواقف تنطوى على إحساس بالحيدة ، ولا علاقة لها بمستويات الضعة والسمو .

فإذا تمشينا مع رأى الاجتماعيين في إمكانية إخضاع الظواهر النفسية للدراسة الكمية، بمعنى قياس درجة الاستحسان والاستهجان عند المريدين تجاه الشيخ، لوجدنا في النهاية أنه من العسير الحكم على مواقف المريدين بهذا التقسيم التعسفي ، ذلك أن نظام المشيخة هو نظام طبيعي غير مفروض على المريدين ، ويمكن أن ينخلع عنه ، في أى وقت يشاء ، دون ارتباط ملزم من ناحيته ، أو ناحية شيخه .

لذلك فإن تحويل استجابات المريدين الشفوية والتحريرية إلى مراتب أو درجات لمعرفة مدى الانفعالات النفسية ، التي يمكن أن يستجيب لها المريد ، أو لا يستجيب هو أمر يبدو غير عملى أو واقعى بالنسبة للطرق الصوفية ، لأن

---

(١) ماكيفر — المجتمع — ترجمة د. على عصمت .

العلاقة بين المريد والشيخ إنما هى علاقة من نوع فريد ، تقوم أساساً على الصداقة والحب والشعور بالكمال الأخلاقى حيال شخصية الشيخ والمربى ، وليس هناك من مصلحة أو هم إلا الرغبة فى الوصول والفتح الإلهى ، وذلك لا يتأتى إلا عن طريق الصدق والإخلاص والنية والمجاهدة ، لتحقق الكشوفات والتجليات عن طريق الرؤى والإلهامات .

فإذا طبقنا تقسيمات ماكيفر على شخصية المريد لوجدنا أنها لا تخضع لأى من التصانيف المبينة ، ذلك أن المريد يشعر شعوراً أكيداً بموقف معين حيال المشيخة مبعثه تربية نفسية تمده على تقبل ما يمكن أن يوصف ظاهرياً بأنه ضعة وتذلل ، على أنه نوع من المجاهدة تمكنه من الصعود إلى مقام أعلى ، أو درجة فى السلم الروحى أكمل ، وفى نفس الوقت فالمريد يشعر بالالتزام ، وبموقف الاحترام الشديد لشيخه وليس بموقف الضعة ، فالاحترام لا يدل بالضرورة على الإحساس بالضعة ، أو الضعف ، وإنما يجوز أن يكون دلالة على الثقة بالنفس ، والإحساس بكمالاتها عندما توصل بأصحاب الأخلاق والمقامات الرفيعة .

والمريد فى الطريق الصوفى يعتبر شيخه من الصالحين ، وفى نفس الوقت يشعر بالشفافية والتسامى والثقة ، بما يفعله ، أو يمنحه ، أو يمنعه ، لأنه يعرف جيداً أنه الخير ، وأنه الحق ، فيشعر فى نهاية الأمر بالانتماء إلى الطريق ، وأنه بالطريق وحده يكتمل وتتكامل شخصيته وبدونه يذوب ويضيع .

وهذا التأثير القوى الذى يخضع له المريد له ما يبرره[1] ، إنما يتحدد بعيداً عن المواقف التصنيفية التى تخضع للتقسيم الحسى والمادى ، ذلك أن المواقف هنا تختلف

---

(١) التحليل النفسى والسلوك الجماعى — فرويد — ترجمة د. سامى محمود .

إذ تتبلور شخصية المريد عندما تتخفف وتصبح قابلة لأن تتحول من الكثافة إلى اللطف ، أو من العالم الكثيف ، إلى العالم اللطيف ، بمعنى أنه لا يمكن تفسير سلوك المريدين ، والحكم على مواقفهم بعيداً عن الجو الروحي المرتبط به وليس عن طريق السلوك الشخصي الفردي لدى المريدين .

ومن ناحية أخرى فإن تطبيق فكرة المواقف على أفراد الطريق الصوفي هو تطبيق على مجتمع مادي له معاييره الكمية وهو غير المجتمع الصوفي ، إذا تحكمه مراسم وتعاليم وأفكار غير التي تعرف في القوانين الوضعية .

وفي الواقع أن نظرية المواقف، إنما يمكن أن تنطبق على الأشخاص العاديين بالمجتمع المادي الذي تحكمه علاقات متكررة وظواهر متواترة — وهذا لاينطبق على الطريق الصوفي ذلك لأن السلوك — كما سبق الإشارة يمتزج فيه الروح بالجسم أو العالم المادي بالعالم الروحي أو المثالي — فيخرج موقف المريد على الناس غير ما يمكن التنبؤ به ولا يمكن تفهم سلوكه ودوافعه إلا بتذوق التجربة الصوفية ومعايشتها ، لتتضح المواقف التي غالباً ما تكون نابعة من القوانين التي تحكم المجتمع الصوفي .

وخلاصة القول أن نظرة المريدين حيال المشيخة أو شخصية الشيخ يمكن أن تتخذ أكثر من موقف ، ليمكن أن تجمع بين موقف القوة التي لا تقهر وموقف الصداقة والنصح ، وموقف الإرشاد والإبوة ، بل يمكن أن تجمع بين التبجيل والاحترام الذي لا حد له والأستاذية .

٥ — السلوك الأخلاقي في الطريق الصوفي

اتضح من البحث الميداني أن الأدب مع الشيخ هو عنوان الفلاح للمريد ، ومن خالف شيخه ظاهرا أو باطناً خرج عن الطريق ، ولا يرجى منه شيء ، وقد أجمع أكثر الصوفية [١] على وجوب طاعة المريد لشيخه ، فمن خالف شيخه لم يبق على طريقه وانقطعت العلاقة بينهما .

كما إن ملاقاة المريد لشيخه - الذي يعتبره من أولياء الله الصالحين — هو نعمة أنعم الله عليه بها ، لذلك عليه أن يشكر الله على هذه النعمة ويقوم بواجب الخدمة له ، وبذلك يبلغ - على حد قولهم - مبلغ الرجال ، كما أنه من آداب الطريق أن يعتقد المريد في شيخه الكمال والاستقامة .

وقد نظم الشيخ الشربيني أبياتا في أدب المريد مع شيخه يقول فيها [٢] :

ولا تعترض يوما عليه فانه ... كفيل بتشتيت المريد على عجر

ومن يعترض والعلم عنه بمعزل ... يرى النقص في الكمال ولا يدرى

ومن لم يوافق شيخه في اعتقاده ... يظل من الانكار في لهب الجمر

ويجب على المريد أن يقدم شروطاً أربعة قبل الدخول في الطريق وهي [١] :

١ — أن يتبرع بماله حتى لا يبقى له إلا الضروري وحتى لا يظل قلبه محجوبا عن الله .

---

(١) الشيخ محمد بناني — مدارج السلوك إلى مالك الملوك ص ٨٤ وما بعدها — الطبعة سنة ١٣٣٠ هـ — مطبعة الجمالية .

(٢) المرجع السابق .

٢ — أن يبتعد عن الجاه، وذلك بالتواضع وإيثار الخمول ؛ والهرب من الشهرة .

٣ — أن يترك التقليد ، وذلك بترك العجب الغرور ، وأن يتذوق حلاوة مع الله .

٤ — أن يهجر المعصية، وذلك بالتوبة والندم ، ورد المظالم وإرضاء الخصوم لأنه لا يمكنه الترقى وهو عاص .

فاذا توافرت هذه الشروط الأربعة صار صالحا ، وعند ذلك يحتاج إلى شيخ يقتدى به ، أو أستاذ يهـــديه إلى الطريق الحق ، لأن الطريق غامض ، وسبل الشيطان كثيرة ، فاذا لم يكن له شيخ يهـــديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة (١) .

ويجب على المريد أن يتمسك بشيخه ، ويفوض إليه أمره كلية ولا يخالفه .

ويجب على الشيخ أن يحمى مريده ويدفع عنه قواطع الطريق وهى : الخلوة والصمت والجوع والسهر .

وإذا وجد الشيخ من مريده ذكاء وكياسة، تركه للفكر والتأمل ليقذف الله فى قلبه من النور ما يشاء ، وإن لم يجده ذكيا فطنا متمكنا من علوم الظاهر ، فلا يشغله بعلوم الذكر والفكر، وإنما يشغله بخدمة زملائه لتعمه بركتهم، ويحضر مجالسهم وأنه لم يصل لدرجتهم . ومن واجبات الشيخ أن يقود مريده إلى بر الأمان ، وأن يلاحظه وينصحه إلى الطريق الذى يهديه إلى الحق، حسب ما تيسر له من ذكاء

(١) الامام الغزالى — إحياء علوم الدين ج ٨ ص ١٤٧٤ — كتاب الغضب .

وفطنة ومعرفة بعلوم الظاهر، لأن العلوم الشرعية ستمكنه من التغلب على هوى نفسه إذا وجدها قد اغترت بما كشف لها. إما إذا كان المريد غير متمكن من هذه العلوم فانه سيتخيل نفسه عندما كشف له الحجب واصلا فتزل قدمه، ويغلبه الشيطان فيفسد ويصبح مجذوبا عاطلا.

وهكذا نرى أن المريد يصبح جزءاً من الشيخ كما يصبح الولد جزءاً من أبيه، وتتم ولادة المريد بمجرد أن يخلع عليه الخرقة، الدلالة على أنه انخلع من إرادة نفسه، وفني في الشيخ ولم يعد له في نفسه اختيار.

والوقت الذى يمضيه المريد تحت رعاية الشيخ يسمى زمن الارتضاع، ويحدد الشيخ للمريد وقت الفطام، والمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وتأدب بآدابه، فإن حال الشيخ يسرى إلى باطن المريد بواسطة هذه الصحبة وسماع المقال.

ومن القواعد العامة والأوامر التى تعتبر دستوراً الطريق حتى الآن ما كتبه الشعرانى(١) ومنها:

١ - إذا أقبل الشيخ على أحدهم وزاد اهتمامه به فلا يحسدونه لأن الحسد يأكل الحسنات.

٢ - لايدخل المريد الطريق ويأخذ العهد على شيخ حتى يتوب من سائر الذنوب الظاهرة.

٣ - أن يكثر المريد من من مراقبة شيخه حتى يصير مشهوداً له على الدوام ليلا ونهاراً.

---

(١) الشعرانى — الكوكب الشاهق فى الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق — مخطوط. مكتبة محافظة اسكندرية.

٤ - أن يجد المريد طلب الشيخ المربى، وإذا لم يجد فى بلده من يربيه فعليه أن يسافر الى أن يجد شيخا يقوم بتربيته .

٥ - إذا سافر المريد الى شيخ يأخذ عليه الطريق وقابله بجفاء ، وعدم المباسطة فعليه الصبر على ذلك ، ولا يرجع عنه ، بل يجب أن يحبب له ذلك فما فعل الشيخ مافعل إلا لمعرفة علة ذلك المريد .

٦ - إذا وقع المريد فى معصية بعد التوبة على يد الشيخ ، فيجب أن يخبر شيخه بها حتى يوصله إلى سد الباب الذى دخلت منه المعصية .

٧ - لايسأل المريد شيخه أن يجيبه عن كل مايسأل عنه .

٨ - لا يغتر المريد بطول صحبته للشيخ أو يرى نفسه أفضـــل من صحب الشيخ .

٩ - أن يزيد المريد فى محبـــة كل من يراه يحب شيخه ، وذلك ليرق المريد الى محبتهم .

١٠ - إذا تلقى المريد من شيخه شيئا من الأوراد والاذكار فعليه أن يداوم على الذكر ليلا ونهاراً، حتى يقع له الفتح، ويشتغل قلبه بنور التوحيد وعليه أن يهجر مسائل الفضائل التى لايأمره بالاشتغال بها، وذلك ليجد فى الصبر من غير التفات إلى أمر آخر .

١١ - لايدخل أى مريد إلى مجلس الشيخ إلا للخدمة ، أو لطلب إرشاده أو مافيه صلاحه .

١٢ - يعرض المريد على شيخه صحيفة عمله كل يوم ولا يكتم عنه شـــيئا لأن شيخه الأمين عليه .

١٣ - لا يعترض المريد على شيخه إذا وجده يوصى مالاً، أو ثياباً، أو طعاماً، أو خيراً لغيره من الأغنياء، ويترك الفقراء أو المساكين .

١٤ - إذا كان المريد منشداً وأنشد فى مجلس شيخه، فعليه أن تكون نيته فى الانشاد امتثال أمر شيخه فقط، لامن أجل أن يشكره الناس على ذلك .

- ١٥ - ألا يستحى المريد من ذكر أمراضه الباطنة على شيخه فهو طبيبه النفسى، فإذا كتم المريض داءه عن الطبيب طال مرضه .

١٦ - إذا كان المريد من أبناء الشيوخ فعليه أن يطلب شيخاً ليربيه، فإن الولاية والمشيخة ليستا بالآباء والجدود وإنما هى موهبة من الله تعالى .

١٧ - يجب أن يعتقد المريد فى شيخه أنه عارف بالكتاب والسنة، وعالم بميزان الخواطر النفسية والشيطانية والملكية والرحمانية، وعارف بالأصل الذى تنبعث منه هذه الخواطر .

١٨ - يجب أن يمتثل المريد لرأى الشيخ، ويبادر بتنفيذ رأيه، فإن أذن له بعمل قام به وإن نهى عن عمل ابتعد عنه .

١٩ - من أخلاق المريد أن يخاف على شيخه ويتحاشى أن ينقص مقامه لاسيما فى المأكل والمشرب والملبس .

٢٠ - يجب أن يفرح المريد لجفاء شيخه، وإن حرمه من خبز الزاوية وطعامها، وإذا تكدر المريد من حرمانه فى سره فقد نقض عهده من شيخه، وخرج من سياج طاعته، ووجب عليه أن يجدد العهد ثانيا، وقد أجمع مشايخ الطرق على ذلك، وتفسير ذلك أن الشيخ ربما حرم المريد من شىء فيه مصلحة له وارتقاء لمقامه .

هذه الأخلاق العلية التى يربى عليها المريد فى الطريق، تخلق منه إنساناً واعيا

صادقا أمينا على نفسه وعلى بيته واخوانه ، صابراً جلدا ، راضيا ورعا ، متواضعا مطيعا طاعة تقربه من ربه .

وتلعب هذه القواعد العملية الدور الأساسى فى السلوك الصوفى إذ بدونهـا لايستقيم للمريد فى الطريق الصوفى مقام ولا ينتظر منه رجاء .

ومن معايشة المجتمع الصوفى وملاحظة التطبيق العملى لمراسم الطريق وتذوق ثمرات الممارسات الروحيـة ، تأكد لنا أهمية تطبيق هذا السـلوك فى التربية الأخلاقية وذلك لـكبح جماح النفس وتأديبها وتطويعهـا لتظفر بالسمو الأخلاقى والنفسى .

٦ — منافع الطريق الصوفى

لم يتضح من الاستبيانات التى قام بها الباحث وجود مصالح مباشرة أو منافع محددة يحصل عليها المريدون نتيجة إنخراطهم فى الطرق الصوفية .

وقد كانت أجوبة ١٠٠ مريد على الاستخبار عن نوع العلاقة بين المريد والشيخ،قد تشابهت وتحددت أكثرها فى الإجابة على أنها علاقة نصح وإرشاد أو علاقة أبوية وليس هناك من الأجوبة ما يدل على وجود منفعة مادية أو عائد يعود على المريد كنتيجة مباشرة للإنتماء للطريق • ومع ذلك فقد اتضح من البحث أن هناك فوائد جمة يحصل عليها المريدون نتيجة إنخراطهم فى الطرق الصوفية يمكن تلخيصها فى الآتى :

١ — يشعر المريدون أنهم جميعا علاوة على أنهم أخوة « إرتضعو من ثدى واحد» وأنهم فى إتحـــاد شامل لا يمكن أن ينفصم عراه، وأنهم جميعا يتسمون بالإخلاص للطريقة التى ينتسبون اليها مثلهم فى ذلك مثل أعضاء الزمر الإجتماعية .

وإذا إعتبرنا الطريق زمرة إجتماعية فإن أعضاءه ينطبق عليهم ما ينطبق على أفـــراد الزمر الاجتماعية من أنظمة وتقاليد وحقوق ووجبات وفوائد مادية ومعنوية ، ذلك أن المصالح المشتركة بين الجماعة هى هدف وجودها ، فالإنتماء الى الطرق الصوفية شأنه كشأن الإنتماء إلى فريق رياضى أو ناداجتماعى، يولدشعورا قويا بالإنتماء أو الارتباط مع وحدة من الأشخاص .

٢ — عندما ينجح الشخص فى إختيار طريقته أو زمرته فإنه يرفض غيرها وهـذا ما يتأكد فى الطرق الصوفية عند أخـذ العهد على شيخ الطريقة فإن العضو يخضع لنظام الطريقة وآدابها وتعاليمها، فلا ينتمى إلا لشيخ واحد ويعبر المريد عن إخلاصه للطريق بإستخدامه عند التحدث لفظ «نحن» فى مقابل لفظ «هم».

كما أن إستخدام لفظ «هنا»، وهو يعني شيخ الطريقة في مقابل «هم» أو شيخهم «بالنسبة لمشايخ الطرق الأخرى»، وكزملاء «سي فلان» في مقابل الأستاذ فلان أو «الشيخ فلان» الطرق الأخرى — الأمر الذي كان يتوجب معه بحث الأسباب التي تدعو المريدين أن يسلكوا هـــذا المسلك تجاه طريقة من الطرق واستهداف كنه الثمرات والمنافع التي يمكن أن يحصلوا عليها من إنخراطهم في الطريق، والبواعث الخفية للإنتماء للطريق، ولذلك دار جزء من بحثنا على دراسة البواعث للدخول في الطريق، وعما إذا كان المريد يرغب بإنتمائه الى الطريق كسب إحترام الناس !! وهل الدخول في الطريق سيدر عليه كسبا في تجارته أو صناعته أو وظيفته ؟ . . . وهل الدخول في الطريق من مستلزمات العمل الناجح ؟ . . . وهل في الطريق الدخول يؤدى بالضرورة إلى تحسين العلاقة بينه وبين الشيخ الذى يعتقد في ولايته غالبية الناس ؟ .

والواقع أن كل إجابة من هذه الأجوبة تلقى بعض الضوء على المنافع التي تعود على المريدين بالدخول في الطريق، ومع ذلك لايمكن القول أن كلها تعتبر السبب الرئيسي للإنخراط في الطرق الصوفية ، ذلك أنه توجد ممـــا لا شك فيه بواعث خفية لاتظهر في البحث الميداني تؤتى ثمارهـا بطريقة غير مباشرة نتيجة الإنتماء إلى الطرق الصوفية، بل ربما تكون العامل الرئيسي المشجع على الإستمرار للمريد في الإنتماء الى الطريق.

ومن المعروف أن أفراد الطريق الصوفي يتعاونون في حل مشاكلهم الاجتماعية والمادية بطرق شتى، ولهم في ذلك رأى واضح وصريح يتلخص في أنه لكي يتفرغ المريد للعبادة ، وجب على الطريق معاونته في إزالة العوائق المادية واجتماعية التي تقف سدا في سلم الترقي، والسير في عباداته ، ومجاهداته ، فالدخول في الطريق لايتطلب مقدما أن يكون المريد غنيا أو فقيرا ، من عامة الناس أو مثقفيهم ، وإنما

يتطلب أن يكون صادقا مع شيخه مخلصا لطريقته، قائما على تلاوة ورده، قانعا بحاله.

ومن ناحية أخرى إذا كان محتاجا عاونه شيخه، مريضا عالجه، عاطلا ساعده، عن طريقه أو طريق أقرانه.

ومن الملاحظ أن ذلك يعد من السمات الواضحة فى الطريق، وأنه من المشاهد فى مجالس الصوفية، فمثلا إذا علم أحد مشايخ الطرق أن مريدا من المريدين فى عسر مالى، يضع منديله بالحضرة، وبه بعض المال، وعلى كل مريد أن يضع شيئا حسب مقدرته، وبعد إنتهاء الحضرة يسلم المنديل الى المستحق دون أن يعرف أقرانه من المحتاج منهم.

وفى حضرات أخرى يتم مساعدة المريد بحضور أقرانه وذلك بتوصية من الشيخ لأحد المريدين وهو غالبا ما يكون ميسرا ماديا أو من أصحاب المراكز الاجتماعية، كأن يكون أستاذا جامعيا، أو موظفا كبيرا، أو تاجرا مرموقا... ويتم على الفور تنفيذ توصية الشيخ بلا تباطؤ، او مخالفة، ويعطى للمريد المعسر ما يجود به اخوانه.

فالطريق الصوفى هو تجربة اجتماعية، علاوة على أنه تجربة روحية، يمر بها السالك، فلفظ نحن يمثل الاتجاه الذى يزداد بمرور الأيام فيصبح تعصبا للطريقة وشيخها رغم أن جميع المشايخ يجهـــرون بالقول بأنهم متفقون على أن الطريق الصوفى واحد، وان اختلفت تفرعاته. فالغاية والهدف واحد ـ وانما يأتى الاختلاف بين الطرق بعضها وبعض، بسبب الغيرة القائمة بينها أو بسبب جهل بعض المريدين، أو ما يدعيه بعضهم من وجود مايسمى بالمصلحة المشتركة.

فإذا أردنا أن نقيم المصلحة أو المنفعة التى يحصل عليها المريد فما علينا إلا إستثارة المـــريد، وذلك بإنتقاد الطريقة التى ينتمى اليها أو نحاول أن نظهر له السلبيات فى الطريق إن هناك طريقة أفضل من طريقته وعند ذلك يكون رد الفعل

قويا وصريحا ويكشف المريد فى الواقع عن تعصبه ، وبذلك تتضح الفوائد أو المصالح التى تعود عليه من الانخراط فى هذا الطريق بالذات دون غيره.

وأنه مما لايدع مجالا للشك أن المريد فى الطريق يحس إحساسا واضحا بالقيم الذاتية للطريقة التى ينتسب اليها، والأهداف العامة والغايات النبيلة التى يعمل من أجلها، وهذا يعد بطبيعة الحال منفعة أو مصلحة مباشره أو غير مباشرة .

وأننا لا نشك فى أنه لايمكن أن نحتفظ بأى علاقة مع غيرنا من الناس إلا اذا كنا نحترم انانيتنا ووجودنا ، حتى وإن بدت هذه العلاقة مختلطة بين المصالح الفردية والمشتركة ، الا أنها فى الوقت ذاته لا يمكن أن تقوم لهذه العلاقة قائمة إلا إذا كانت تجرى وراء مصلحة أو منفعة شخصية مع وجود غاية أو هدف أعلى أو أسمى تنتسب اليه وهذا هو الحال فى الطرق الصوفية .

ولكن يبدو أن الاقتصار على القول بوجود منافع أو مصالح ذاتية للدخول فى الطريق الصوفى غير كاف — إذ يجدر بنا أن نحدد هذه الفوائد والمصالح ،فإذا قلنا أن هناك سببا يدعو هذا المريد أو ذاك للإنخراط فى الطريق الصوفى . . . . فإنه يتوجب علينا معرفة الأسباب الخفية لأن الأسباب الظاهرية يمكن ألا تعطى جوابا شافيا ... فما لاشك فيه أن المصالح والمواقف متشابكة فى السلوك الإنسانى مما يتعذر فصلها عن بعضها فصلا تاما .

فالمريد الذى يدخل فى الطريق الصوفى يشعر بالانتماء اليه ، وهذا سلوك ظاهر إلا أنه مما لاشك فيه أن هناك سلوكا باطنياً ألا وهو الوصول أو الرغبة فى الترقى من مقام الى مقام، عن طريق المجاهدة والمكابدة حتى يحظى بالفتح الربانى، والكشف الالهى ، ذلك لأن المريد أو السالك يبدأ فى الطريق تائبا ، ثم يأخذ العهد على يد شيخه ، المرقى إلى أن يصبح خليفة أو لا يصبح ، ويمكن أن يحتل مركز المشيخة

فى منطقته أو فى المناطق الأخرى .

فالطريق كما اتضح من البحث هو رابطة بين أفراده أساسها الخلال الجيدة والآداب الشرعية التى تربط قلب العبد كما يقولون على الحضور فى حضرة الحق تعالى بما ينبغى من كمال المحبة والتقديس والتنزيه .

وهذه الرابطة الوطيدة تؤثر تأثيرا واضحا فى شخصية المريد وتعود عليه - بطريق غير مباشر ، بفوائد اقتصادية ومادية فتمده بالحاجات والاحتياجات التى يمكن أن يفتقر اليها ، وهو بمعزل عن الطريق ، ذلك لأن الطريق يؤكد له إمكانية الإشباع المادى والنفسى بما ييسره له من السكينة والطمأنينة ، وبما يمده من حلول لجميع مشاكله ، فلا يشعر بخوف وهو يسير فى طريق الله ، وإنما يعرف تماما أن الله معه فى كل شىء ، فإذا تعثر ساعده شيخه ، واخوانه ، على رفع عوائق الطريق وهذا فى حد ذاته أجمل الخدمات والمنافع التى تقدم للمريد وإن كان ذلك مطلبا غير مباشر للمريد فى صورة الأمن والأمل الذى يسعى اليه ويسعد به .

٧ — الباعث على الدخول فى الطريق

إذا كان هناك كثير من الأجوبة عن الباعث للدخول فى الطريق الذى قام الباحث باستقبار المريدين عليها ، والتى كانت أكثرها تتلخص فى التقرب الى الله أو لمعرفة الله .

فإنه يتوجب علينا أن نحلل هذه الاجابات تحليلاموضوعيا بمعنى إنه إذا كان المقصود من دخول المريد الطريق هو التقرب الى الله، فلما يختار المريد طريقا بعينه دون طريق آخر ؟ ... بل أنه لا يستطيع أن ينضم الى طريقتين فى وقت واحد !! ولو علم شيخه ذلك لطرده من مجلسه ، علاوة على أن المريد يمر بمراحل متعددة إلى أن يثبت مقام، ولذلك فان المريد لا يمكن له منفردا وهو كما يقول الصوفية أن يسبح ... لأنه لم يتعلم بعد السباحة وعليه أولا أن يتعلم عن معلم ثم إذا أتقن العوم ... فان شيخه يتركه يعلم آخرين ... وإذا كان المريد متحمسا أو مغرورا فان على معلمه أن يدربه ولاجناح عليه إذا قسى عليه لمصلحته ، وذلك كما حدث للقطب الغوث النقشبندى(١) فى بداية سلوكه الطريق .

واذا كان المريد يريد الانخراط فى الطريق الصوفى فعليه أن يخلع لباس الرياء والنفاق ، وأن يكون صادقا مع نفسه كما يكون صادقا مع شيخه وأن يحترم آداب الطريق .

والطريق الصوفى هو تجربة شخصية يدخلها المريد آملا أن يصل الى مقام عال عند ربه ولذلك فانه يواظب على القيام بشعائر الدين ويزيد عليها من الذكر والأوراد لتتشفف روحه ، ويسمو بنفسه من درجة الى درجة التقرب الى الله .

---

(١) الانوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية ص ٣–١١ مطبعة السعادة ١٣٤٤ هـ

وهو لا يقتنع بالمقام الذى فيه بل يرى أن عليه أن يكثر من العبادة والذكر حتى يصل الى مقام أعلى ويقول الامام الشعرانى فى الكبريت الأحمر(١) أن على المريد أن يسلك ٢٤٨٫٩٩٩ ألف مقام ليصل الى الولاية وبدونها لا يكون السالك من أهل الحق أو أرباب التلوين أو التمكين الواصلين .

والمريد يعتبر سالكا حقا عندما يتخلص من نفسه الامارة ويشعر بأنه ضعيف مع الله قوى بالله ، فتصبح عنده الدنيا رحلة قصيرة ، ما يلبث ان ينتهى منها الحياة الحقة فى جنات عدن ، ولذلك إذا سألت أحد المريدين عن الباعث لدخوله الطريق فانه يجيب مها إختلفت شكل الرد على أنه الرغبة فى التقرب الى الله والمحافظة على نفسه من التهلكة وغواية الشيطان .

وإننا نجد أغلب علماء الاجتماع والمحللين النفسيين كفرويد قد أدركوا أن هناك بواعث خفية خلف التجارب الاجتماعية — وقد أوضحوا أن كل سلوك ظاهر يخفى وراءه سلوكا باطنيا، هذا معناه أن الاستبارات التى قمنا بتطبيقها على المريدين كان لابد أن يتم تحليلها إلى مصـــــادرها الخفية، ولكن هل أمكن حقا اكتشاف البواعث الحقيقية عند المريدين للدخول فى الطريق ؟ .

أنه لمن المسلم به أن الشخصية الإنسانية شخصية معقدة بل غاية فى التعقيد ولا يمكن ارجاع أى سلوك أو تسويغات عقلية ربما تكون بدورها سطحية — إلى بواعث غير مؤكدة ، لاتعبر عن الباعث الحقيقى الخفى الا ظاهريا .

ويجدر بالذكر أنه لتفهم الباعث تفهما كاملا، فإن ذلك يعد من أصعب الأمور، وذلك إذا علمنا أنه يتوجب تفتيت شخصية كل مريد على حدة لإمكان دراسة حالته لأن الباعث يختلف من فرد لآخر تبعا لبيئته ، وثقافته، وظروفه الاسرية ،

(١) الكبريت الأحمر (هامش كتاب اليواقيت والجواهر للامام الشعرانى).

والاجتماعية،علاوة على أن الشخصية الإنسانية لاتتكرر وجودها، ولامظهرها تماما من شخص لآخر حتى ولو تشابهت فى الأشخاص بعض السمات الشخصية .

والمعروف أن شخصية المريد تمر بمراحل متعددة كما أسلفنا الذكر إلى أن تحظى بالولاية والتى تعد فى واقع الأمر مظهرا فريداً فى نوعه إلا أن أى شخصية مع ذلك تمثل فى البداية الشخصية الإنسانية العامة فى أطوارها الأولى أى قبل الوصول إلى مقام الفناء أو البقاء .

فإذا أردنا دراسة البواعث دراسة موضوعية ، فإنه يجب علينا فى هذه الحالة أن نبتعد قليلا عن دراستنا للطرق، بالمنهج الذى اتبعناه ونستبدل به منهج علم النفس الاجتماعى لنتمكن من تحليل بعض عينات من المريدين ، وذلك بالرجوع إلى طفولتهم ومراهقتهم ، بل وبدراسة البيئة المحيطة بهم وعلاقاتهم بالاخـــرين ، بالإضافة إلى دراسة ثقافتهم ومعتقداتهم حتى نتمكن من معرفة البواعث الخفية عند بعض المريدين للدخول فى الطريق .

وفى الواقع فإن ذلك لن يمثل غالبية المريدين حتى ولو كانت العينات متكاملة، ذلك أن هنالك أسباباً لا يمكن إخضاعها إلى التجارب المعملية والاكلينيكية فى حياة الفرد ويمكن القول بأنها فوق إنسانية .

وإنه من الواضح أنه يمكن أن نستنتج بصفة عامة البواعث على الدخول فى الطريق وذلك من أقوال المريدين والتى تتضمن الرؤى، والإلهامات ، والتوجهات، ومن خلال تفسير أئمة الصوفية للاتصالات التى تتم بغير الطرق الحسية ، وكذلك من المسح الاجتماعى ودراستنا لحدود الدين وأحكامه والبيئة المحيطة بالأفراد، وعلاوة على التعرف على العادات والشعائر المتبعة كالاذكار، والرقى، والاوراد وكرامات الأولياء، باعتبارها نظما سائدة فى المجتمع الصوفى عامة، وفى المجتمع المدروس

خاصة بالاضافة إلى دراستنا العلاقة بين الشيخ الطرق والمريد وهي دراسة ميدانية توصلنا لمعرفة البواعث فى الدخول إلى الطريق بشكل أكثر واقعية .

هذا ويجدر الإشارة أنه بتفحصنا بدقة إلى مايذهب إليه أصحاب التحليل النفسى عن المعتقدات الدينية، فإننا نجد أنهم يردون الاعتقـــاد الدينى إلى مقولة واحدة وهو أنه يشبع عند الأفراد أعمق شهوات النفس البشرية ويزيل بعض التوتر والقلق والاضطراب الشعورى واللاشعورى ولذلك فإن المتدينين يعتبرون معتقداتهم الدينية تمثل أثمن شيء فى الحياة وأعلى مافيها .

ونحن لا نعارض رأى أصحاب التحليل النفسى مع قصور هـــذا الرأى وضعفه، حيث أنه باب لايمكن اغفاله كباعث من البواعث للدخول فى الطريق الصوفى، ومن ناحية أخرى إذا أمكننا تحديد حدود الباعث على ضوء نتائج التحليل النفسى فإننا نجد تفسيرهم لايتعارض مع مايذهب إليه أئمة التصوف فهم يرون أن الباعث الدينى مرجعه عدم الرضا عن الحال، والأمل فى الوصول إلى الكمالات الاخلاقيه وذلك بالاسترسال مع الله علاوة على الرغبة اللاشعورية فى استجلاب النعيم والظفر بالجنة التى وعد بها الله عباده، فهناك ارتباطا لاشعوريا وثيقـا بين الحياة الدنيا وبين الجزاء فى الآخرة .

فالاعتقاد الدينى عند أصحاب التحليل النفسى يمثـل العصاب عند المراهقين الذى هو تعبير عن القوى التى تمثل وجوه الصراع الذى يؤدى إلى أسمى أمانى جنسنا، وأعمق مايحقق من تقدم وازدهار، فالعصابيون هم حملة المشاعل الحضارة فهم يرهقون أنفسهم من المجهود المضنى الذى يبذلونه والذى لولاه لما قامت هناك حضارة أو مدنية (١) .

فإذا طبقنا ذلك المفهوم على المريد فى الطريق فإننا نجده فعلا يصارع هوى

---

(١) أرنست جونز — التحليل النفسى « ترجمة د. فتحى الشنيطى ـ ص١١٨ ومابعدها .

نفسه ويكبح جماح شهواته ليرقى بنفسه ومن حـــوله ولولا ذلك الصراع الداخلى وعدم رضائه عن حاله لفترت همته وزهد فى المجاهدة ، إلى مقام أعلى ودرجة يرى فيها الحق غايته، والجنة أمله ومطمحه .

فالباعث الحقيقى واضح فى معانى الصوفية فى عزوف النفس عن الدنيـــا والمجاهدة فى الله وذلك بالتوبة ، وذلك وارد فى قوله تعالى « ثم تاب عليهم ليتوبوا »(١) « ورضى الله عنهم ورضوا عنه »(٢) « يحبهم ويحبونه »(٣) .

وهذا فى تصورنا أسمى غاية يمكن أن ينشدها الإنسان فى مجتمع تتصارع فيه القوى البهيمية، ويقوم أساسا على نصرة الأقوى لا الأتقى، وبتحقيق هذه الغاية السامية يكون التصوف فى خدمة الرقى النفسى والروحى، الذى هو فى نفس الوقت رقى للحضارة والتقدم والازدهار للمجتمع والإنسانية ، بما يحويه من أخلاق سامية ، وآداب رفيعة ، وتكامل إنسانى .

---

(١) سورة التوبة ١٧

(٢) سورة المائدة ١١٩

(٣) سورة المائدة ٥٤

خاتمـــة الـكـتاب

بعد أن عرضنا حكومة الأولياء ، وأوضحنا تنظيماتها ، وبينا طريقهـــا ، وتعرفنا على آدابها وأخلاقياتها ، وتفهمنا منهجها وغاياتها ، وشرحنا قواعـدها وقوانينها ودستورها ، ثم تتبعنا نظامها الهرمى الذى ظهر فى قمته القطب الغوث كرئيس لهذه الحكومة ، له مطلق السلطات على أعضائها ، والذى يستمد وجوده من قطب الأقطاب الأوحد المعد لجميع الأقطاب عبر الزمان والمكان إلى قيـــام الساعة ، وهو الرسول ﷺ .

ولقد أكدنا فى دراستنا وجود الإمامين والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء والرجباء وغيرهم من أعضاء الحكومة الباطنية من الأولياء .

وبعد أن تم امتحان ذلك ميدانيا ، وذلك لاختبار صحة ما تكشفت عنه حصيلة الدراسة النظرية ، والذى اتضح منه صدق الفرض الذى وضعناه حيث تبين وجود مصادر تشريعية لهذه الحكومة تقوم أســـاساً على التوحيد والإيمان والاخلاص ، والطاعة ، والنية الحسنة ، والفراسة ، والتوسم ، والرؤيا ، والإلهام ، والعلم ، واليقين .

وقد تأكد لنا أن الأوليـــاء هم صفوة الصوفية ، والنخبة المختارة من خلق الله ، والذين يعملون على طريق الإخلاص ، ويقتدون بالرسول الكريم منهجاً وسلوكا وغاية .

ولقد أظهرت الدراسة عقم مايزعمه الحاقدون من أن التصوف لم ينص عليه القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، وبعد أن تم دحض هذه المزاعم بما أوردناه

هذا الكتاب من حجج دامغة ، وأدلة قاطعة ، على أن القوم لايتبعون إلاما أنزل الله ،وما أوحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام .

كما أثبتت الدراسة ان مايحظى به الصوفية من أحوال ومقامات ، ومايعاينوه من مشاهدات وكشوفات ، وما يفتح عليهم من علوم وأسرار ، وما يفاض عليهم من منن وعطايا ، وما ينعم عليهم من تجليات وهبات ، إنما هي ثمرات لأعمالهم وجزاء لإحسانهم ، ومثوبة لصدق توحيدهم ، وإخلاص عبوديتهم ، والتخلق بأخلاق القرآن الكريم ، والاقتداء بالرسول ﷺ .

فلا غرو وأخلاق الصوفية تمثل القدوة العلية ، أن يمتازوا عن الخلق بالقربة من الله ، والمحبة فى الله ، الرضا عن الله ، ورضى الله عنهم ، إذ أن غايتهم أفضل الغايات ، وهى الوصول إلى الله تعالى ، والاسترسال معه فى كل أمر وفعل .

وليس من الحكمة أن يتساوى العارف بالله ، مع الجاهل المدعى ، وإلا فسدت الأرض ، وطغى الشر ، واستغلقت الحقائق ، وضاعت العدالة ، والتبس الأمر عند الناس .

وحاشى أن لا يفرق سبحانه وتعالى بين عباده المخلصين ، وبين عباد الشيطان المارقين ، فلقد وعد الله فى كتابه الكريم عباده الصالحين بأحسن الجزاء ، كما توعد أعداء الله وحزب الشيطان بالعذاب المبين ، كما أنه تعالى يتلطف بالمؤمنين ، ويفتن الكافرين ليزدادوا ضلالة ويمهلهم ليوم موعود .

ويعتقد بعض الناس عن جهل أو قلة بصيرة أن الفاسقين والمارقين يعيشون حياة سخية ، ويعمرون فى نعيم اللذات ويرتعون فى القوة والصحة ونعيم الحياة رغم فعلهم السيئات . . . . أما المؤمنون فحياتهم حافلة بالابتلاءات ، يعيشون عيشة ضنكا ، ولا يحصلون من نعيم الدنيا على شروى نقير .

والواقع أن الله تعالى عارف بقلوب عباده ، يعلم مايصلح لهذا وما لايصلح لذاك ، فلو أعطى هذا المؤمن مالا أو جاه لفسق ، ولو ضيق على هذا الضعيف الإيمان لاعترض وفترت همته ، وتمرد على طريق الله ، فهناك حكمة الله ، وعدله الله ، وعلم الله ، الذي لايحيط به أنس ولا جان ، ينظم ملكه بنظام دقيق ، بمشيئته وقصد منه تعالى ، فيترك الفاسق إلى حين ، حتى إذا ما اعتقد أن الدنيا قد دانت له سلبه المال والصحة والجاه جميعا ، دفعة واحدة ، دون أن يدرى وهى لطمة كبرى وجزاء رادع على ما اقترف من آثام ، كما يعوض الله المؤمن على صبره فيرزقه من حيث لايدرى ولا يحتسب ، وإذا ما إبتلاه تلطف به ، ليمتحن صدق عبوديته ، ويختبره فى اخلاص عبادته ، فإذا صبر وثابر ، كان حسن الجزاء ، وأثابه على عمله الصالح أضعافا مضاعفة ؛ وذلك مصداقا لقوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور [1] » .

فالفرق بين المؤمن والكافر ، كالفرق بين الأعمى والبصير ، فالمؤمن يعرف طريقه إلى الله ، ورغم مايقابله من عوائق ويصادفه من امتحانات واختبارات وابتلاءات ، فهو صادق الوعد ، شديد العزم ، قوى الهمة ، لا يثنيه عن المجاهدة فى الله إغراء الشيطان ، ولا زخرف الدنيا ومتاعها ، ولا يوقفه عن مصارعة الأهوال ، ومكابدة الامتحانات ، حظ ولا هوى ، وإنما يسترسل أبدا مع الإرادة الإلهية ، ويكون مع الحق تعالى كالميت فى يد الغاسل يحركه كيفما شاء وهو راض قانع متوكل صابر .

أما الكافر فمثله مثل الأعمى ، يتخبط فى طريقه ، ولايفرق بين النور والظلمة ، والحجر والذهب ، فتقوده الأهواء ، وتدفعه النزوات ويرتطم آخر الأمر فى

---

(١) فاطر : ١٢ .

طريق الثمرات ، وبقع لاريب فى بحر الظلمات ، وإن طال عمره ، وخشن عيشه ، واطمأن على نفسه .

فشتان بين حياة المؤمن والكافر ، فالمؤمن يسير فى طريق الولاية الكبرى ، فيعرف طريق الله ، ويكاشف بالأسرار ، وينعم عليه بالفتوحات ، ويحظى بالمنن والعطايا والمواهب ، ويبصر بنور الله ، ويبطش بيد الله ، ويلهم بالعلوم والحقائق التى تجل عن الوصف والبيان ، وهو فى كل ذلك متواضع لايرى لنفسه فضلا وإنما الفضل لله ، ولا يتكبر ولايتجبر ، لأن علمه إنما صدر عن الله ، ولايتعجب ولايغتر لأنه عارف إنما تسيره إرادة الله ، ولاحول له ولا قوة إلا بالله ، والولى الصادق إنما يبشر بالنعم صحوا ومناما ، تجليا وإلهاما ، دنيا وآخرة ، مصداقا لقوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا والآخرة(١) » .

فلا عجب والأولياء على طريق الله ، أحباؤه وخلصاؤه أن يكون لهم حكومة ودولة ، ونظام وآداب ، وقواعد وتعاليم ، وأخلاق وقيم ، وإن يختلف كل ذلك عن حكومة ودولة الظاهر . حيث أن منطق الباطن غير منطق الظاهر ، والامداد والاستمداد فى التشريع والقوانين متباين والسلوك غير السلوك ، والغايات غير الغايات ، والأخلاق غير الأخلاق .

ولا غرو إذن إذا قلنا أن مجتمع الأولياء غير مجتمع العامة ، فالأولياء طبقة خاصة ، يمكن أن يقال أنها طبقة ارستقراطية تختلف عن طبقة العامة فى التقاليد والسلوك والغايات ، فهناك نوع من المساواة فى الحقوق والواجبات والحريات بين الناس جميعا فى الدولة المدنية ، والقوانين والتشريعات الوضعية ، أما فى

(١) يونس : ٦٤ .

الدولة الباطنية فهناك تمايز واختلاف بين العارف والجاهل ، وبين الولى وغير الولى .

فإذا تساوى الناس فى نظر الدولة المدنية فى الحريات والحقوق الظاهرية ، فإن هناك اختلاف فى هذه الحقوق وتلك الحريات فى ظل نظام الحكومة الباطنية ، لأن العبرة هنا بالنية والاخلاص والطاعة لله جميعا ، أى بالقلب السليم والعقل السليم ، وليس بالرياء والنفاق والخداع والكذب ، والذى يمكن أن يكون سلوكا عند أعضاء الحكومة المدنية ، لأنها جميعا أمورا باطنة يعجز الحكم عليها ، ومعرفتها بواسطة القوانين والقواعد الظاهرة ، ومن هنا يأتى التناقض والاختلاف فى هذه القواعد وتلك القوانين .

أما قواعد الدولة الباطنية فثابتة لاتحتمل التناقض ولا يأتيها الفساد والتغير ، لأنها مستمده من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، فهى قواعد صالحة لكل زمان ومكان ، وأصحابها يستمدون وجودهم منها ، ومن ثم كانوا طبقة خاصة ارستوقراطية ، ليس بينهم إلا مؤمن صالح ، ومريد صادق ، وسالك تائب ، وولى عارف بالله .

وقد تبين لنا فى الدراسة النظرية والميدانية ان للصوفية سلم روحى وعلى الولى فى الحكومة الباطنية أن يعبر عشرات الآلاف من الدرجات الروحية حتى يمكن أن يخلع عليه الولاية الكاملة ، وكل منزلة أو درجة يصل إليها تعد عندهم مقاما وفى هذه الرحلة الطويلة يكتسب الولى فى كل مقام مالايحصى من المعارف والعلوم والكشوف (١) .

---

(١) الشيخ الأكبر ابن عربى — الفتوحات المكية — السفر الثانى ص٣٦٩ : ٣٨٧ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٢

ويرى الصوفية أن الأولياء هم ورثة الأنبياء وعلى أقدامهم حتى يصلوا إلى درجة يكونون فيها على قلوب الأنبياء عدا قلب سيد البشر سيدنا محمد ﷺ (١).

ويحدد الشعرانى عدد المنازل التى يجب أن يجتازها الولى ليصل الى الولاية الكاملة بـ ٢٤٨٫٩٩٩ منزلة(٢) والمنزلة مرادفة للدرجة كما أن المقام مرادف للدرجة والمنزلة .

ويرى القشيرى أن المقام هو ما يتحقق به العبد بمنازلته للآداب أو من الأدب فعنده أن كل سالك له مقام أى موضع لإقامته ، وأن لكل مقام علم وعمل وحال ، فالمقام يثمر عملا، والعمل يثمر حالا، لأنهم يرون ان حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب ، وحركات القلوب جارية لحركات الأجسام(٣) .

يبدو من هذا كله أن لكل مقام بداية ونهاية وبينها أحوال متفاوته، كما أن لكل مقام علم، ولكل حال إشارة ، ومع كل مقام ثبات ونفى — كما أنه ليس كل ما نفى من مقام، كان منفيا فيما قبله، ولا كل ما أثبتت فى مقام كان مثبتا فيما دونه(٤) .

ويوضح السهروردي المقتول +٥٨٧ تقريبا، كيفية الانتقال من مقام إلى مقام فيرى أن رياضة النفس تتيح لها الانتقال من مقام الى مقام الى أن يصل السالك الى مقام — الرضا . ويقول أن غاية النفس هى المعرفة التى تحصل عليها ، وفى أثنائها تتلاشى الذات العارفة، وهو يسمى عنده الفناء ثم تبقى فى الله، وهذا

---

(١) الشيخ ابن عربى ــ الفتوحات المكية ــ السفر الثانى ٣٦٩ــ٣٨٧ الهيئة المصرية للكتاب

(٢) الامام الشعرانى — اليواقيت والجواهر جـ٢ ص : ٨٨ ــ مكتبة المشهد الحسينى.

(٣) الامام القشيرى ــ الرسالة القشيرية جـ١ ص١٩١ تحقيق د.عبد الحليم محمود طبعة أولى ١٩٦٦

(٤) الامام الكلاباذى ــ التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق د. عبد الحليم محمود مكتبة عيسى الحلبى ١٩٦٠ .

مقام البقاء (١) .

ويوافق أبن سبعين السهروردى عندما يورد تطور السالك الى المقامات العليا، وهناك يصل الى مقامات ثلاث يشكر الله فيها على قطع العلائق، ويعرف فيها ملكوت كون الخلائق ويصل فيها الى علم الوحدة، وحضرة التوحيد، ومعرفة الواحد وعند ذلك يفتح عليه باب الغاية، حتى يعرف أن العالم والعلم والمعلوم واحد، إلى أن يستجيب له الإسم الأعظم، ويدعو به فعند ذلك يملك الكمالات الصديقية (٢) .

ويرى أئمة الصوفية أن السلم الروحى الذى ينتقل فيه السالك من مقام إلى مقام ومن موقف الى موقف، هو الطريق الأمثل لتربية النفس وتهذيبها، وعبورها مقام النفس الأمارة، إلى النفس اللوامة، إلى الملهمة، إلى المطمئنة ثم الراضية إلى المرضية حتى تصل آخر الأمر إلى مقام النفس الكاملة (٣).

ويشرح لنا ابن قضيب البان هذه المواقف أو السلم الروحى حسب تجربته الشخصية، فيبين إنتقاله من موقف الرحمن، إلى موقف البرازخ العرشية، إلى موقف الغيب والشهادة ثم يروى لنا إنتقاله من موقف الإيمان بالغيب، إلى موقف الأسراء ثم الى مقام التجلى ثم مقام الولى حتى يصل إلى مقام الخلافة ، ولا يقف عند هذا الحد بل ينتقل السالك إلى مقام المحبة مارا بموقف هوية الهواء ومنه إلى موقف العلم حتى يصل إلى موقف سر الحياة، وبعد ذلك ينتقل إلى موقف القطبية وينتهى الى موقف التصريف ثم الفناء ثم الغوثية ثم الحقيقة المحمدية، إلى موقف الإنسلاخ ومنه الى موقف الغيوب ومنه إلى موقف مناهج العارفين إلى موقف إيجاد الروح

---

(١) د. محمد على أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية ص٣٢٣ وما بعدها ـ دار الطلبة العرب ـ بيروت ١٩٦٩ .

(٢) رسائل ابن سبعين ص ١٤ وما بعدها ـ تحقيق عبد الرحمن بدوى ـ الدار القومية .

(٣) راجع ـ مقامات الصوفيه السبعه ـ كتاب الفاظ الصوفية للمؤلف .

ثم إلى موقف الفقر المطلق حتى ينطلق آخر الأمر إلى موقف الجنات التى أعدت فيها العارفين، مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (١)

ويختلف الصوفية فيا بينهم فى إيراد التسلسل لهذه المقامات، ولكن نظرتهم واحدة فى تصور نهاية هذه المقامات ، فهناك شبه إجماع فى أن الوصول الى فناء الفناء أو البقاء فى الله هو أعلى الدرجات عندهم .

فالمقام على هذا هو تعبير عن الحال أى عن القدرة فى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة حسب إستعداد السالك وعزيمته وقوة مجاهداته وصبره .

ومن ناحية أخـــرى فإننا يمكن أن نلخص هذه المقامامات كما يراها الغزالى فى أنها مقام التوبة والزهد والفقر والصبر والشكر والرجاء والتواضع والإخلاص والتوكل والرضا واليقين والوجد والمحبة والغيبة والشهود والتفرقة والجمع والتجلى والفناء والبقاء والمعرفة والتوحيد(٢) .(٣)

ويفرق الصوفية بين الأحـــوال والمقامات فالأحوال عندهم مواهب، وأما المقامات فمكاسب، ومعنى ذلك أن ما يرد على القلب من غير إكتساب سواء كان خوفا أو طربا أو قبضا أو بسطا يعد من الأحوال (٤) .

أما المقام فهو الذى يصل اليه السالك بالمجاهدة والصبر والجوع والزهد ، ويرى بعض الصوفية أن مقام الاكتفاء بالله ليس فوقه مقام سوى مقام النبوة (٥)

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي ــ الانسان الكامل فى الاسلام ص ١٢٣ــ٧٣ مكتبة النهضة

(٢) احياء علوم الدين — جـ١ ص ٢٠٧٣ وما بعدها ــ كتاب الشعب ١٦٩ .

(٣) راجع كتاب المؤلف ــ ألفاظ الصوفية ومعانيها

(٤) القشيرى — الرسالة القشيريه جـ١ ص١٩٣ ــ تحقيق١٩٥٥ د. عبد الحليم محمود.

(٥) الشيخ أبو بكر بنانى — مدارج السلوك ص ٢٢ الطبعة الاولى .

ومن الملاحظ أن بعض الصوفية لايتفقون كما سبق الاشارة فى تحديد المقامات والأحوال فما يراه بعضهم من الأحوال يراه البعض الآخر من المقامات، ويعلل الصوفية ذلك بأن الأحوال التى تتقلب على القلب لا يمكن حصرها أو عدها أو تحديدها فلو أراد أحـــد ذلك فعليه أن يحصل على جميع فنون الفكر، وهذا غير مستطاع لأن الثمرات التى يحظى بها السالك لا متناهية، وكذلك الأمر بالنسبة المقامات فإنه من الممكن معرفتها إجمالا أما تفصيلا فلا، لأن ذلك يستدعى معرفة العلوم كلها.

ويؤيد ذلك السيوطى عندما يورد حديث الرسول ﷺ (١) أنه ليغان على قلبي حتى أنى أستغفر الله تعالى فى اليوم مائة مرة، وهـذا معناه أن الرسول كان يغطى قلبه بالإستغفار لأنه كان دائم الترقى من حال إلى حال ، ولو أننا لا نتمشى مع هذا الرأى إذ كيف يكون الرسول ﷺ موحى اليه، علمه ربه وهو فى حال التلوين، وليس التمكين رغم أنه صاحب الكمالات الأخلاقية.

أما الترمذى (٢) فـهى المقامات اربعة، مقام الصادقين والصديقين والمقربين، والمنفردين، ولكن بعض الأئمة يعبر عن المقامات بأنها مقام العوام، والخواص، وخواص الخواص.

أما السهروردى فإنه يعطى المقامات درجات ويقسمها إلى خمس درجات والدرجة الخامسة هى مقام التوحيد ويرى أن على السالك أن يجاهد حتى يصل الى نور الأنوار، وهى الغاية التى يبغيها الكاملون فى العلم والعمل معا، وقل من يصل اليها (٣).

---

(١) الشيخ السيوطى الجامع الصغير ص٩٣ وذكره الطبرى فى الرياض النضرة والسراج فى اللمع

(٢) د. عبد الفتاح بركة الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ص ٢٥٣ وما بعدها مجمع البحوث الاسلامية.

(٣) د. محمد على أبوريان أصول الفلسفة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردى ص٣٣/٣٤٠

ويستخدم الصوفية مصطلحات وتعبيرات وإشارات رمزية يدللون بها على ما يقصدونه من معان ، ويجلس الغريب ولو كان عالماً فى مجلسهم ويخرج ولا يفهم ما يقولون شيئاً ، ومثل ذلك ما أورده السيوطى (١) من أن حقيقة التوبة ، تميز الثقة من العزة ، . . . . . . والتوبة من التوبة فإذا سمع الفقيه — على حد قوله — هذا اللفظ التوبة من التوبة استغربه وقال كيف يتاب من التوبة ؟ وهى عمل صالح وإنما يتاب المرء من المعاصى ، وحقيقة المعنى الصوفى لهذه التوبة أن العبد لا يلتفت بعد توبته الى أعماله ولا يسكن اليها ، ويرى القشيرى أن توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة (٢) . ومعنى التوبة من التوبة هو أن يتوب المرء حتى من التفكير فى التوبة التى كان سببها المعصية — فتفكيره يفكر فى التوبة علامة على أنه إرتكب إثماً وأنه تاب عنه ، وهذا هو الفرق الجوهرى بين أهل الظاهر والباطن والعامة والخاصة من الناس .

وكذلك الحـــال بالنسبة للطاعة لله ، فالصوفى إنما إنعقدت إرادته مع الله فلا ينظر إلى حظوظ نفسه ، ولا الى أعمالها الصالحة بل يرى نفسه عبد الله فينسب كل خير وفلاح إلى نعم الله ، وعطايا الله ومنح الله ، أما نفسه فلا يفكر فيها ، ولا يرضى أبدا عنها ، وإنما يتهمها بالتقصير وذلك بمخالفة طلباتها وحظوظها ، فالطائع إذن هو الذى ينظر بنور الله ظـــاهرا وباطنا ، فلا يفتنه عمل صالح قام به ، ولا يتظاهر بالطاعة كى يكسب حب الناس ، ولا يفعل الطاعات إبتغاء مدح وثناء لأن الصوفى يعرف أن ذلك من الشرك الخفى ، فالمهم الصدق فى الطاعة ، والإخلاص فى الطاعة ، والنية الحسنة ، وهنا يكون الإمداد والإستمداد ، والبصيرة والفراسة ، والكشف والكرامة بل هنا تكون لغة الأشارة بدل الكلام والعبارة .

---

(١) السيوطى — تأييد الحقيقة العلية ص ٢١

(٢) الرسالة القشيرية — ٥٦ جزء ١

وقد حكى عن داود الطائى ✝ ١٦٥ هـ - أن أحد الدراويش رآه مرة مبتسما فقال له : يا أبا سليمان ... من أين لك هذا الانشراح ؟ فقال داود : وأعطونى فى الصباح شرابا يقال له شراب الأنس ، فاليوم يوم عيد أسلمت نفسى للابتهاج فيه (١).

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله لأبى بكر: أتدرى... يا أبا بكر يوم يوم ؟ فقال : نعم ، لقد سألتنى عن المقادير... وروى عنه أنه قال لأبى بكر: «أتدرى ما أريد أن أقول ؟ قال نعم هو ذاك .

ويرى صاحب الرسالة القشيرية(٢) أن العلماء يستخدمون فى الفروع المختلفة للعلم اصطلاحات أو ألفاظا فيما بينهم كما نجـد ذلك فى علوم الكيمياء والرياضيات والجبر والقانون والاقتصاد ، وتنفرد كل طائفة متخصصة بألفاظها دون سواها ويقصدون بهذه الألفاظ تقريب الفهم على المخاطبين بها ، وتسهيله على أهل الصنعة .

كذلك فإن لأهل الباطن ألفاظا تستخدم فيما بينهم ، وذلك للكشف عن معانيهم لأنفسهم علاوة على الاجمال والستر على من باينهم فى طريقتهم .

وكلما أحتل الصوفى مقاما توسعت ادراكاته وتفهم الأشياء بطريقة أشمل وأعم حتى أن تصرفاته لتبدو للشخص العـادى على أنها شاذه وغريبه عما هو مألوف لنا جميعا وعما اعتدنا عليه ، وربما تنسب ذلك الى الهذيان والجنون .

وإذا دخل شخص عادى(٣) أحد مجالس الصوفية فيصعب عليه فهم ألفاظهم

---

(١) نيكلسون ـ التصوف الاسلامى وتاريخه ـ تعليق د. أبو العلا عفيفى .

(٢) الشيخ الكلاباذى ـ التعرف لمذهب أهل التصوف - مقدمة الكتاب

(٣) الشيخ أبو القاسم القشيرى ـ الرسالة القشيرية ـ جـ١ ص ١٨٧

واشاراتهم أما إذا دخل صوفى فى أى مجلس من مجالسهم، فإنه يندمج بينهم ويتفهم أقوالهم وكأنه يعرفهم من زمن بعيد ويعتبر هذا بالنسبة له جوابا عاديا وطبيعيا ومألوفا [1] ، وهذا يعنى أن التصوف تجربة ذوقية وليس علما يدرس فحسب .

ويرى صاحب الرسالة القشيرية [2] أن من يتأمل ألفاظ الصوفية ويتصفح كلامهم يجد فى مجموع أقاويلهم أو فى جملتها ما يثق بتأمله بأن القوم لم يقصروا فى التحقيق عن شأو ، ولم يعرجوا فى الطلب عن تقصير ، ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى تقديمه للرسالة القشيرية :

«أن اشارات الصوفية وألفاظهم ليست غريبة إذن إلا على الذين لم يخوضوا التجربة ولم يتذوقوا حلاوة الطريق» ، ويقول أيضا فى تقديمه لكتاب التعرف[3] . « التصوف تجربة روحية ، وليست المادة شأن بالروح فليس العلم الحديث إذن شأن — بالتصوف ، وقد قالوا قديما : «من ذاق عرف وبالتالى من لم يذق لا يعرف ، وإن الذين لم يعرفوا طعم الوجد والشوق الصوفى لا يعرفون ماهية الوجد والشوق الحقيقى .

وعدم فهم ألفاظ الصوفية راجع إلى إختلاف الوسائل كمثل سائح يريد السفر إلى الحجاز ، فالمعروف أن بعض الحجاج يسافر بحرا وبرا وبعضهم يسافر جوا فإذا اختار هذا السائح الحاج طريقه فهو مألوفه كأن يركب سبعا أو نمرا فهل نشجعه . . . لا بل سننكر عليه ذلك وسنمعن فى الإنكار . . . ولكن هل ركوب السبع أو النمر سيمنع الحاج من إتمام فرائض الحج ؟ أو اذا ركب الطائرة أيقال أنه لم يحج، لان أحدا لم يره يسافر؟ . . . لأنه لم يستخدم الوسائل المعروفة كالسيارة او الباخرة أو السير على الأقدام .

---

(١) الرسالة القشيرية جـ١ ص ٢٥

(٢) المرجع السابق جـ١ ص٢٦ ومابعدها .

(٣) الامام الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف ص٨٩—١٦٠ طبعة سنة ١٩٦٥

إن هذه الحجة يصدقها فقط من سبق له أن ركب سبطا أو نمرا، أما بقية أو أغلب الناس لا يصدقونها لأنها وسيلة غير معروفة، والناس على عوائدهم، وإنمـــا تعتبر فى لغة الصوفية « خرقا للعادة أو هى كما يقول العامة كرامة » .

وإذا استخدمنا فى شرح هذه القصة التفسير الظاهرى فربما أدى ذلك من القارىء أو السامع إلى الإنكار على من ينطق به، لذلك نجد لهذه القصة ومثيلاتها عند السادة الصوفية طريقة أخرى فى التفسير إذ يلجأون إلى الإشارات والألفاظ التى لها معان خاصة التستر على غيرهم من الأجانب .

ولقد شرح القشيرى[1] فى رسالته كثيرا من ألفاظ الصوفيـة وذلك لتسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طرقهم ومتبعى سنتهم ، كما أورد صاحب التعرف[2] وأبو حامد الغزالى فى الاحياء هذه الألفاظ وتناولها كليها بالشرح والتحليل مدعمة بأقوال شيوخ الطريق .

ولقد بين الشعرانى [3] أن ألفاظ الصوفية تختلف عن ألفاظ العلوم المختلفة ومصطلحاتها من حيث أن المريد الصادق إذا دخل مجلس من مجالس الصوفيـــة وليس عنده أى فكرة عما يتكلمون به من الإشارات، فإنه يفهم جميع ما يتكلمون به حتى كأنه واضع تلك الاصطلاحات والإشارات، كما يمكنه أن يشاركهم فى الخوض فى علومهم .

أما المريد الكاذب فلا يعرف ذلك إلا بتوقيف، ولا يسمح له قبل اخلاصه فى الإرادة — وهكذا الحال أيضا مع علماء الظـاهر الذين يعجزون عن فهم

---

(١) القشيرى — الرسالة القشيرية ج ١ مقدمة الرسالة .

(٢) الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف من ص ٨٩ — ١٦٠ طبعة ١٩٦٥

(٣) الشعرانى — اليواقيت والجواهر — ج ١ ص ١٥ — ١٦ .

كلام الصوفيه، ويمثل الشعرانى بقصة حضور الإمام أحمد بن سريج — وكان من أكابر فقهاء عصره — مجلســا الجنيد فقيل له « أفهمت كلامه . . ؟ فقال : « لا أدرى ما يقوله . . . ولكن لكلامه فى القلب ظاهرة تدل على عمل الباطن، واخلاص الضمير، وليس كلامه كلاما مبطلا » .

ويرى الشعرانى أن إنـــكار الإشارة على أهل الباطن ، ناتج من الحسد فلو ان المنـكر ترك الحسد، وسلك طريق أهل الله ، لم يظهر له إنكار لـكلامهم ولإزداد علما إلى علمه » .

وقد روى عن الشيخ الزنيمى وهو من مريدى الرفاعى أنه قال: «كنت مع الرفاعى وتوجهنا إلى عطبة القاسمية ، فلما وصلنا خرج علينا أربعة عشر سبعا قصـــدوا الرفاعى ، فلما وصلوا وقفوا على قدم الشيخ يقبلونه ، ثم وصلنا إلى ساحل البحر فخرجت الأسماك من الماء ، وقد رمت بأنفسها على أقدامه وعبرنا البحر مشيا على الماء ووراءنا الفقراء، وما ابتلت أرجلنا، ثم سرنا إلى أن وجدنا مكانا فيه أناس جلوس ، فلما رأوا الشيخ قام جميعهم وحيوا الجميع السيد الـكبير، وأجلسوه فى الصدر وجلسوا بين يديه ، وكان أول الجماعة سيدنا الخضر عليه السلام ، وكان بينهم ابن خلف، والصادق القرشى، وعمر النورى، وغيرهم وكان مع هؤلاء الجماعة السبعون الأخيار ، وبالجملة فقد كان هذا المجلس يشتمل على نحو مائتى نفر ،واستمر السيد الـكبير الرفاعى معهم إلى المغرب وهو يعمل الصحبة والمحادثة» .

هذه قصة رمزية لايفهمها إلا متذوق صوفى .

كما روى عن الشيخ [1] يعقوب الـكراز رضى الله عنه أنه قال : كنا ذات سنة مع السيد/أحمد الرفاعى فى طلب الحجج ، فلما وصلنا عرفات وصعدنا ، إذا بستة أنفار قادمين من جهة الشام، خمسة منهم لابسون الثياب الخضر،وواحد منهم

(١) أبو بكر العيدروس — القطب الـكبير الرفاعى ص ٤٤

لباسه أبيض فتقيد الرفاعي بهم وخاصة باثنين منهم ، فسألت الرفاعي فقال لي : إذهب فاسألهم، فذهبت فأجابني لابس البياض: .. وأنا الخضر . وهؤلاء الخمسة سيد المرسلين ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، رضوان الله عليهم ، فلما سمعت ذلك رجعت وأعلمت سيدي الرفاعي بهم ، ... الخ .

ويذكر لنا الغزالي في أحياء علوم الدين أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجمهـــور، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ويقسم الصنائع إلى ضربين علمية، وعملية، والعملية عنده كالمهن والحرف ولأهل كل صناعة منها ألفاظ يتفاهمون بها لإستخدام آلاتهم، ويتعاطون بها أصول صناعتهم، وأما العلمية فهي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة، ولأهل كل علم أيضا ألفاظاً إختصوا بها، لايشاركهم فيها غيرهم، إما في صورة اللفظ دون المعنى أو في المعنى وصورة اللفظ جميعا .

ويبين الغزالي[1] أن للصوفية ألفاظهم التي إختصوا بها ويشرح بعض منها مثل السفر، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ،والشطح، والطوالع، والذهاب والنفس ، والسر، والوصل، والفصل ، والأدب، والرياضة، والتحلي ، والتخلي ، والتجلي ، والعلة، والإنزعاج،والمشاهدة، والمكاشفة، واللوائح، والتلوين، والغيرة والحرية،واللطيفة، والفتوح، والوسم، والرسم، والبسط، القبض، والفناء والبقاء، والجمع، والمعرفة،وعين اليقين، والزوائد، والارادة ، والمريد ، والمراد ، البسط، والغربة،والسكر، والاصطلام، والرغبة والرهبة ، والوجد والوجود والتواجد .

وقد سأل بعض المتكلمين أبا العباس بن عطاء : ما بالكم أيها الصوفية قد إشتققتم ألفاظا أغربتم بها على السامعين وخرجتم عن اللسان المعتاد ، هل هـذا إلا طلبا للتمويه أو سترا لعوار المذهب[2]؟

(١) الامام أبو حامد الغزالي ـ احياء علوم الدين ج١ ص٣٠٢/٣٠٣ دار الشعب سنة ١٩٦٩

(٢) الامام الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص٨١ تحقيق د. عبد الحليم محمود ١٩٦٠ المجلس الأعلى .

فقال ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه ، وغيرته علينا ثم إندفع يقول :

ان أهـــل العبارة سائلونا   أجبناهم بأعـــلام الاشارة
لشهر بهـــا فنجعلهـا غموضا   تقصر عنه ترجمة العبـــارة
ونشهدها وتشهدنا سرورا   له فى كل جارحة إشـــارة
ترى الأقوال فى الأحوال أسرى   كأسرى العارفين ذوى الخسارة

ويوضح لنـا الشعرانى فى اليواقيت والجـــواهر(١) السبب الذى من أجله إستخدم الصوفية إشارتهم فيقول: أن الفقيه إذ لم يوفق يقال أنه أخطأ أما الصوفى فانه عندما لا يوفق يقال أنه كفر، لذلك كان لزاما على الصوفية إستخدام الاشارات حتى لا يشتد إنكار العامة لهم .

أما القشيرى (٢) فيدافع عن أهل الحق ويناصرهم عندما يجهر بالقول «نعم ما فعل القوم من الرموز لأنهم فعلوا ذلك غيرة على طريق أهل الله عز وجل أن تظهر لغيرهم فيفهموها على خلاف الصواب فيفتتنوا أنفسهم أو يفتنوا غيرهم .

ولنضرب مثلا لبعض الاشارات المتعارف عليها بين أهـــل الحق ومعناها الظاهر .

	المعنى اللغوى	المعنى الصوفى
الصمت :	ترك الكلام بغير ذكر الله	سر صمت الضمير عن جميع التفاصيل.
السهر :	عـــدم النوم	عدم الغفلة.
العزلة :	جوع الأبرار لكمال السلوك	جوع المقربين لموارد الانس «فالمريد هنا قد توقفت إدراكاته الحسية وهذا من رحمة الله ، والا فقد عقله »

---

(١) اليواقيت والجواهر جـ١ ص١٩ «ولولا الغز كان القول كفرا وأدى العاملين الى الفساد»

والفرق بين الحكمين، فرق بين السلوك والنية، فالسلوك الظاهرى للمريد إنما يظهر للعامة حسب مفاهيمهم - فى الحكومة المدنية - كأن يظن أنه فعل شاذ غير مألوف يتوجب عقابا أو استنكارا أو احتقارا، أما الحكم حسب السلوك الباطنى، فيرى أن المريد مافعل الا بنية طيبة قاصدا وجه الله، وان نيته انعقدت على السير فى طريق الله فتراه فى ذكره ماضيا، يدفعه الحب، ويحركه الشوق، ويفيض به الوجد، فقد ادراكاته الحسية الزائفة، واتزان شخصيته المصطنع، وعادات مجتمعة وتقاليده المألوفة، ولم يهتم بآراء وأفكار الآخرين، وانما أراد مرضاة ربه عسى أن يظله برحمته، وأن يمن عليه بكرمه، ويكتبه مع الذاكرين.

أنه لبون شاسع بين مايراه أهل الحق وأهل الظاهر.. فيما يحكم به على الأقوال والأفعال، ولكن يتبادر الى ذهننا سؤال.. هل هناك اختلاف بين أهل الباطن والظاهر فى أحكام الشريعة الاسلامية ؟

فى الواقع لا، فالصوفية يرون أنه لا حقيقة بلا شريعة، وكان الرفاعى لايقبل مريدا فى طريقته، اذا لم يكن عارفا بعلوم الشريعة، وأن جميع مشايخ الطرق يحددون أياما فى مجالسهم للفقه وتدريس العلوم الشرعية.

إذن فمن أين جاء هذا التباين فى الأحكام.. وفى الرأى ؟ وهل هذا مفيد للمسلمين...

فى الواقع أن الفرائض معروفة، والصلوات محددة، والكبائر والصغائر معلومة والنواهى والأوامر مقررة، فمن خالف أحكام الشريعة فهو منافق، أو مشرك أو زنديق وعلى ذلك فالقصاص واجب على المخالف فى الدنيا والآخرة، إذن فمن أين جاء الخلاف ؟...

الحقيقة أنه لا خلاف بين أهل الحق وأهل الظاهر... وإنما الاختلاف ناتج

عن درجات المعرفة . . عن درجات العلم . . فكل ميسر لما خلق له ، فعلى قدر علمى وعلى يكون إجتهادى، وهذا يؤكد أن درجات الحكم على الأفعال والاعمال تختلف بإختلاف العلماء والحكماء والفقهاء فالعالم أو الفقيه كما يراه الترمذى من أهل الصدق عندما يطبق ما جاء به القرآن والسنة، ويتبع الاوامر وينهى على النواهى، فيحكم بين الناس دون النظر إلى أشخاصهم الااذا كانوا من أهل الحق، فهى مالا يرى بالبصر، ويحكم بالبصيرة ، فالعالم الظاهرى يمكن أن يغير حكمه المطابق للشرع ،إذا أعطاه الله علما من لدنه ، أو مر بتجربة ذوقية كشف فيها له ، ويؤيد ذلك ما حدث للشيخ دقيق العيد عندما حضر مجلس السيد البدوى فرأى رجلا ملثما مخبولا يلتف حوله تلامذته، ويتصايحون، فقالت له نفسه : أنه لمجنون ، فقرأ البدوى ما فى نفس الشيخ دقيق العيد ورد عليه .

مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أعتابهم يسجد العقل

فعلم بولاية البدوى ، وأن حكمه الظاهرى خدعة ، وأن حواسه وإدراكاته الحسية لم تصدق ، فلم ينكر على البدوى فتوحاته ، وهذا يدل على أنه عرف ، أن باب الحق لا يفتح إلا للصادقين ، وعندما سمع البدوى حديث النفس بأنه مجنون ، كان للبدوى هذا الرد الحكيم ، فلم يسعه إلا أن يقبل يده، ويقر له بالعلم والفضل .

ويروى[1] المناوى أن أحد الصوفية شهق شهقة ثم قال :

«لو صاح إنسان لشدة وجده ، لملأ ما بين الخافقين صياحا» .

وقد اتضح من البحث أن هناك علاقة بين التوحيد الإلهى وبين علاج النفس الانسانية. فالتوحيد هو معرفة تشرق بها النفوس، فتتجلى عليها الحقائق والأسرار،

---

(١) المناوى — طبقات المناوى ص ٤٦

وتلقى إليها العارف ، فتهدى الى الطريق المستقيم، والقيم العليا ، فتتعرف النفس على مكاسبها ومثالبها ، وتتطهر بالتوحيد من عيوبها وهواها وآثامها داخل إطار التربية والتخلق وترويض النفس، ذلك أن التوحيد إنما هو إسترسال مع الله فى كل فعل من الأفعال وفى كل أمر من الأمور ، وبالتوحيد تنعقد إرادة العبد مع إرادة الله ، فلا يكون للعبد أمل إلا فى الله ، ولا غاية إلا بالله ، ولارجاء إلا مع الله .

ومن هنا يلقى إلى قلب العبد الحق والعلم والمعرفة جميعا، فيكون عبدا ربانيا مرادا لله.

وفى الطب الصوفى تظهر النفس فى صور متعددة ، تبدأ من مقام النفس الأمارة متدرجة من حال الى حال ومن مقام الى مقام ، حسب ماتيسر لها من المنن والعطايا الالهية، فتحظى بمقام النفس اللوامة، فإذا جاهدت إرتقت الى مقام النفس الملهمة، ثم الى مقام النفس المطمئنة، ومنها الى مقام النفس الراضية، ثم الى مقام النفس المرضية حتى تصل الى أعلى المقامات وهو مقام النفس الكاملة ، وذلك هو مقام الأنبياء والأولياء الكمل، وهو منتهى غاية السالكين .

وفى الطب النفسى الصوفى تقسم أحوال النفس الى طبيعتين : نفس أمارة ونفس مطمئنة ، ولكن مع ذلك توجد درجات أخرى أدنى وأعلى النفس ، سنذكرها (١) عند معالجتنا الطرق التى ينتهجها أطباء النفس الصوفى للعلاج .

ويمكننا أن نقارن بين طبيعتى النفس ، الأمارة التى تتصف بالتغيير والتقلب والتلوين والميل إلى حظوظها والركون الى أهوائها ، وحب الشهوات ، والغضب عند ضياع اللذات .

وبين النفس المطمئنة التى تمتاز بالسكينة والتواضع والرضا والإيثار والصبر على

---

(١) أفردنا لهذا الموضوع كتابا بعنوان «الطب النفسى الصوفى» (تحت الطبع).

الابتلاء والتوكل وإسقاط التدبير مع الله ، فلا خوف ولا اضطراب ولا قلق ولا ضياع ولا ضجر إنما رضا فى الله وأمل من الله .

أما عامة الناس إنمـــا تسيرهم مقتضيات مألوفات العادات ، وحكم الطبائع فينشأون على أخلاقيات مجتمعاتهم ، ويحاكون سلوك ذويهم ، وذلك عن طريق حسن الظن بهم وثقتهم فيهم ، فيعتقدون أن ما يلقنونه هو الحق الذى لا يرقى إليه شك ، ويرفضون ماعداه مهما كان مطابقا للحقيقة ، فترسخ هذه العادات والطبائع فى نفوسهم وتصبح آخر الأمر خلقا وسلوكا وطبيعة ، حتى لا يجد صاحب هذه الطبيعة من بديل لها لأن ذلك ما تعلمه وتلقنه وخبره وارتضاه وأحبه .

فالسلوك فيما يتعلق بالشخص العادى — إنما ينبعث من لذائذ نفسية تريد إشباعا وترفض أى نوع من التنفير أو المنع أو الحظر ، بل وتدفع عنها كل ما يؤلم بشتى الوسائل ومختلف الطرق . وهذه الطبيعة إنما ترفض ما يؤلم وتقبل على مايلذ بفعل خبراتها السابقة ، وعاداتها المتبعة ، فكل مااعتادت عليه تقبله وتطلبه ، وكل ما تتألم منه وتجهله ترفضه وتكرهه . والدفع والرفض إنما هو نتاج طبيعى عن الخوف من الألم وعـــدم إشباع الرغبات ، ولذلك يرتبط الألم بالكراهية ، وبالعكس فإن كل حب ناتج عن لذة سابقة وتجربة وخبرة شخصية ، سواء كانت تجربة سلبية أو إيجابية .

والشخص العامى إنما يقبل على فعل من الأفعال ، نتيجة لما تعود عليه وتحقق فى ظنه من منافع ولذات ، فيفعل مايفعل بحكم العادة والطبيعة بلا تحليل أو تفكير للمواقف والإتجاهات ، وتتكون شخصيته حسب هـــذه الخبرات والتجارب والمعارف ، وترسخ فى نفسه ، وتصبح كما سبق أن ذكرنا — طبعا وخلقا وسلوكا ، فلا يقبل على غيرها إما لخوف من المجهول ، أو لحب مأمول ، أو لذة قريبة المنال .

وهكذا تتكون الشخصية عند أغلب الناس ، وليس فى طبعها صراع بين الأضداد ، أو البحث عن الحق والصدق والمعرفة ، ويكون الاطار الغالب عليها ينطلق من مبدأين هما : الحب والكراهية، أو بمعنى آخر النور والظلمة، أوالظاهر والباطن ، وكل هـــذه الصور التى هى مجال عمل هذه الشخصية إنما قد تمخضت عن شخصيه تنزع الى الأنانية، والأثرة ، وحب الذات ، وقد ترتب ذلك جميعا على التفاعل مع البيئة والمجتمع.

أما إذا تقدمت هـــذه الشخصية بفعل ظروف الثقافة والإيمان خطوات ، فإنها تتأمل مرة أخرى ما ألقى فى روعها ، فتسعى إلى «غربلة» ما تعلمته وإعتادت عليه من معارف وخبرات، وما ارتضته وأحبته من سلوك وتصرفات، بل تحاول إذا تيسر لها إعادة تقييم معارفها ، وذلك للتوقف عن المحاكاة واتباع مألوفات العادات .

ويتحقق ذلك بوضع مثل جديدة ، وقيم عليا تنحو اليها ، وتصبو الى بلوغها وبذلك تترك ما إعتادت عليه من اخلاقيات وما اتصفت به من طبيعة ، بل وتتخذ معايير جديدة تحكم بها على الأمور والأفعال ، وهنا يبدأ الصراع الحقيقى ، اذ ترفض هذه الشخصية ما تلقته وخبرته . وما ألقى فى روعها اذا كان لا يتواكب مع المثل العليا الجديدة التى أصبحت قدوة وسلوكا وغاية لها .

وكما سبق القــول فان النفس الانسانية التى يطلق عليها أسم النفس الأمارة انما تختلف طبيعتها عن طبيعة النفس المطمئنة اختلافاً واضحاً ، فالنفس الأمارة إنما لكى تحظى بمراتب النفس المطمئنة يتوجب عليها أن تحدث تغييرا فى عاداتها وطباعها وأخلاقها عن طريق قيم عليا جديدة تقتدى بها وتسير على مبادئها ولكى تفعل ذلك يجب أن تتكلف فى أول الأمر هذه الأفعال . والتكلف إنما هو أصعب

مرحلة فى صراعات النفس على الاطلاق ، حيث أنه يخالف هوى النفس ولا يتفق مع حظوظها وهواها ، لأنه عملية تخلية وتحلية ، تخلية من الأوصاف المذمومة ، وتحلية بالأوصاف المحمودة ، فالتكلف إذن تغيير جذرى فى عادات الإنسان وطبائعه التى جبل عليها ، بل هو رفض الركون إلى هوى النفس ومناداة بلذات بعيدة بدل إشباع لذات قريبة فيها الإثم والضياع والدمار . التكلف إذن على الحقيقة ، هو ترك العادات بالجملة والبعد عن المحاكاة والتقليد ، بل هو مجاهدة ورياضة النفس لسد النقص والتحلى بالكمالات الأخلاقية ، وهذا الطريق طريق صعب لايقوى عليه إلا فحول الرجال . فالنفس بطبيعتها ترفض ركوب الأهوال ، ولا تسعى إلا إلى لذاتها وهواها ، ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا من أوتى حظا اليقين والإيمان والعلم الإلهى .

وجدير بالذكر أنه لايمكن الفصل فصلا تعسفيا بين حال النفس الأمارة ، وحال النفس المطمئنة ، فالنفس واحدة لكن أحوالها متعددة ، ومقاماتها مختلفة فالنفس تحوى الفضيلة والرذيلة والخير والشر ، والشرك والتوحيد ، والنور والظلام ، والإنسان يحوى طبيعة النفس الأمارة التى تسير حسب هواها ، ويقودها طمعها ولذاتها وشهوتها ، كما تحوى النفس أيضاً طبيعة خيرة ، نورانيـــة ، تبحث عن الحقيقة ، وتنشد المعرفـــة وتتحمل فى ذلك وتتكلف ، فترفض أحيانا العادات والخبرات التى تجدها غير موصلة إلى الحقائق ، وغير دافعة النفس للترق ، أو أنها تجدها حاجبة للمعارف ، تسد باب الحقائق ، فإذا ماتكلفت النفس الأمارة الوصول إلى المعرفة سلكت بابا عظيما وهو باب الخير والحكمة ، فتؤتى الحكمة ، ولا تقبل غير الحكمة ، ومنا تؤتى خيراً كثيراً .

والحكمة إنما هى فى معرفة الله تعالى الذى هو غاية المعرفة لهذه النفس ، وأملها القرب من الله تعالى .

إذن النفس الانسانية واحدة ، ولكنها تمتاز بقدرتها على التخلق بخلق جديد والتطبع بطبع غير الطبع القديم ، فإذا كانت النفس مجبولة على الركون إلى الشهوة والإثم والفسق والفجور ، فإنها يمكن أن تتطبع عن طريق التكلف بالطهارة والصفاء ، وذلك إذا جعلت المعرفة نوراً يضيء لها الطريق ، والتوحيد هدفها الذى لاتحيد عنه أبدا ، فإذا ما اجتهدت وجاهدت فإنها تغير من جبلتها ، وتعتاد على ماهو أنفع وأثمر لها ، وتتحرر من أصفاد اللذات الحسية المؤقتة لترقى إلى لذات معنوية أبقى وأسمى ، وإلى إحساس بالسمو النفسى الذى لم تكن تجده فى المحاكاة والعادة .

ومهمة الطبيب النفسى الصوفى إنما هى فى معرفة حال مريده ، هل هو يسير على المحاكاة والعادة ، ويقبل كل مايلقى فى نفسه عن طريق حسن الظن بلا تمحيص أو اختبار أو امتحان ؟ .. أو أنه قد بدأ يتفهم أن النفس التى تسير بحكم العادة لا تعطى شيئا جديدا ولا تتقدم درجة فى رقيها لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وإنما تحيا حياة الخوف والتوتر والزمت والاضطراب والضياع .

ينظر الطبيب النفسى الصوفى إذن بعين فاحصة إلى مريده يحاول أن يربيه ويخلصه من العادات والأهواء والشهوات ، فيوجهه توجيها راشداً إلى اختيار القدوة الحسنة ، أو بمعنى آخر يوجهه إلى رؤية طريق الله ، وهذه مهمة عسيرة فالمطلوب تربية وترويض وإعداد شخصية جديدة لتدخل مجتمعا جديداً بنظرة جديدة .

فيجب أن يتخلى المريد عن كل ماتعود عليه وأن تصبح نفسه صفحة بيضاء يعاد كتابتها من جديد بنظام وترتيب فريد ، فلا يخلط فيها بين الشهوات والحقائق ، ولا بين العادات والمعارف ، ولا بين هوى الشيطان وطريق الله .

لذلك يجب أن يبدأ المريد بنسيان الكذب وبجاهدة النفس بالصدق والطهارة والصفاء ، إلى أن يدفع عنه الشك والريبة ، ويحل عليها الاخلاص والطاعة .

وهذا الطريق إنما هو طريق صعب شاق — كما سبق القول — فيه مجاهدة ورياضة ومعاناة ومكابدة لما يكتنفه من الحظوظ والشهوات ، ورفض العادات ، واقبال على طريق الله الواحد الأحد ، وهـــذا الطريق يتطلب إرادة قوية وعمل إيجابي ونية صادقة ، وبدون الإرادة والعمل والنية ينعدم التكلف ، وبإنعدام التكلف تنعدم القدرة على تغيير طبيعة النفس تغييراً جذرياً .

إذن فالطريق طريق واضح ، والمربي يعرف مثالب الطريق وعوائقه ويدفع المريد إليه دفعا ، فإذا ماصدق المريد وأخلص وأطـاع ، ورفض غواية النفس وندم على مطاوعة الشهوات ، وتجنب الاقبال على الملذات ، وعرف أن الله واحد ، وأنه الغاية والسبيل والطريق والأمل والرجاء ، وبدونه لا نجاح ولا فلاح ، إذا عرف المريد ذلك وعرف أن الاقبال على طريق الله هو الموصل إلى التوحيد الصحيح ، والذى به تتطهر النفس من آثامها ، وتبتعد عن اغترارها وغرورها ، فتسلم من الأمراض التى يسببها لها غواية الشيطان ـ وتبتعد النفس إذن عن الخواطر الشيطانية وتستعد بالتطهر والصفاء لاستقبال الخواطر الملائكية .

ومن هنا تبدأ النفس فى التطبع بالطباع الحسنة ، وذلك بالتوبة النصـــوح والندم على ما اقترفت من آثام وذنوب ، ومن أيام قضتها فى الضلال والجهالة ، ومن هنا تتوب النفس توبة صادقة قائمة على اليقين بالله تعالى اكتسبته عن خبرة حقة وعلم ووعي وعرفان بما يجب أن يتبع ومالايجب أن يتبع ، فتسهر النفس مطمئنة تشملها السكينة والطمأنينة فى طريق الهداية ، فالتوبة عن العادات المرذولة أهم مقومات التربية النفسية ، حيث النـــدم الذى يحوى طريق اختيار ماهو حق وصدق .

وبالندم الناتج عن التوبة ينتهى الصراع الذى بداخل النفس ويمزقهـا أربا أربا ، وبالندم تبدأ النفس فى الاستقرار بعد أن كان يؤلمها الاضطراب والقلق والخوف والهواجس .

فالتوبة إنما هى توصل بين مرحلتين ، مرحلة العادة ، ومرحلة المعرفة ، أو التوحيد ، فإذا ماسار الإنسان فى هذا الطريق بين عادة لفظهـــا ، وتوبة نصوح اتخذها ، وندم على مافاته من الأيام ، واخلاص وطاعة ونية صادقة ، فى أن يبدأ من جديد فى طريق الله ، فى طريق التوحيد .

وهنا يبدأ المريد فى استقبال ثمرات هذا الجهد بعد المجاهدات والرياضات ، فيتعرف على معان جليلة ، ويلهم الهامات عظيمة ويبصر بفتوحات جيلة ، فيطمئن إلى طريقه ، ويعرف طريق الحق ، فيزداد إيمانا وتوحيدا ، ويبتعد عن الشبهات والغوايات ، ويجعل الله له نصيراً ومعيناً ، فلا يذكر إلا اسمه ، ولا يتكلم إلا وهو فى قلبه ، وإذا غفل لحظة أو أخطأ ذكر ربه ، والذاكرون هم الموحـدون الذين تابوا وأصلحوا وصدقوا فتاب الله عليهم .

وإذا سار المريد فى هذا الطريق « طريق التوحيد » فإن الله لايتركه وحده ، وإنما يضىء له طريقه فيبعد عنه العوائق ويخفف عنه المصائب والبلايا ، ويعطيه نوراً من عنده يبصر به ، وثمرات هى منن يمن عليه بها ، ويؤيده ، وينصره ، فيمتلىء قلبه نوراً وطريقه اشراقا وعلماً ومعرفة .

والطبيب النفسى الصوفى فى هذه المرحلة الحاسمة يلاحظ مريده عند انتقـاله فى أحواله من غواية النفس الامارة ، إلى أن يحظى بمقام النفس اللوامة ، التى هى تعبير عن التوبة واللوم إلى نهاية المطاف ، وهى مرتبة النفس المطمئنة التى استقرت وعرفت طريقها إلى الله ، وفى هذا الطريق يكون المريد قد تخلص من الآفات

النفسية والأمراض القلبية ، وارتفع عن الأحقاد والعدوان والاغترار وذلك بالتربية والاخلاص والصدق وبما كان قد لحق به من ثوب العادة ، ومن زى المحاكاة والتقليد ، ومن الاشكال والرسوم الظاهرة .

نقول أن مهمة الطبيب النفسى ، الشيخ المربى إنما هى متابعة نفس مريده فى هذه الأدوار جميعا ، فهو فارس ينظر إلى مريده فيتكشف له سهوه واخلاصه وعمله ، ومريده لايخفى عنه شيئاً بل يكاشفه بما فى نفسه من خواطر ، فيساعده ، ويبصره ، ويرشده ، وينصحه بترك هذا وطلب ذاك ، حيث أنه الخبير بخواطر النفس الملائكية والشيطانية ، وأنه قد خاض غمار هذه التجربة من قبل وتعرف على المثالب والعيوب ، كما أنه ذاق ثمرة الاخلاص والطاعة لله تعالى .

يلقن الطب النفسى مريده إذن معنى الطاعة ، حتى تعتاد نفسه على القبول ، وعدم الاعتراض ولاتفتر أو تشعر براحة الطمأنينة ، رائدها الأول القرآن الكريم ، وغايتها التخلق بأخلاق الرسول وأملها التقرب من الله الحكيم ، فلا تطلب خيرا ولاتحزن لشر يصيبها ، وإنما هى راضية فى كل مايأتيها من خير أو شر ، متوكلة ، ومتوجهة إليه على الدوام والاستمرار .

ثبت المراجـــع

المراجع العربية

مراجع اصلية :

ابراهيم الباجورى : تحفة المريد على جوهرة التوحيد

ابراهيم السمرقندى : تنبيه الغـــافلين

ابراهيم حلمى القادرى : مدارج الحقيقة

ابن القيم الجوزيه : الـــروح

ابن عربى : الفتوحات المكية سفر ١، ٢، ٣

» » : رسائل ابن عربى

» » : مشكاة الأنوار

ابن عطاء السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير

» » » : تاج العروس

» » » : الحكم العطائية

أبو الأعلى المورودى : مناهج الانقلاب الإسلامى

أبو الفيض المنوفى : وحدة الدين والفلسفة والعلم

أبو بكر الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف

أبو بكر بناقى : مدارج السلوك إلى مالك الملوك

أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء ج من ١ إلى ٩

أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين جزء من ١ إلى ١٦

» » » : الاقتصاد فى الاعتقاد

» » » : الكشف والتبيين

أبو حامد الغزالي : إلجام العوام

« « « : المنقذ من الضلال

« « « : فضائح الباطنية

« « « : مكاشفة القلوب

« « « : المضنون به على غير أهله

« « « : المضنون الصغير (المسمى بالأجوبة الغزالية)

أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ، ٢

أبو النصر السراج الطوسى : اللمع جزء ١ ، ٢

أحمد ضياء الدين : جامع الأصول

السلمى : طبقات الصوفية

السخاوى : التبر المسبوك

الشبلنجى : نور الأبصار

الهروى : مدارج السالكين

المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة ج ١ ، ٢

المناوى : طبقات المناوى

أندريه كرسون : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة — ترجمة د. عبد الحليم محمود

د. توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى

جلال الدين السيوطى : الجامع الصغير

« « « : تأييد الحقيقة العلية

« « « : جمع الجوامع

جمال الدين أبو المواهب : قوانين حكم الاشراق

جمال الدين الاتابكى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
شهاب الدين السهروردى : هياكل النور تحقيق د. ابوريان
د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى
» » » : المدرسة الشاذلية
» » » : أبو الحسن الشاذلى
د. عبد الرحمن بدوى : الانسان الكامل فى الإسلام
عبد الرؤف المناوى : الكواكب الدرية
عبد السلام الحلوانى : الرسالة الوفية فى الرد على منكرى الصوفية
عبد القادر الجيلانى : الغنيـــة
» » » : الفتح الربانى والفيض الرحمانى
» » » : فتوح الغيب
عبد الكريم الجيلانى : الانسان الكامل
عبد الكريم القشيرى : الرسالة القشيرية جـ ١ ، ٢
» » » : التحبير فى التذكير
عبد المجيد النقشبندى : الأنوار القدسية تحقيق وتقديم محمد الرعاوى
عبد الوهاب الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ، ٢
» » » : اليواقيت والجواهر جـ ١ ، ٢
» » » : الكبريت الأحمر
» » » : تنبيه المغترين
» » » : الكوكب الشـــاهق فى الفرق بين المريد الصادق (مخطوط)
د. عثمان أمين : الجوانيـــة

عفيف الدين اليافعى المكى : روض الرياحين فى حكايات الصالحين
على مبـــارك : الخطط التوفيقية
د. مصطفى حلمى : ابن الفارض
د. محمد على أبو ريان : الفلسفة الإشراقية
ياقوت الحموى : معجم البلدان

- مراجع اخرى :

د. أحمد أبو زيد : الانثربولوجيا الاجتماعية
الشيخ أحمد حجاب : العظة والاعتبار
الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير : الحيـــاة بعد الموت
الشيخ الشطنوفى : بهجة الأسرار ومعدن الأنوار
« الشرنوبى : شرح تائية السلوك
سير جيمس فندلاى : على حافة العالم الاثيرى . ترجمة أحمد فهمى أبو الخـــير
دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام
د. سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام
الشيخ صادق عرجون : التصوف فى الاسلام
صـــلاح عزام : أقطاب التصوف الثلاثة
فتحى رضوان : الإسلام ومشكلات الغد
د. عاطف غيث : مقدمة فى علم الاجتماع
الشيخ عبد العزيز الدباغ : الأبريز
د. عبد الفتاح بركة : الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ج ١، ٢
الأستاذ عبد الحكيم المغربى : القيم الذاتية فى الإسلام

الشيخ محمد حسنين مخلوف : حكم الإسلام فى التوسل بالأنبياء والأولياء

د. محمد غلاب : هذا هو الإسلام

معجم ألفاظ القرآن الكريم : المجمع اللغوى

د. مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع

نيكلسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه — تعليق دكتور عفيفى

الشيخ وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى .

هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية

المراجع الأجنبية :

1) H. A. R. Gilb. Mohammedanism

2) J. L. Goodall An Introdution to the philosophy of Religion.

3) Bertrand Russell. Mysticism and logic.

4) E. C. Hodgkin. The Arabs.

5) Bertrand Russell. Mysticism and Logic.

فهرست الموضوعات

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

(تم بحمد الله)

١ / ١٠٧٧٩٩ — ٣٠٠

دار المعـــارف — ١١١٩ كورنيش النيـــل - القـــاهـــرة
الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)